الديمقراطية الأمريكية

في السياسة والاقتصاد

تأليف

هارولد لاسكي

ترجمة

دكتور راشد البراوي

الديموقراطية الأمريكية

في السياسة والاقتصاد

تأليف

هارولد لاسكي

ترجمة

دكتور راشد البراوي

الطبعة الأولى
١٩٦٠

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم وتعريف

بقلم المترجم

كانت الديموقراطية الأمريكية الموضوع الذى تناوله بالبحث والتحليل والتعليق ثلاثة من الباحثين الأفذاذ ، أراد كل منهم أن يعرض مقومات تلك الحضارة الجديدة التى قامت فى النصف الغربى من الكرة الأرضية ، بروح من الموضوعية العلمية . أخرج الفرنسى توكفيل مؤلفه « الديموقراطية فى أمريكا » وقد أخذت الولايات الناشئة تسير فى طريق التوسع والتطور ، ثم أعقبه فى أواخر القرن التاسع عشر اللورد بريس وقد قطعت الثورة الصناعية شوطا بعيداً فى ذلك البلد ، فأعاد إلى أهله ثقتهم بأنفسهم وراح يحدث الأوروبيين أن حضارة جديدة قد نمت ولديها ماتعلمه للغير بالقدر الذى تتعلمه منهم . وخرجت الولايات المتحدة من الحرب العالمية الثانية قوة ضخمة لتلعب دوراً قيادياً ولتضطلع بمسئوليات كبيرة فى النطاق الدولى . وهنا طلع هارولد لاسكى بكتابه « الديموقراطية الأمريكية » ، يعالج أسسها ويفسر حقائقها ومظاهرها ويشيد بأعمالها وما حققته ويبدى الرأى فيما يعده مآخذ عليها ويحاول أن يستشف ماقد يطرأ عليها من تطورات فى المستقبل ، وذلك بروح تتميز بالنزاهة العلمية .

إنه يحدثنا عن العوامل الطبيعية والاقتصادية والاجتماعية والظروف التاريخية التى اشتركت فى تكوين الروح الأمريكية وتشكيل التقليد الأمريكى . فالأمريكى تمتلئ نفسه بروح المغامرة والارتياد ، ويؤمن بالعمل والجهد ونبلهما ، ويعتقد أن لكل اجتهاد جزاء طيبا يتمثل فى اجتناء الربح واقتناء الثروة ، ويسود تفكيره وتصرفاته شعور التفاؤل بمستقبله ومستقبل بلده ، فباب التقدم والارتقاء

مفتوح أمام من يود الدخول فيه ، والغد خير من اليوم أو ينبغى أن يكون كذلك . ومن أجل هذا يولى التعليم اهتماما كبيرا ويحرص على توفيره للأفراد العاديين . ولكن أعظم الاهتمام ينصب على الناحية التطبيقية لأنها السبيل إلى الربح والثراء ومن هنا فرجال من أمثال أديسون وفورد يثيرون خيال الأمريكى واحترامه أكثر من أساطين الفن وكبار الفلاسفة وأفذاذ المؤرخين .

هذه النظرة عن المجهود الفردى ولدت الإيمان العميق بنظام « المشروع الخاص » ، وهذا صحبه الشك فى تدخل الدولة ، بل من المبادئ التى تلقى الترويج هناك أنه كلما قللت الدولة من التدخل كان ذلك أفضل . هذه الفلسفة تفسر عدم نجاح الآراء الراديكالية لأنها تعتبر « بضاعة مستوردة » ومتعارضة مع التقليد الأمريكى فالحزب الاشتراكى يضم بضعة آلاف لايستمع إليهم الجمهور أو على الأقل لايأخذهم مأخذ الجد ؛ والحزب الشيوعى « بالرغم من حماسه ونشاطه الرائعين ومن تلونه بصورة تبعث على السخرية ... ما يزال معتبراً فى الحقيقـــة فرعاً من وزارة الخارجية السوفيتية »(١) .

على ضوء تلك النظرة كانت « الدولة السلبية » موضع الرضاء ، وماتزال حتى اليوم تمثل الهدف الأعلى لرجل الأعمال الأمريكى . وكانت فترة رآسة أمثال كوليدج وهوفر تعتبر فى نظره عصرا ذهبيا . ولكن فى خريف عام ١٩٢٩ وقع الكساد الكبير الذى كان أكبر أزمة اقتصادية تعرضت لها البلاد وأخذت الأحوال تتدهور منذرة بالخطر ، وتلفت الناس إلى الحكومة الاتحادية لإنقاذهم ، وانتخب فرنكلين روزفلت وبدأ التدابير التى عرفت باسم « السياسة الجديدة » New Deal فتدخلت الحكومة وأمكن الحد من الانهيار وتوقفت البطالة الضخمة وسارت البلاد فى طريق الانتعاش وزادت درجة العمالة . كان ذلك نقطة تحول بالغة الأهمية: لقد انتهى عصر الدولة السلبية القديمة وأخذت الدولة الايجابية فى الظهور . قد يختلف الجمهوريون والديموقراطيون ، وقد تحارب الآراء الراديكالية ، وقد يبدى كبار رجال الأعمال

---

(١) انظر ص ١٧٢ من الكتاب .

السخط على السياسة الجديدة وفلسفتها ولكن الرجل العادى أصبح يرى أن فى وسع الدولة أن تحول دون البطالة وأن تمنع وقوع كساد جديد. وهذا تحول له مغزاه بالنسبة إلى المستقبل. وساعد على ذلك النجاح الذى حققته المشروعات العامة مثل هيئة وادى التنيسى . إذا كان مثل هذا المشروع حقق غايته ، فلماذا لاتحاول الدولة الاتحادية أو فى الولايات إجراء التجربة ذاتها بصدد مرافق مثل النقل وتوليد الكهرباء . والنتيجة التى يريدلاسكى تأكيدها أن « الدولة الإيجابيــة » صارت حقيقة حية ، ولم يعــد الشعب الأمريكى يحتمل أن يرى فى البيت الأبيض أمثال كوليدج ، وإنما يريد رئيسا إيجابياً ذا فاعلية .

ولقد أختار الشعب النظام الرآسى ومايزال مؤمنابه وسوف يظل كذلك طويلا ، ومن هنا الأهمية البالغة لذلك الذى يجلس فى البيت الأبيض ، فعلى أعماله تتركز أنظار الشعب ، وتكاد أفكاره جميعا أن تصبح أنباء. «إن الرئيس العظيم يلقن الشباب درسا ساميا ، ويركز عقولهم فى الأهداف الكبيرة ، ويعتبر وقاية للبلاد ضد البلادة التافهة التى لا تجعل من الديموقراطية أكثر من مجموعة من الأشخاص »[1] . ومادام الأمر كذلك فيجب أن تتاح له الفرصة كى يكون ذا فاعلية ومن هنا يرى المؤلف إطالة مدة الرآسة إلى ست أو سبع سنوات حتى يصبح فى وسعه أن يضع أمام الناخبين سياسة تكون مسئوليته عنها واضحة ومباشرة ، وأن يستعين بالمواطنين الأكفاء[2]. هذا من جهة ، ومن جهة أخرى نجد مجلس الشيوخ يشارك الرئيس فى السياسة الخارجية إذ لابد من موافقته بأغلبية الثلثين على المعاهدات والاتفاقات الدولية . ولما كانت الولايات المتحدة مضطرة إلى أن تلعب دوراً رئيسيا فى النطاق الدولى وعليها التزامات يمليها عليها ميثاق الأمم المتحدة ، ولما كان الإبطاء أو التسويف من جانب المجلس يفسح المجال أمام المعتدى ، لذلك يجب فى نظر لاسكى تعديل الدستور بحيث يسمح للرئيس وحده بإلزام البلاد بالإجراء الذى تتخذه سلطة عالمية ضد من يهدد بالعدوان أو يقدم عليه ، كما يجب إبدال أغلبية الثلثين بالأغلبية العادية [3] .

(١) ص ٤٠ . (٢) ص ١٦٥ . (٣) ١٦٩ .

ثم يعرض المؤلف للحزبين الكبيرين ، الديمقراطى والجمهورى ، فاذا بهما جماعات تتآلف حول الأشخاص وتتصارع من أجلهم ، ولا تفرق بينهما أيديولوچية واضحة ، بحيث لايرى المرء غضاضة فى الإنتقال من حزب إلى الآخر . ولكل حزب أداته فى الولاية وفى المدينة والريف ، وهذه الأداة تقع تحت سيطرة « سيد » الجهة وتتحالف مع المصالح الكبيرة ، بحيث يمكن القول بأن هناك حكومتين : الحكومة القانونية التى ينتخبها الشعب ، والحكومة « غير المنظورة » التى فيها السلطة الفعلية ـ عدا حالات قلائل ـــ وهذا مايفسد الإدارة فى الولايات بصفة خاصة . وهنا يضع المؤلف أصبعه على علة الضعف فى الديموقراطية الأمريكية ألا وهى سيطرة رأس المال على الحكم ، ويرى ذلك ظاهرة من خير أمريكا السعى إلى زوالها .

ولكن كيف تحققت هذه السيطرة ؟ إن رجل الأعمال الأمريكى له مزاياه التى تتمثل فى الحيوية الفائقة ، والإخلاص الكامل لعمله ، والاستعداد للتحول من حرفة إلى أخرى تتيح فرصاً أوسع ، والنظرة البعيدة إلى الأمور ، وحسن التقدير لأهل الخبرة والبحث . ولكنه لايريد الاشتغال بالسياسة لأنها تصرفه عن العمل واجتناء الأرباح واقتناء الثروة ، وفى الوقت نفسه يحرص على أن تكون مصالحه موضع الحماية والرعاية ، بمقاومته النقابية ومكافحة الآراء الحرة والحصول على العقود والامتيازات ، والعمل ـــ ما وسع الجهد ـــ على إبعاد الدولة عن التدخل فى شئونه الخاصة ، وهنا تتقدم الأحزاب لتعرض خدماتها وهو على استعداد لأداء الثمن : ولكنه فى الواقع يستغلها ويسيطر عليها .

إن « الديموقراطية الأمريكية » لهارولد لاسكى والذى أخرجته المطابع لأول مرة فى يونيه من عام ١٩٤٨ سفر ضخم يتناول جوانب الحياة الأمريكية المتنوعة ، وهانحن أولاء نقدم إلى القارىء العربى القسم الخاص بالنظام السياسى ومشروعات الأعمال لأهميته راجين إخراج الأقسام الباقية فى المستقبل .

والله نسأل أن يوفقنا إلى مافيه الخير وخدمة الثقافة

القاهرة فى ٢٧ أبريل ١٩٦٠

الفصل الأول

تقاليـــد أمريكا

— ١ —

أسهمت معظم الحضارات الماضية فى تكوين الديموقراطية الأمريكية، فعملت أوربا والشرق الأقصى سواء بسواء على قيامها وتطورها ، كما نلقى فى أعماق جذورها خيوطا من القارة الإفريقية . وخلال القرون الأربعة والنصف التى أعقبت ظهور أمريكا إلى دائرة الوعى التاريخى انتقلت من الفترة التى كانت فيها موضع الأطماع الاستعمارية إلى حيث تقف مستقلة وفى قمة القوة السياسية . وخلال تلك الفترة بالغة الأهمية ليس من ظل من الشك فى أن تأثيرها غير نظرة الجنس البشرى حينما تجلت قوة انعـكاسه على معنى الشئون الإنسانية . وحتى يومنا هذا لا نجد دولة عملت ماعملته أمريكا لتجعل من فـكرة التقدم جزءاً من التـكوين الفـكرى للانسان ومن الحرية حلما تغلب على دعاوى النشأة والثروة . لقد كانت بشكل ظاهر الملجأ الذى هرع إليه المضطهدون لأسباب سياسية أو دينية ، على الأقل، فى الفترة التى أعقبت نزول الآباء الحجاج على شواطىء نيوانجلند الصخرية ، وهيأت للرجل العادى فرصة التقدم على نحو لم يعرفه فى أى مكان آخر ، وأنها لقلة تلك البلدان التى أستغلت موارد مادية بمثل هذه الدرجة الـكبيرة ، أواستطاعت التحرك بمثل هذه السرعة إلى مركز القوة فى تأثيرها على الحضارة ، وإذا تعرضت للـكراهية أحيانا وللحسد أحيانا أكثر فقد توافر دائما الإدراك فى ظلها بأنها احتلت مركزاً فريداً بين شعوب العالم . أنها تقف الآن على مقربة من ذروة حظوظها ، ومن الصعب خلال الجيل المقبل الشك فى أن السياسة العالمية سوف تدور فى نطاق الأغراض التى تتوخاها أمريكا ، وعلى الطريقة التى تقرر بها استخدام قوتها الإنتاجية الساحقة يتوقف بدرجة هائلة قدر غير يسير من مصير أوربا وآسيا ، وربما إفريقية .

يكاد ألا يكون هناك شعب أوربى لم يسهم بنصيب فى تشكيل التقليد الأمريكى ، فالأسبانى خلف أثره فى كاليفورنيا ، والهولندى فى نيويورك ، والأنجليزى فى منطقة ساحل المحيط الأطلسى ، والألمانى فى بنسلفانيا ، والسويدى فى الشمال الغربى ، والإرلندى فى نيويورك وشيكاغو ، والفرنسى فى لويزيانا وخلال فترة ما فى وادى المسيسبى . وبتقدم أمريكا الاقتصادى اجتذب الغرب والمساحات اللانهائية التى اشتدت حاجتها إلى الأستيطان جموعا من البولنديين والروتينيين والصرب والكروات والإيطاليين واليونانيين ، وحين تحقق الاستقلال عام ١٧٨٣ كانت الولايات المتحدة عالماً صغيراً أسهم فيه كل مغامر أوربى بحصته ، وصارت بعد ذلك أشبه بغور صب فيه ما كان فى أوربا من روح الإقدام والمغامرة ، قد يصح القول أنه حتى الحرب الأهلية كان القالب الذى انصبت فيـــه هذه المجموعة المتنوعة الهائلة والوافدة فى موجات متتالية لانهاية لها مما شكله التقليد البريطانى ، وربما كانت طريقة التفكير فى النظم والدين والعلم والآداب إنجليزية تماما أكثر من غـــيرها . وذلك التفوق ساعدت عليه اللغة إلى جانب أسلوب الإطار السياسى .

غير أن ذلك كان دائماً انجليزيا مع الفارق . وحتى أبناء الجيل الأول ممن هاجروا من الجزر البريطانية كانوا يرتدون إنجليزيتهم مع الفارق ، وهذا واضح فى حالة رجال مثل توم پين وأشد وضوحا فى حالة الرجل الأمريكى المولد . وإذا صح أنه ليس من الصعب جداً أن نرى فى جورج وشنطن من ناحية المزاج والعادات أنموذج السيد الإنجليزى الثرى إلا أنه ما من شك أن صمويل آدامز وچيفرسون وفرانكلين وچون چاى أمريكيون بالمعنى الذى يجعل من ميراثهم الإنجليزى مجرد عنصر فى الطابع النهائى الذى بدوا فيه ، ما من أحد يقرأ أدب أمريكا حتى إلى عهد نشوب حرب الاستقلال دون أن يرى أنموذجا قوميا جديداً قد ظهر على المسرح التاريخى ، ففيه نزعة عملية ، وشغف بشق طريقه الخاص به فى الحياة ، وحماس من أجل إثبات وجوده ، وهذه كلها صفات منبثقة من عالم أبعد عن إنجلترا التى هزمها . إن البيئة التى يعمل فيها تتحكم فى العادة التى كان يود بغير شك الإبقاء عليها لو ظلت قائمة الصلة التى ربطته بانجلترا . ربما كانت الروح المحافظة فى إسكندر هاملتن بالقوة

ذاتها التى نلقاها فى لورد إلدون فى إنجلترا ولكنها روح أمريكية بشكل واضح ، وراديكالية توماس جيفرسون ترتد إلى أسس يفخر بتقبلها شارل جيمس فوكس ولكنها راديكالية نمت فى اتجاه يختلف عما كان الأخير يرى من السهل السير فيه ، ودافع كبير القضاة مارشال عن دعاوى الملكية بحماس لا بد وأن يجعل أعضاء محكمة بريطانية يشعرون أن هنا شريكا لهم فى مجهودهم التشريعى ، غير أن الأسلوب الذى يدافع به عن وجهة نظره لا يكاد يفهمه القاضى الانجليزى من أهل عصره. وقد يحلل جون آدامز مظاهر ضعف الديموقراطية بحماس يمتدحه ولیم وندهام لو علم به ، إلا أنه من الصعب الظن بأنه كان فى وسع الأخير تفهم الأساس الذى بنى عليه آدامز دراسته للمشكلات .

وإذا كانت قمم الجبال قد صارت فى عام ١٧٨٣ مختلفة على هذا النحو فمن الطبيعى أن تكون الأودية أكثر إختلافا . إن الشىء البارز فى الأمريكى العادى حين تم توقيع صلح فرساى فى ذلك العام أنه لا يفترض من واجبه البقاء فى المركز الذى ولد فيه . إن معظم الراديكاليين الإنجليز ينظرون إلى الماضى كمصدر للإلهام ، بل وفى عهد متأخر كأيام ديكنز كان النظر إلى حسن النية والكرم على أن فيهما حلا المشكلة الاجتماعية ، والمفكر الإنجليزى الذى تحدوه الرغبة فى إعادة تنظيم المجتمع الذى يعيش فيه على أسس جديدة ، مثل روبرت أون وتلميذه وليم تومسون، شخص نادر، بل قد يُشك أن به مسا من الجنون . إن الراديكالى العادى مثل أوكنور أو هنت أو كوبت ليس مجرد رجل تنتمى مثله العليا إلى العصر السابق للثورة الصناعية بل إن ثمت ما يغريه على الظن بأن المثل الأعلى الذى تقصده إنجلترا معناه استرجاع الماضى أكثر من البحث عن المستقبل .

وذلك لا يصدق بأى معنى على الطراز الأمريكى المشابه ، فالأخير على ثقة من أنه فى حد ذاته شخص له مغزاه الاجتماعى ، ونادراً ما يهتم بماضيه لانه متأكد أن مستقبله لن تكن له صلة بذلك الماضى . إن التقليد الذى ورثه مستمد من حضارة دنياميكية تؤكد أن ما كان بالأمس سوف يختلف فى الغد . ويفترض الأمريكى كجزء من ميراثه أن سوف يكون له الحق باستمرار فى التقدم ، ولا يتقبل فروض مجتمع

قد تسبب فيه النشأة أو الثراء الموروث كل الفارق بالنسبة إلى الآمال التى يجرأ على تكوينها ، كما هو الحال إلى حد كبير فى أوربا التى وفد منها . صحيح بلا ريب أن التاريخ الأمريكى كان به ذلك الحنين إلى الاعتراف بمركز خاص إلى جانب الرغبة فى تملك الحق الكامن فى القيادة وهما الأمران اللذان ظلت بقاياهما قائمة فى الجنوب إلى أن حطمتها الحرب الأهلية . ولا ريب كذلك أن صياغة الأمل كانت مختلفة من حيث المستوى الذى قد يبلغه بالنسبة إلى جماعات مخصوصة كالزنوج والأمريكيين من أصل شرقى واليهود وكذلك الكاثوليك إلى حد ما وفى بعض الجهات . وبالرغم من هذه الاستثناءات فالطابع الديناميكى للتقليد الأمريكى أوضح من أن نخطئه . فمنذ البداية قامت الجذور السيكولوجية للفكرة الأمريكية على أساس التوسع ، فهناك توسع إقليمى ، وتوسع فى القدرة على استخدام الموارد الهائلة التى بدت حتى عام ١٩٢٩ غير محدودة ، وتوسع ثقافى لعله يتمثل فوق كل شىء فى الإيمان بالتعليم وبحدة الدرجة التى ينظر بها إلى العلوم التطبيقية على أنها جزء عادى من الحياة .

ولكبر مساحة أمريكا نفسه أهمية فى تكوين تقليدها ليس من السهل المبالغة فى تقديرها ، ذلك أنه يخلق الاعتقاد بأنها مختلفة عن غيرها وأن لها إلى حد ما وضعاً استثنائياً وأن أمام أهلها مصيراً يباين ذلك الذى حل بالعالم القديم . إن اتساع رقعة الولايات المتحدة كوحدة طبيعية يجعل لها من فكرة الآفاق غير المحدودة ، والكشف المستمر ، والأشياء الجديدة الوشيكة الحدوث ، جزءاً من الإطار الذى يلقى كل أمريكى نفسه يعيش فيه ، ومهما كانت درجة الاعتماد على الأساليب الأوربية فى التفكير خلال الفترة التى خضعت فيها البلاد للاستعمار فإن الطريقة التى يستخدمها بها الأمريكيون تتضمن دائماً تغييراً ، تتفاوت درجته فى العمق . وأظن ذلك راجعاً إلى أنه تكمن فى أسس التقليد ، ولو لم نشعر بذلك ، الفكرة لدى كل شخص أنه رائد إلى حد ما وبالتالى نمو الاعتقاد بأنه مامن مشكلة يعجز عن معالجتها ، فإذا كان مهاجراً فهو رائد لأنه قطع الصلة بالعالم القديم ، وإذا كان ابنا لمهاجر فهو رائد لأنه يؤكد فى شخصه نهاية هذا الانفصال ، وإذا كان أمريكيا مثل أسرة آدامز

الشهيرة تمتد أصوله إلى عهد بعيد فهو رائد لأنه ينتمى إلى تلك الجماعة الصغيرة من الرجال ممن شكلوا حدود العالم الجديد .

هذه الفكرة عن الرائد تتغلغل فى كل أرجاء التقليد الأمريكى . إنها تفسر السبب الذى من أجله يندر أن يفترض الأمريكى العـــادى أن أية حرفة يبدأ مزاولتها ، باستثناء مهن كالطب والكهنوت هى الحرفة التى سيظل فيها إلى النهاية . لقد تفوق توماس چيفرسون فى كل موضوع مسه ، وبينامين فرانكلين أقل تفوقا كدبلوماسى وسياسى منه كرجل من رجال العلم ، وحين يرغب شارل كارول فى بناء بيت له فى بلتيمور لا يستدعى مهندسا معماريا وإنما يطلب كتبا عن فن العمارة وبواسطتها يقيم بيتا من أجمل البيوت فى العالم الجديد . وحين كان اسكندر هاملتن غلاما كان ضابطا ممتازاً فى هيئة أركان حرب وشنطن ، ولم تنقض أربع سنوات حتى كان ألمع فيلسوف سياسى انتجه حزب الملكية فى الولايات المتحدة ، كما يعد من أبرز من تولوا وزارة الخزانة ، ولم يصل إلى شهرته فى المحاماة سوى القلائل من رجال هذه المهنة. وهناك أندروجا كسون الفلاح والتاجر والمحامى والجندى ورجل الكونجرس ثم رئيس الجمهورية أخيراً. وتحلق فوق هؤلاء جميعا شخصية أبراهام لنكولن الذى لم عملك غير الفشل والفقر كى يفرض نفسه لا على عقل أمريكا فحسب بل وعقل الحضارة بأسرها بصفته الصورة السامية للتقليد الأمريكى فى القرن التاسع عشر . وإذ يفحص المرء المغزى الذى يتمثل فى هؤلاء جميعا فمن المستحيل ألا يستخلص أنهم يمثلون فصيلة جديدة فى التقسيم التقليدى للآدميين الذين يبحثون عن الوسائل التى يتسنى لهم بها أن يحكموا مواطنيهم .

ذلك أننا إذ نوازن بينهم وبين أمثالهم من الأوربيين نلقى اختلافا كليا . لعل وشنطن وآل آدمز من الطراز الذى كان يبرز فى الميدان السياسى فى انجلترا أو فرنسا فى أوائل القرن التاسع عشر ، أما عن الآخرين فأظن أنه لا يصح القول بأنهم ما كانوا ليحلمون بحياة سياسية أو لو أن مثل هذا الحلم راودهم لعجزوا عن الوصول إلى مراكز السلطان . وهنا أيضا يكمن فى التقليد الأمريكى اتساع الأمل

والفرحة التى تلازمه ، وعظمة هذه الصفة تتجلى فيما تبرزه فى الكثيرين من تحمس للمغامرة وشعور بالطموح ورغبة فى تحطيم الأساليب الرتيبة المحيطة بهم . والحق ، أنه لمن الواضح أنه حيث يكون تقدير الروتين موضع المبالغة فانه يصبح مدعاة للسخرية أو الغضب ، وذلك ما يراه المرء عن يقين فى العلاقات المتداخلة بين عرف قديم الأصول فى بوسطن أو فيلادلفيا أو شارلستون وبين التحدى الذى يسعى الى أن يجعله مطابقا وصالحا للمطالب الجديدة .

والتقليد الأمريكى فى جوهره فردى يميل إلى الشك فى الدولة وهذا إتجاه يرجع من ناحية إلى الجو الدينى السائد فى القرن السابع عشر ، فالرواد الأوائل رجال ونساء سعوا إلى الفرار من حكومة مضطهدة لا تتقبل معتقداتهم : ليس معنى هذا أنهم كانوا عموما من دعاة التسامح ، فموقف ماساشوستس من آن هتشنسن وروجر وليمز والفوج الأول من مبعوثى جماعة الأصدقاء دليل كاف على أن نمو التسامح كان بطيئاً وأليما على حد سواء . هذا النمو أقتضته الأحوال التى واجهها الأمريكيون ، فالقبائل الهندية تشكل خطراً مشتركا ، والمستوطنون أنفسهم من أصول متنوعة بحيث استحال الاحتفاظ لمدى طويل بأى شكل عنيف من المعتقد الدينى الجامد. لامراء أن التراث المسيحى الوارد من أوربا هو الأساس العام للتقليد الأمريكى ، ولا ريب كذلك أن رجال الدين شغلوا مركزا هاما فى تشكيله ، ولكن ندر أن استطاعت واحدة من الولايات الثلاث عشرة الإحتفاظ طويلا بارتباط كنيسة معينة بالدولة . هذا الإتجاه نحو الفصل بينهما نجم عنه تأكيد الفكرة التى ترى أنه ينبغى للفرد أن يبحث عن طريقته لخلاص نفسه ، وما أحدثه هذا من التحرر فى مجال الإعتقاد الدينى كانت له آثار محتومة بعيدة كل البعد عن حدوده الأصلية .

كان الهدف الأول للمستوطن أن يكون سيد بيئته ؛ فعليه أن يبنى بيته ، وعلى زوجه توفير الشطر الأكبر من الحاجات التى راحت تعتمد ببطء على نتائج تقسيم العمل ، مما ترتب عليه أن الأمريكيين الذين عاشوا على مجرد الامتلاك عددهم صغير نسبيا وهذه الحقيقة أسبغت على فكرة العمل كرامة وشعورا بالاعتماد على النفس ، الأمر الذى جعل لفكرة الفردية قدسية خاصة . فى أيام حرب الإستقلال كان حوالى

عشر السكان يقيمون فى المدن ، وهذا معناه أن معظم الأمريكيين افترضوا أنه يتعين عليهم الإعتماد على أنفسهم من أجل توفير الخدمات التى تعد الآن من وظائف الحكومة العادية ، وبذلك أصبح المواطن عبارة عما يستطيع أن يصنعه من نفسه بحيث مال إلى الظن بأن أى قيد تفرضه السلطة للحد من قدرته على تنمية حظوظه أمر ضار فى حد ذاته . وبذلك أصبح التقليد ينظر إلى الحكومة على أنها جهاز للدفاع وحفظ الأمن . ومما زاد من قوة هذا الاتجاه القيود التى فرضتها التجربة الاستعمارية على أطماع المواطنين الاقتصادية وآمالهم ، بواسطة التشريع الذى سنته الدولة الأم . ما من شك أن بريطانيا وفرت لهم الحماية طالما أن حكومة فرنسا جعلت من غير المؤكد ما إذا كانت حضارة العالم الجديد ستدين بالولاء للندن أو ڤرساى ، ولكن بمجرد إقتراب حرب السنوات السبع من نهايتها الظافرة صارت سيادة البرلمان قيداً ظاهرا على الفرصة، وهى السيادة التى اشتد تطبيقها كلما عظم الاستياء منها . ولسنا نسرح فى عالم الخيال إذ نقرر أن قدراً غير يسير من السبب فى تقبل مذهب الحقوق الطبيعية فى القرن الثامن عشر كونه بدا قيداً على ممارسة سلطان هو فى الحقيقة عامل يحد من بلوغ الفرص التى يراها قوم من التجار والفلاحين أمامهم . وعلى ذلك فالحجة التى ترى أن أفضل حكومة تلك التى تقلل من مزاولة الحكم معناها فتح الأبواب التى بدت فى نظر أمريكا المستعمرة موصدة لا لسبب خلاف حماية المصالح الثابتة ، وتقييد مجال نشاط الحكومة كاد أن يصبح معتقداً دينيا حتى تحقق بفضل الانتصار فى حرب ثورية .

وتدعم التقليد الفردى بطرق عدة . فهو تقليد ديموقراطى بمعنى أنه بالرغم من كل الفخر بالنسب والثراء فإن مجرد وفرة الأرض جعل من المستحيل إبقاء الأرستقراطية الزراعية طبقة مغلقة الأبواب ، وعلى أى حال فحتى صاحب المزرعة الثرى ندر أن يبلغ النجاح إلا إذا كان صادق الحكم على الناس وتوافرت له الكفاية لتفهم التفاصيل المتعلقة بتجارته . والنتيجة أن التجارة أكتسبت مركزا لم تصل إليه فى أى مجتمع آخر تكونت فيه الطبقة الحاكمة ، كما فى إنجلترا وفرنسا، من الأعيان ذوى الفراغ والجنود والبحارة ورجال الكنيسة البارزين أو من المحامين من طراز اللورد مانسفيلد الذى كان محاميا عظيما وقاضيا أعظم. وكان التقليد ديموقراطيا أيضاً من حيث

أن قيام النظام التعليمى لم يصحبه ذلك الشك الذى يرى أن التعليم « يدفع الخدم إلى التمرد على سادتهم » وهو الشك الذى لم ينته تماما فى إنجلترا حتى الآن . لقد هيأ القرن الثامن عشر دافعا عاما وقويا لفكرة المساعدة الذاتية ، وشهرة رجال من أمثال ناتانيال آرمس وبنيامين فرانكلين دليل على القيمة العملية لهذه الفضيلة .

وفضلا عن هذا فالمساعدة الذاتية فى حضارة نشأت فى مناطق الحدود معناها بالضرورة القدرة على التكيف ،فكلما استقر المقام بالفلاح كان يكافح أرضا ونباتات وحيوانات جديدة وجواً تطلب الابتكار الذى يعتبر المطلب الأول. ونقول بوجه عام إنه إذا كانت الحياة العقلية التى إنبعث منها التقليد الأمريكى أضيق مما نجد معظم المؤرخين على إستعداد للاعتراف به ، فقد ظلت حياة انتشرت فيها الأفكار الجديدة بسرعة غير مألوفة كما عظم نمو الشعور بأن المستقبل براق . كان الإيمان بالتقدم شاملا فملا حتى أن شخصا أمتلأت نفسه بالمرارة مثل جون آدامز لم يخالجه الشك فى أن أمريكا مقـــدر لها « تنوير الجزء المستعبد من الجنس البشرى فى جميع أرجاء الأرض وتحريره » . وهذه الفكرة أيضا موضوع الملحمة « رؤيا كولمبس » التى كتبها جوبل بارلو عام ١٧٨٧ ، كما تروى القصة ذاتها الأغانى البلدية التى لاحصر لها. فى أمريكا يصل الرجل والمرأة إلى المركز الذى يتفق مع الكرامة الكامنة فى الطبيعة البشرية وهناك شعور من الثقة بالنفس وإعتقاد بأن العالم ملك لأهلها يستولون عليه، وهاتان صفتان واضحتان بشكل لا يمكن أن نخطئه .

إن حرب الاستقلال الأمريكية فى الواقع جزء من عصر التنوير ، ولهذا فمن الطبيعى أن نجد إيمانا بالعقل ونموا فى النزعة الإنسانيـــة وشعوراً بروح الإبداع والعمل ، وكلها لعبت دوراً هاما فى تشكيل ذلك التقليد . فإذا كانت الحرب قــد وجهت ضربة شديدة إلى الحياة الثقافية فإنها أثارت فى الطبقة ذات النشأة المتواضعة نشاطا وجهداً من الأهمية بالدرجة الأولى بالنسبة إلى المستقبل . إن قدرة رجال مثل توم بين على أن يكون لهم تأثير عميق على صفة الصراع والغرض منه معناها أن الحقوق الطبيعية والعداء للملكية والإيمان بصلاحية الحرية أصبحت كلها جزءا من تكوين الأمريكيين الفكرى . إن تأثير توماس جيفرسون ، وهو من أعظم شخصيات

ڤرچينيا ، كان متجها نحو فصل الكنيسة عن الدولة رسميا ، وهـذا بدوره لم يؤد إلى التسامح الديني فحسب بل وأرسى دعامة الإيمان بضرورة توفير التعليم للعاديين ، ذلك الإيمان الذى لم يفقده الأمريكيون أبدا . صحيح بغير شك أن المحافظين أمثال چون آدامز وفيشر آمس لم تكن لديهم فكرة عن دولة أمريكية يستطيع أن يلعب فيها الرجل العادى دوراً حيويا ، كانوا يرغبون فى حكم « السادة » على أساس أن الشعوب جميعا تنقسم بالطبيعة إلى سادة ورجال بسطاء على حد قول آدامز . وكتب آدامز بمرارة عما كان الفقراء يطالبون به من مراكز لا يصلح لها سوى ذو النشأة الطيبة والأغنياء . و« يوميات » چوڤرنير موريس مليئة بالاحتقار للأفراد العاديين الذين ينحدرون إلى التمرد والتقلب إذا لم يخضعوا للتنظيم الدقيق ، بل من الواضح أنه أثناء تمثيله جمهوريته الجديدة سفيرا لدى حكومة باريس كان على استعداد لأن يدع مواطنه بين يهلك فى أحد السجون الفرنسية .

ولكن أيديولوچية التقليد الأمريكى لم يعينها ذووالنشأة الطيبة أو الثراء إذ بحلول عام ١٨٠٠ أصبح واضحاً بما لا يرقى إليه الريب أن الرجال العاديين هم الذين سوف يشكلونها . قد يشعر المحامون ورجال الدين وأغنياء التجار وكبار ملاك الأراضى . كما فعل هاملتن ، أن الشعب « وحش كبير » ولكن انتصار چيفرسون فى الانتخاب الكبير عام ١٨٠٠ كان معناه أنه لن يعد محل لدولة أمريكية تنتصر فيها الفكرة التى ترى أن يعهد بالحكم إلى « طبقـــة ممتازة » فى المجتمع . وبانتصار ديموقراطية چيفرسون يبدأ نضوج ديموقراطية ثقافية منبثقة من البلاد ذاتها وليست وافدة من الخارج . والإحساس بأن ذلك سوف يكون الحال نلقاه عند أمثال كريڤكير وشاستلوكس ، كما يفصح عنه بحماس شعراء كفيليب فرينو وكذلك اللغوى الشهير نوح ويبستر . إنهم يرون أمريكا شابة وأوربا أدركتها الشيخوخة ، وأن أمامها مستقبلا عظيما بينما أوربا قارة عاجزة مآلها إلى الانحلال . وحتى إذا أدركوا أنه من غير السهل بناء ثقافة أمريكية مستقلة فقد آمنوا بأن الأمر يجب بل ويمكن أن يكون كذلك . إن كتبا مثل « مذكرات عن ڤرچينيا» لچيفرسون ليست فى الواقع سوى حجراً وضع عمداً فى الصرح الذى كان يسعى إلى إقامته . ومماله مغزى أنه بابتداء

القرن التاسع عشر كان ثمت إصرار على أن تاريخ أمريكا وجغرافيتها ينبغى أن يكون الأساس الذى يجب أن يقوم عليه نظامها التعليمى . ربما بالغ چويل بارلو فى قصائده فى تقدير مستوى ما حققته أمريكا من الأعمال إلا أنه من المهم ، حتى فى تلك السنة التى اجتمع فيها المؤتمر الاتحادى ، أن الطلب كان منصبا على استقلال الولايات المتحدة الثقافى إلى جانب استقلالها السياسى .

ومما له أهمية فى سنوات التنوير هذه الاعتقاد بأن الأمريكيين سوف يحررون أنفسهم أولا ثم يضربون المثل لبقية العالم ، كانت قوة أصحاب الأموال كبيرة جداً ، والنشرات التى أصدرها أمثال تيموثى دوايت من جامعة ييل تظهر أن أحداثا كثورة شاى Shay والثورة الفرنسية أدخلت الرعب فى عقول أصحاب الممتلكات . ولكن الهزيمة أحاقت بالإتحاديين فى الميدان السياسى واكتسح كتاب پين « عصر العقل . » الشعب كله ، من طلاب الجامعات إلى صغار الفلاحين فى ماساشوستس وچورچيا . إن رجالا من طراز پين وفولنى عبدوا الأرض التى جعلت فى الإمكان ذلك التأثير الرائع للمصلحين البريطانيين روبرت أون وفرنسيس رايت ، كما جعلوا المبادىء اللاهوتية مثل التعميم والتوحيد تحل محل أرثوذكسية چوناتان إدواردز البريزبتارية الجامدة ، وظهر حماس فى الدعوة إلى الآراء الجديدة كالحركة النسوية والنزعة الإنسانية والتحليل العلمى . إن التقليد الأمريكى نادراً ما يتجاوز حدود مبدأ الاعتقاد بالله إلا أنه ببزوغ فجر القرن التاسع عشر فمن الطبيعى أن يلقى التجديد فى الأفكار ترحيبا أعمق من أى ترحيب كان يحتمل أن يلقاه فى أوربا .

ليس معنى هذا فى الحقيقة أن التقليد ديموقراطى أوراديكالى كلية إذ فيه عناصر من روح محافظة عميقة . فمن جهة يصعب أن نفكر أن الثورة الفرنسية ألقت فى نفوس كبار الملاك رعبا لا يقل عما كان فى القارة الأوربية وتجد رواسبه حتى اليوم . إن القوم الذين لم يترددوا فى تحطيم الأغلال البريطانية بالحرب يفسرون بحماس الشر الناجم من الضعف ، ونبل النظام ، والملكية . هناك يظهر العداء بين المدينين الذين ساروا وراء الدعوة التى بشرت بها ثورة شاى وبين طبقة الدائنين التى دافع عنها هاملتن.

بوصفها المنبع الحقيقى للحياة المتحضرة . إن هاملتن وكبير القضاة مارشال أصحاب التقليد الأمريكى الذى يبجل أصحاب الممتلكات والمولد بنفس الحماس الذى نلقاه عند بيرك وچوزيف دى مايستر . كان ولیم إليرى تشاننج ليبراليا بمعنى عميق ولديه إحساس حاد بحقوق العامل ، ومع ذلك أصر على أن الثورة الفرنسية أنهكت الخيال وحطمت فهم الإنسان فى كل مكان . إذا كان ثمت مبدأ ثورى فى التقليد الأمريكى قائم على أساس حقوق الإنسان فإن فيه مبدأ معاديا للثورة يستند إلى حقوق الملكية ، ومن الصعب ألا نحس أن الدرع الذى يحمى المبدأ الأخير كان — كما أصبح بعد ذلك بقرن ونصف قرن — إحياء الأرثوذكسية الدينية . ومما له أهمية ومغزى أن يرى چيمس فنيمور فى إمتلاك التقوى أثمن صفة فى الزوج ؛ ومما له مغزى بالمثل أن دوايت مدير جامعة ييل عين بنيامين سليمان فى مقعده بها حتى يتبين الطلاب أن العلم والمسيحية جانبان توأمان من نظرة واحدة .

حقيقة هناك طريق وسط داخل هذا التقليد المزدوج . فحتى الحرب الأهلية كانت المعالم الرئيسية للحضارة الأمريكية فى إطار الزعامة الأرستقراطية ، ولكن ذلك لم يستبعد تعميم الثقافة سواء فى العلوم أو التعليم أو الأدب أو الدين . فاذا مال قادة الفكر بأمريكا إلى النظر إلى أوربا على أنها مصدر إلهامهم فقد سعت الجماهير من جهة أخرى إلى بناء دولة أمريكية متحررة من قيود العالم القديم . وهذا التناقض طبيعى . فأعيان بوسطن توافر لهم الفراغ والأمن ونظرتهم العالمية تعبير عن الثقة بالنفس التى يتضمنها هذان العنصران ، غير أن الجماهير ، سواء العمال الذين ولدوا فيها أو هاجروا إليها من أوربا ، كانت بطبيعة الحال تواقة إلى إثبات أمريكيتها عن طريق استمداد الإلهام فى ميدان الفكر أو مجال العمل من التربة التى كانت تحولها من برية إلى أرض تصلح للسكنى . وعلى ذلك يجد المرء داخل التقليد الأمريكى أن الطبقة التى تشغل قمة الهرم الإجتماعى تعتمد على التراث الأوربى بينما نلق عند قاعدته إصراراً مليئا بالفخر على حق الأمريكيين فى رؤية الأشياء بعيونهم أنفسهم وعلى طريقتهم الخاصة . وطالما موارد البلاد لانهاية لها فليس ثمت صعوبة كبيرة فى تحقيق الالتقاء بين هذين

الأسلوبين فى النظر إلى الحياة . هناك محل لـكل من النظرة الدولية التى يعتنقها القادة وبين وطنية العوام ، وكلتا النظرتان تُظهران عند الفحص إيمانا عميقا بأن الفكر الامريكى أصبح يتضمن جميع كشوف الحياة المتحضرة ، ذلك أن الامريكيين جميعا ، أغنياؤهم وفقراؤهم ، ومن ولد منهم داخل البلاد ذاتها أو نشأ بالخارج ، أدركوا فى قرارة نفوسهم أن الحياة الامريكية يمكن تحقيقها بحيث تربى فيهم ذلك الايمان الذى يعتبر الدعامة القوية لبناء شعب .

ورثت أمريكا معظم ما وسع العالم القديم أن يقدمه ، ولـكن الشيء الجوهرى بالنسبة إلى التقليد الأمريكى عدم تقيده بالأساليب القديمة ويرجع هذا من جهة إلى أنه واجه مشكلات جديدة فى جوهرها أو أساليب فنية لم يكن للعالم القديم دراية بها . إن القدرة على التـكيف كامنة فى شخصية الرجل الأمريكى ، مصحوبة بالحماس لـكل جديد لمجرد كونه كذلك . فمنذ بداية تاريخ الشعب الأمريكى تـكون لديه الشعور بأنه يغزو برية وينتزع من الطبيعة مساحات لاحد لها من التربة العذراء ، الأمر الذى معناه بوجه عام أن أكثر الصفات البشرية قيمة صفات الرجل العملى لا النظرى . كان الحال يتطلب الرجل أو المرأة ممن يستطيع مواجهة موقف عاجل بحل يناسب المشكلة ؛ أما التجريد والتفلسف فصفات تميل إلى تعطيل السيطرة على الطبيعة ، وهذا فى ظنى يعلل التأخر النسبى لتطور الفـكر الأمريكى ، فلما تطور كانت الصفة التى تميز بها أنه اتخذ النزعة التجريبية التى ترفض القضايا المطلقة وتفضل الحلول العملية التى يمكن تطبيقها فى حالة مخصوصة . وإذا وجدت فلسفة أمريكية غير تجريبية فى جوهرها فهى فلسفة غير أمريكية الأصل ، مثلها فى ذلك مثل المثالية الهيجلية .

هذه الفلسفة العملية تعلل ميل العقل الأمريكى إلى تأكيد أولوية الرجل العملى على من يتعلق بالنظريات. فخلال التاريخ الأمريكى كان هناك حماس وإعجاب بكل ماهو مادى وملموس وخاص ؛ أما التجريد وهو ملـكة التعميم الواسع النطاق فيميل بوجه عام إلى أن يعتبر عقيما ، ذلك أن البيئة تطلبت رجالا يستطيعون صنع الأشياء سواء تمثل ذلك فى تطهير غابة أو بناء بيت أو مدّ طريق حديدى . والعقل المتأمل يربط التقليد الى حد كبير جداً بفكرة الطبقة ذات الفراغ ، وهذه الفـكرة بدورها كانت توحى بأنها تمثل الفـكرة الأرستقراطية التى كانت الحضارة الأمريكية وبخاصة بعد عام ١٧٧٦ إنـكاراً حيـاً لها . وهذه الأولوية للجانب العملى كان معناها فى الحياة الأمريكية تفوق الطراز التنفيذى من الناس أى الرجل القـادر على التنظيم أو الشخص الذى يعرف طريقه

وسط مشكلة عاجلة . وحتى « أفراد الطبقة المفكرة » البارزون فى التاريخ الأمريكى مثل فرانكلين وتوماس جيفرسون حازوا اشهرتهم بسبب مقدرتهم على حمل الغير على أداء الأعمال ، ليس معنى هذا أن « السيد » بالمعنى الانجليزى الذى يدل عليه هذا التعبير المعقد وصل متأخراً نسبيا فى التاريخ الأمريكى فحسب ، بل إن أصحاب الأبعاديات الكبيرة من أهل الجنوب لم يتقبلوا فكرة حياة الفراغ إلا بعد أن جعل إيلى ويتنى من تجارة العبيد عملا مربحا .

وحتى فى يومنا هذا يميل التقليد إلى الشك فى الرجل الذى صناعته الأفكار . إنهم يعللون فشل وودرو ولسن ، على الأقل بصورة جزئية ، إلى أنه كان أستاذاً بإحدى الكليات مما جعله يبدو فى نظر ناقديه مفتقراً إلى الادراك العملى الذى تتوقعه من المحامى أو رجل الأعمال . من الأمور الطبيعية فى نظر الأمريكى أن يجلس فى البيت الأبيض قائد ناجح مثل جاكسون أو تايلر أو هاريسون أو جرانت ، ومن الطبيعى بالمثل أن عالما حزينا مثل هنرى آدامز يسعى الى وضع فلسفة للتاريخ يعتبر حلية للزينة لا نفع منها فى الشئون العملية . فالرجال الذين يثيرون الإعجاب أولئك الذين يستطيعون مثل اديسون أو فورد أن يطبقوا ببراعة فائقة الأفكار التى يبتدعها آخرون . والسياسى الناجح يعد بلا استثناء تقريبا ذلك الذى رآه باجوت فى سيررورت پيل « الرجل غير العادى ذو الأفكار غير العادية » . لا ريب أن جيفرسون و لنكولن استثناء جزئى من القاعدة ولكن الرجلين جمعا الى الفراسة السياسية مهارة فى ادارة الرجال ذات صلة واضحة بالطراز التنفيذى فى مشروعات العمل الكبرى .

وثمة مظاهر أخرى للتقليد الامريكى تتطلب التأكيد . لقد كان من الصعب دائما حمل الأمريكيين على النظر البعيد المدى فى المسائل المتعلقة بالتركيب الإجتماعى ، لأن التغييرات التى طرأت على صفة الحياة الاقتصادية كانت من السرعة بحيث تبدو الخطط الطويلة الأجل غير ذات موضوع قبل أن يتقبلها الناس ؛ فالغرب فى عهد جيفرسون أصبح جزءاً من الشرق حين دخل جاكسون البيت الأبيض ، والغرب

الذى عرفه جاكسون عادت له صلة ضئيلة بالحدود القائمة فى زمن الحرب الأهلية . كذلك يجب ألا ننسى تلك الطبقات المتلاحقة من الهجرة ولكل منها مصدر فى العالم القديم وجاءت معها بعنصر جديد اشترك فى تكوين التقليد . إن المظهر الدائم الوحيد فى الصورة الاجتماعية فعلا التلهف العام على تحقيق الرخاء المادى ، والسرعة التى عم بها لم يكن لها مثيل من قبل وقامت فوراً على امتلاك مواردطبيعية هائلة وعلى ابتكارية فى استغلالها جعلت من الإنتاج الكبير صفة تلازم الأمريكيين . وصفة هذه الفكرة ومداها الواسع جعلا من الولايات المتحدة حضارة تختلف فى جوهرها عن أى شىء عرفه العالم القديم إلى حين نشوب الثورة الروسية عام ١٩١٧ .

أما تأثيرها فكان ساحقا . ففى المحل الأول أنمت فى كل مواطن تقريبا فكرة الحياة الدائمة الحركة ، فلا يستطيع أن يؤمن أنه سيظل على ما بدأ به ، ولم يكن فى وسعه إلى حوالى زمن الكساد العظيم سنة ١٩٢٩ أن يتخلص من الإعتقاد بأنه سوف يحسن حالته بطريقة مادية ، الأمر الذى جعل ذلك الاعتقاد يشكل كل عنصر تقريبا فى الحياة الأمريكية . وكان تأثيراً هائلا على جميع أشكال الحياة الدينية ، فالكنيسة التى تحث على الزهد والتقشف لا رجاء لها فى التأثير ولا أمل فى البقاء . وذلك الاعتقاد مسئول أيضا عن روح الاحسان الواسعة المدى عند الأمريكيين ، إذ الألم — حتى فى البلاد الأجنبية — يعتبر تناقضا مع الفكرة الأمريكية ، وكان ثمن النجاح التزام من أدركه بالبحث عن الوسائل التى يثبت بها حسن نيته نحو رفاقه من البشر . وأثر الاعتقاد إلى حد هائل فى عادات التعليم ، فالكليات التى لم تفترض أن صفة التعليم فيها يجب أن يشرف عليها فى النهاية رجل الأعمال الناجح كليات قليلة العدد . والحق أنه باستثناء الزنوج فالأمريكيون جميعا يعتبرون أنفسهم طبقة وسطى فى طابعها ومن هنا لم تحرز الاشتراكية بالولايات المتحدة غير تقدم يسير ، كما قد يكون ذلك من أقوى الأسباب فى عدم وجود حركة نقابية مذهبية تعبر عن نفسها بصورة دائمة على هيئة حزب سياسى . حقيقة هناك قلة لا تعلق أهمية على فرصة تجميع ثروة خاصة ، غير أن الاتجاه العام ، أكثر من أى شىء آخر ، يفسر السبب

الذى من أجله وجدت الافـكار الثورية المنبثقة فى القارة الأوربية من الصعب أن تؤثر على العقل الامريكى :

إن حماس الفرد للتجميع يلقى الضوء على عناصر هامة فى التقليد الأمريكى ، فقد كان — على الأقل منذ الحرب الأهلية — عملا يستنفد الوقت كله ولهذا لا تجد إلا قلة من الأمريكيين تستطيع القول بأنها لاتؤدى وظيفة مابالمعنى الذى كان عليه أرستقراطى من أهل انجلترا أو فرنسا أو روسيا القيصرية . لقد كرس الأمريكيون كل نشاطهم للعمل وهو ماكان متوقعا منهم فى الحقيقة وهـذا خلق طبقة حاكمة لا تدرى إلا قليلا كيف تنفق الفراغ لو توافر لها . وعموما لم يكونوا متأكدين من أن الفراغ لم يكن لوناً من الإسراف الخاطىء ؛ هذا وإن كبار هواة جمع التحف من أمثال مورجان أو فريك أو هنتنجتن جمعوا تلك الروائع من الـكتب والصور والأعمال الفنية لابوصفهم هواة الأختيار عندهم متعة وإنما بوصفهم محترفين سعوا فى مجالهم الخاص إلى التفوق على أى منافس يظهر على المسرح ، وبعد وفاتهم يخلفون أثراً يشبع الحماس القومى للجهد المتسم بنزعة الإحسان والخير .

وكان الحماس للرفاهية المادية ذا أثر عميق أيضا فى السياسة والأدب ، فالمراقب الأجنبى الذى يتابع العملية السياسية لابد وأن يلاحظ أن قبضة الشخص المنتخب على أهل الدائرة تأثير عارض ومؤقت بوجه عام . قد تظهر شخصية بين الحين والآخر مثل عضو الشيوخ بوراه تتخذ حياة دائمة فى وشنطن ولـكن الطريق الصحيح أمام العضو العادى فى الجمعية التشريعية يتمثل فى إرضاء أنصاره باطراد عن طريق النعم البسيطة التى يسبغها عليهم أكثر مما يتمثل فيما يسهم به للدولة أو الشعب . لاريب أنه بعد فترة يتخطى زعيم مدينة الخط المقرر وتحل محله إدارة تدعو إلى الإصلاح ، إلا أنه نادراً ما تدوم الأخيرة طويلا لمجرد افتقار المصلحين إلى الموهبة التى تتمثل فى العطف الشخصى والتى لا يهمل زعيم إظهارها . والأمريكى العادى ، فى الأجل الطويل ، يجد من الصعب ألا يعتقد أن رجال المصارف والماليين يعملون لأنفسهم على نطاق واسع ما يعمله سيد المدينة وأنصاره باعتدال نسبى يصحبه ذلك الاهتمام العطوف بحظوظ أبناء الدائرة الانتخابية وبخاصة إذا كانوا من سلالة الجيل الأول من الأمريكيين .

وبغض النظر بطبيعة الحال عن بضع إستثناءات ظاهرة يصدق الأمر ذاته على الأدب . فإذا لم يحاول إحتذاء بعض النماذج الأوربية فإن صفته تجريبية أكثر منها مقلدة ، كما يعنى بالجوهر أكثر من الشكل. وفوق كل شيء فهو أدب الطبقة الوسطى بمعنى أنه يثير قوة الاستجابة عن طريق تمثيله الحياة الأمريكية العادية على أنها مغامرة ضخمة وذات طابع روائى ؛ وحيث نلقى جذوره فى أوربا أكثر منها فى أمريكا كما فى حالة هنرى جيمس فإن الإنطباع الأساسى الذى نستمده من مطالعته ينحصر فى أن المؤلف وهو يرسم شخصياته الأمريكية بعيد عن مجرى الحياة الأمريكية الرئيسى . لأنها منفصلة عن التقليد الذى يضفى على أمريكا طابعها الخاص ، وبذلك يصبح شخصا غريبا عن وطنه ينظر إلى مواطنيه بمرآة أجنبية . غـــير أنه بينما يتأثر إمرسون وثورو ومارك توين وهوثورن وملفيل تأثراً عميقا بالمجرى الرئيسى للذكاء المتمدين فهم أمريكيون بمعنى أنه أينما يسرح خيالهم فولاؤهم الأخير دائما للتقليد الأمريكى . وبمجرد أن يخفق كاتب فى إظهار ذلك الولاء يصعب ألا نشعر أن الأسلوب الأوربى الـكاذب الذى يستخدمه للتعبير عن نفسه ليس فى الواقع سوى قناع شأنه فى ذلك شأن من يتنـكر فى حفلة راقصة بأن يضع قناعا على عينيه .

ونلقى فى قلب التقليد الأمريكى فـكرة المصلحة الذاتية المستنيرة . إنه يفترض أنه بالنشاط والعزم لا يستطيع المرء أن يعنى بذاته وحدها فحسب بل إنه كذلك جزء من عالم تعم فيه المقدرة على إحراز التقدم . هذه النظرة تـكمن فى جوهر تفـكير أناس يختلفون فى المزاج والتعليم مثل أبراهام لنكولن وودرو ولسن ، وثمت شعور هام بأنها المبدأ الرئيسى فى السياسات التى انتهجها فرانـكلين روزفلت . وتأثير هذه النظرة بعيد المدى ، فهى من جهة تولدشكا فى كل عمل تقوم به الحـكومة نيابة عن الفرد بحجة أن هذا يحد من قدرته على العمل واحتمال المسئولية ، كما يخلق من جهة أخرى إعتقاداً واسع الانتشار ، وأحيانا فى نواح لا نتوقعـها ، بأن ما يعمله المرء لنفسه لابد وأن يؤديه على نحو أفضل مما لو قام به آخر بالنيابة عنه . إنهم ينظرون إلى المصلحة الذاتية المستنيرة على أنها مصدر النزعة التجريبية ، كما يصرون على أن تجميعا لبعض الأفعال الصغيرة الدالة على إنـكار الذات يجعل إحراز التقدم فى مستطاع

المواطن النشيط . ولعل هذا هو السبب الذى يجعل أزمة كبرى — كحرب عالمية مثلا — تنتزع من الأمريكيين تضحيات كبيرة ، إذ يجب أن تمثل الدراما على أوسع نطاق، قبل أن يتخطى تفكير الأمريكى العادى حدود الحديقة التى يزرعها . فى وسعه أن يكون عطوفا ومضيافا وصدوقا ولكن حدود تصوره أضيق مما يتوقع الإنسان من مدى الحضارة التى تطور خلالها ،

كذلك لا أظن أن من الخيال الربط بين هذا الاتجاه وبين أولوية الرجل العملى. إن القليلين من أهل أمريكا يجدون من السهل أن يكونوا سعداء من غير أن يعملوا شيئاً ، ذلك أن أنجيل العمل الشاق الذى ورثوه بتأثير البيئة الطبيعية من جهة وبفعل التقليد البيوريتانى من جهة أخرى يجعل من الصعب عليهم ألا يجعلوا التأمل معادلا للكسل ، ولهذا السبب يجدون الاستخدام الخلاق للفراغ فنا أصعب مما يلقاه أى شعب آخر له به دراية ومعرفة ، وللسبب نفسه نجد فى لهوهم جدا ورزانة لا مثيل لها فى أى مكان آخر . فالجولف عند الغنى مثلا ليس مجرد لعبة ولكنه عمل يزاوله بمساعدة المحترف ويوجه إليه اهتماما يكاد يكون دينيا فى قوته حتى يتغلب على ما فيه من قصور ونقط ضعف . ولهذا السبب أيضا نجد أن المباريات الرياضية بين الكليات سواء فى لعبه البيسبول أو حتى فى المناظرات تجعل مثل هذا الفارق الهام بالنسبة إلى مركز مؤسسة علمية .

لقد سمعت مديرا فى جامعة برنستن يخاطب فريق كرة القدم قبل مباراة مع هارڤارد بعبارات لا تختلف عن الأمر الذى أصدره الجنرال هايج إلى جنوده فى مارس عام ١٩١٧ قائلا « أجعلوا ظهوركم إلى الحائط » . والتفوق فى الرياضة قد يترتب عليه بسهولة نوع من الحياة المستقرة التى تكفل للاعب الراحة والدعة بقية حياته . إننا نادراً ما نقابل الأمريكى الذى يعرف كيف يلعب لمجرد المتعة التى يحصل عليها من اللعب . إنه يجد من الصعب أن يكون كسولا ، بل إن لاعب البريدج غير المكترث فى مدينة صغيرة نسبيا يفضل أن يتلقى دروسا خصوصية من مدرس محترف على أن يعتبر فاشلا . إن عدداً من الامريكيين يدعو إلى الدهشة لا يرى

وجها للعرابة في أن شخصا يبتكر طريقة للعب الورق قد يوجه التفاته في السنوات العابسة خلال الحرب العالمية الثانية إلى تنمية الوسائل اللازمة لإقرار السلام الدائم .

وتحول شخص متخصص في لعبة البريدج إلى متخصص في الشئون الدولية مجرد تعبير عن تقليد الارتياد الذى جعل الأمريكيين قادرين على التخصص في التفوق . كذلك العنصر البيورتاني في التقليد الأمريكي لا يجعلهم يأخذون اللعب مأخذ الجد فحسب ، بل ويفترض أنهم عرضة للنقد إن كانت طريقتهم في كسب العيش لا تتفق مع مطالب العصر ، إذ ربما باستثناء اليابانيين توجد شعوب قلائل أكثر إحساسا بالمديح أو التأنيب من الأمريكيين . فليست فيهم الصفة التي تجعل الإنجليزى يعتقد أن حكمه على نفسه نهائي ، وليس فيهم غير القليل من قوة الاكتفاء الذاتى المعنوى والعقلى مما نلقاه ممتدا إلى أعماق عادات العقل الفرنسى ، وهم لا يسمون مثل الألمان منذ عهد بسمرك إلى إضفاء طابع العمومية والشمول على مستوى سلوكهم ، كما لا يستطيعون أن يحذوا حذو اليابانيين فيقبعون وراء ستار من الغموض لا يسمح للغريب بالنفاذ منه . إن النظرة الأمريكيــة تشبه من زاوية معينة النظرة الروسية إلى درجة عالية ، فكل من الأمريكى والروسى تواق الى معرفة رأى الغير فيــه ، وكل منها يرفع الإطراء من روحه المعنوية كما يعانى الألم إذا تعرض للوم .

ولهذا كان كتاب « الجمهورية الأمريكية » للورد برايس حدثا حقيقيا في تاريخ العلاقات بين بريطانيا العظمى والولايات المتحدة لأنه أول كتاب لمؤلف بريطانى يعترف بعظمة أمريكا في حدودها الواجبة . إنه تكفير عن الاحتقار والسخط اللذين انهال بهما على رؤوس الأمريكيين كتاب من أمثال الكابتن بازيل هول والسيدة ترولوب وشارل ديكنز ؛ وليس مما يجافى العدالة أو الدقة أن نجعل تضاؤل ذلك الشعور بالنقص الذى صوره ديكنز بعبقريته في شخصية جيفرسون بريك ، يبدأ منذ نشر كتاب برايس .

ومنذ ظهور أمريكا كجماعة سياسية مستقلة كانت ديموقراطية سياسية ونجد فى أعماق تقليدها فكرة حكم الأغلبية عن طريق النظم التمثيلية . إلا أنه يجب التذرع بالحذر فلا نجعل فكرة الديموقراطية السياسية تتضمن أكثر مما تدل عليه حقيقة . إنها أساسا ديموقراطية الطبقة الوسطى التى تفترض ، دون أن تصرح ، سلطان الثروة ، وكانت حريصة خلال تاريخها ألا تسمح لفكرتها بالإساءة إلى الدعاوى التى يراها أصحاب الملكية الحدود التى لا يجوز للديموقراطية تخطيها . فلا يستطيع من يتمعن التاريخ السياسى للتقليد الأمريكى ألا يرى أن تلك الحدود فى الحقيقة أضيق نطاقا مما يمكن استنتاجه سواء من عبارات كلاسيكية كخطاب جيتسبرج أو من العدد الهائل من الخطب التى تلقى فى الرابع من يوليه من كل عام . إن الدستور نفسه يقيدها عامدا ، ويقيدها أكثر من هذا التركيب الرائع الذى استخدمه جون مارشال ومعظم زملائه وخلفائه فى تفسير غرضه ، وتقيدها الصعوبة الناشئة من إدماج المهاجرين الذين لا حصر لهم والوافدين من ذلك العدد من الشعوب والذين تتكون منهم أمريكا فى وحدة فعالة ، وفضلا عن ذلك فبالرغم من مظاهر الغضب الزائلة لم يبدأ التنظيم الفعال للطبقة العاملة فى هيئات نقابيـــة إلا فى العقد الثامن من القرن الماضى ولم يبلغ بعد مرحلة التعبير عن نفسه على النحو السياسى بصورة ذات فعالية .

ولكن ليس هذا بكل شىء . إن ثمت معنى هاماً فى القول بأن اتساع الفرصة التى توفرها أمريكا لأهلها كان معاديا لما تتضمنه الجماعة الديموقراطية . والسبب الأول أنه إلى حين الوقت الذى تم فيه استغلال مناطق الحدود كان هناك القليلون من الأمريكيين ممن توقعوا البقاء فى أسفل السلم ، وأقل منهم عدداً من توقعوا أن يظل أطفالهم فى ذلك المركز . لقد كان من المسلم به لديهم أن الصورة الجديدة من ديموقراطية چيفرسون والتى دعاها وودرو ولسن « الحرية الجديدة » مفتوحة

أبوابها أمامهم ، وبغض النظر عن لحظات الذعر أو الأزمات فنادراً ما كانوا يحلمون بمهاجمة الملكية لأنهم يتوقعون أن يكونوا ملاكا . أما أن تاريخ الولايات المتحدة ، بالرغم من كل شيء ، سوف يتبع الطراز العام للديموقراطية الرأسمالية فى أوربا فأمر لم يخطر إلا للقلائل الذين أوتوا عمق الإدراك مثل جون تايلر من أهل كاليفورنيا . وأخيراً ، وعلى الأقل الى وقت الكساد العظيم سنة ١٩٢٩ ندر وجود الأمريكى الذى اعترف بأن الأنموذج الأوربى آخذ فى الظهور ، وإذا وصل إلى هذه النتيجة على صورة من الإشتراكية فقد كان من السهل نسبيا أن ينحى ذلك جانبا على أساس أن الأفكار الإشتراكية من نتاج أوربا ولا علاقة لها بالظروف الخاصة التى تشتمل عليها الحضارة الأمريكية .

ولهذا فخلال السنوات التى أعقبت الحرب الأهلية بصفة خاصة عظم بأطراد إرتفاع الأسوار التى تحمى الملكية من الغزو الديموقراطى . كان الفلاح ينحدر بأطراد من مالك إلى مستأجر ، ووجد العامل الصناعى أن تكنولوجية الآلة تتطلب قدرا من الاستثمار لا تقدر عليه سوى الشركات الكبيرة ، وأدرك أرباب المهن من محامين وأطباء ومهندسين ومعماريين أن الرفاهية الإقتصادية يندر الوصول إليها إلا إذا كانوا على استعداد للاعتماد على سادة أمريكا الإقتصاديين . ولما كانت الأحزاب السياسية بدورها وسيلة أولئك السادة فى تنفيذ إرادتهم فقد استتبع هذا أن السياسى الناجح مهما كانت مقدرته الخطابية إنما ينجح لأنه تفاهم نوعا مع أمثال مارك حنا أو نلسن ألدريتش ممن لم يتعدوا كونهم عملاء وول ستريت وستيت ستريت . لقد بدا واضحا للرئيس كوليدج ، الذى يتمثل فيه عقل الشخص العادى الناجح فى مين ستريت أن المستر أندرو ميلون ينبغى أن يكون وزير الخزانة مادامت قلة من الثروات تعادل ثروة آل ميلون ، وكم يكون طريفا لو سمعنا رأى چيفرسون أو چون تايلر فى مثل ذلك الرأى .

أقام الدستور الأمريكى ديموقراطية سياسية ، وتضمنت الظروف التى طبق فيها قدراً كبير من المساواة الاجتماعية . إن التقاليد التى خلقها تاريخ القرون الثلاثة الماضية

أفسحت أمام التقدم الذاتى الفرص التى لم يكن ثمت ما يعادلها فى اتساع مداها فى العصور الحديثة حتى الثورة الروسية . وفضلا عن ذلك فربما يصح القول أنه ما من مكان آخر كان فيه الارتقاء الاجتماعى أيسر ولا الإعتقاد بصلاحيته أعمق . وعلى أى حال فإلى حين نشوب الحرب الأهلية يمكن القول بأن نسبة المهاجرين الذين أخفقوا فى تحسين المركز الذى شغلوه فى العالم القديم نسبة ضئيلة نسبيا ، هناك حياة مثيرة فى الصناعة كما فى السياسة ؛ فالقوم يشقون طريقهم إلى النجاح بفضل نشاطهم ومقدرتهم كما جعل إنتفاء الحواجز فى طريقهم الفردية تبدو أنسب جو فكرى يمكن بلوغه . فاذا كانت المعركة شديدة فالجزاء رائع ، ومعظم أصحاب النظريات الإجتماعية من وليم جراهام سمنر بجامعة ييل الى چون بيتش كلارك فى جامعة كولومبيا كانوا يؤكدون إيمانهم بأن الحكومة التى تقصر عملها على أمور البوليس والدفاع وتوفير التعليم حكومة لاتعمل معظم ما يجوز لها شرعا فحسب بل وتضمن بقاء الأصلح . هناك بغير شك مشكلات حقيقية كالطرق الحديدية ونمو الشركات الموحدة والكساد فى صفوف الفلاحين والخطر الناجم كما فى حالة الغابات الفسيحة فى الشمال الغربى من استخدام أساليب غير وافية للمحافظة عليها من أجل حماية مصالح المستقبل . غير أننا نقول بوجه عام إن الإيمان بسياسة الحرية الإقتصادية كان واسع الإنتشار وعميقا. وبدا أن ازدياد عدد السكان ونمو الطاقة الإنتاجية فضلا عن ارتفاع مستوى الحياة ، كل ذلك أوحى بأن النظام الأمريكى صورة من نظام الطبيعة ، ومن المؤكد أنه إلى عهد الكساد العظيم عام ١٩٢٩ لم يبد للأغلبية الساحقة من الأمريكيين أن الدولة الإيجابية تتضمن من المعنى أكثر من حماية الكسالى وعديمى الكفاءة من النتائج الناجمة مما فيهم من عناصر الضعف والقصور .

إلا أنه يمكن القول أنه بمجرد أن أصبح الجهد الاقتصادى صناعيا أكثر منه زراعيا كان بالولايات المتحدة القليلون ممن أدركوا أن تعقد العلاقات فى المجتمع الكبير جعل من الضرورى أن تزداد قوة الحكومة على التنظيم ، فأشكال الديموقراطية السياسية حجبت — دون أن تخفى — كونها قائمة على أساس اقتصادى ذى طابع أوليجاركى آخذ فى الازدياد . إن كبار رجال الأعمال فى العقدين الرابع والخامس من القرن الماضى

أصبحوا الشركات الكبيرة فى الثامن والتاسع . قد تظهر لنا مونتانا جميع الأجهزة التى تتميز بها الدولة الديموقراطية ولكن وراء الأجهزة تكمن القوة المحركة الفعالة فى أيدى شركة آنا كوندا لتعدين النحاس . وقد يبعث الناخبون فى ديلاوير بالعضوين اللذين يمثلانهم إلى مجلس الشيوخ ولكن كل فرد يعلم أن رئيسهم الفعلى أسرة دى بونت العظيمة . لاشك هناك ولايات مثل نيويورك وماساشوستس أومثل كاليفورنيا ووشنطن أهلها من الكثرة بحيث لايتاح لمصلحة واحدة أن تسيطر عليها كما تقع بلاريب فترات يصل فيها الوعى القومى إلى درجة من القوة بحيث تطرح جانبا جميع عادات الولاء التقليدى كما حدث عام ١٩٣٢ ، إلا أنه من المهم أن نلاحظ أنه فى ظل الظروف العادية لا توجد علاقة ذات معنى فى السياسة الأمريكية أكبر من التى بين آلة الحزب بالولاية أو المدينة وبين الشركات الكبيرة ، كما أن هناك مساحات كبيرة مثل الوادى الإمبراطورى أو جرسى سيتى فى ولاية نيوجرسى لايكاد يعرف فيها معنى الديموقراطية السياسية . ومما له أهمية أنه حين سعى السناتور لافوليت إلى أن يجعل النزعة الجمهورية تتقدم فى وسكونسن تعين عليه بناء أداة لتحقيق غرضه . ونقول بإيجاز إنه فيما يتعلق بالتقليد الأمريكى فإن القوى التى تربط الناس بعضهم إلى بعض هى المصالح أكثر من الأفكار ، والذين يؤيدون المرشح الناجح يكاد أن يفترضوا أنهم وقعوا عقدا ضمنيا يمكن تنفيذه بحكم الاعتبار الذى يقوم عليه .

يجب أن أوجه النظر إلى عنصرين آخرين فى طراز التقليد السياسى ، أولهما العنصر القضائى . صحيح بالطبع أن الولايات المتحدة أخرجت كثيرا من القضاة العظام سواء فى المحاكم الاتحادية مثل مارشال وهولمز وبرانديز وكاردوزو أو فى محاكم الولايات مثل شو فى ماساشوستس أو كنت فى نيويورك ، غير أنه صحيح أيضا أن من الوظائف التى اضطلعت بها المحاكم قيامها بدور الفرملة على العادات الديموقراطية فى الهيئات التشريعية ؛ فكل من يطالع خطاب المسترشوت للمحكمة فى قضايا ضرائب الدخل أو قرار المحكمة ذاتها أو يفحص بعض أقوال القاضى ماكرينولدز فى أول عهد «السياسة الجديدة» أو يحلل التحذيرات الموجهة فى قضايا الاضراب لن يلق صعوبة فى فهم السبب الذى من أجله أصر القاضى هولمز على القول بأن القضاة فى الحقيقة يسنون

التشريع [1] إنهم بكلمة واحدة مجلس تشريعى ثالث فى حدود عملهم ،وفى جميع المسائل السياسية الكبرى يجدون من العسير للغاية أن يتخلصوا من الإغراء الذى يحملهم على أن يجعلوا آراءهم الذاتية بشأن ماهو حكيم أو معقول سياسيا تحل محل النتائج التى يصل إليها الأعضاء المنتخبون فى الهيئة التشريعية . ومن المؤكد أن من الصعب ألا نشعر أن الفارق الجوهرى بين قرار المحكمة العليا فى قضية **Abrams V. United States** وبين الحكم الذى كانت تصدره محكمة فى ألمانيا النازية كان فى العبارات المشهورة التى عبر بها القاضى هولمز عن معارضته أكثر منه فى النتيجة الفعلية . ولكن حين تعبر المحاكم فى أى نظام سياسى الخط الدقيق الذى يفصل المسائل القضائية عن النتائج السياسية فسوف نجدأنها تتصرف عادة ، مهما كان عدم إدراكها لذلك، كمستشار يبدى الرأى ضد الأغراض التى تستهدفها الديموقراطية .

والعنصر الهام الآخر هيئة الموظفين العموميين . لاشك فى وجود إدارات فى الحكومة الأمريكية كمصلحة المساحة الجيولوجية ومكتب المستويات يصعب المبالغة فى امتداحها ، كما يحدث فى فترات الأزمات الكبرى أن تجتذب الهيئة التنفيذية رجالا ونساء، من ذوى الكفاية اللامعة وقوة الابتكار البارزة . إلا أنه لما كانت المراكز العليا سياسية الطابع فيندر أن نجد بين من يشغلونها من يتوافر لهم الوقت لوضع برنامج على نطاق واسع. هناك حالات استثنائية بطبيعة الحال ولكن يندر اكتشافها . وحين نهبط درجات التنظيم الهرمى للوظائف العامة فانه باستثناء أمثال جوزيف إدورد إيستمان عضو لجنة التجارة بين الولايات أو المستر إدورد موزلى الذى تدين له الولايات المتحدة بالكثير من التشريع الذى يوفر الأمان على الخطوط الحديدية ، من الصعب أن نجد موظفين يشغلون المركز أو يمارسون السلطة بما يجعل فى وسعهم أن يؤدوا عملا خلاقا من النوع الذى تتطلبه الديمقراطية . صحيح حقا أنه فى فترة «السياسة الجديدة» نما

---

(١) Southern Pacific Company V Jensen, 244 U. S. 205 (1916)

(٢) Abrams V. United States, 250 U. S. 616 (1919). See 2 Chafee, Free Speech in the United States (Cambridge, Harvard University Press 1941), Chap. III.

إحساس جديد بمغزى الحكم وساعد ذلك كثيراً على استعادة الثقة فى المبادئ الديموقراطية ، تلك الثقة التى عمل رجال الأعمال الكثير من أجل تحطيمها فى السنوات الأولى من الكساد العظيم. غير أنه باستثناء عدد قليل من الأفراد فى كل وزارة يصح القول بأن المناصب المتوافرة لم يكن يحتمل أن تجتذب رجالا ممن يملكون الموهبة من الدرجة الأولى والذين لصفاتهم قيمة سوقية فى جهات أخرى . وحين يضاف الى هذه الصعوبة العداء المستمر والعميق أحيانا من جانب مجلس الشيوخ لفكرة الإدارة الايجابية صار محتوما أنه فيما دون الوظائف العليا لن يقبل الكثيرون من ذوى الكفاية الظاهرة أن يتحملوا الإذلال الذى كان الكونجرس بمجلسيه يجد متعة خاصة فى صبه على رؤوسهم . إن الغاء لجنة تخطيط الموارد القومية والجهود التى بذلت لوقف نمو هيئة وادى تنيسى وهو المشروع الذى يعد من أبرز أعمال الأمريكيين فى الأزمنة الحديثة ، تعادل وان لم تتفوق على محاولة وزارة الخارجية لدعم حكومة فيشى ومنح التأييد ، عن طريق أمثال جيرو وبيروتون ، لفرنسا التى اعتبر الكثيرون أنها خانت مواطنيها فى صيف عام ١٩٤٠ . ومما لا يقل مدعاة للدهشة أن المصالح المالكة فى الولايات المتحدة بالرغم من كل مسئوليتها الثقيلة عن الكساد العظيم كان فى وسعها أن تصور الإدارة الخلاقة على أنها صنو للبيروقراطية مع أنها الإدارة التى أنقذتها فى عام ١٩٣٣ . إن الهدف الوحيد للملكية كان على حد التعبير الثانى والثالث للرئيس روزفلت المحافظة على الإعتقاد فى نظام «المشروع الحر» الذى أصبح منذ زمن طويل غير ذى صلة بظروف الحياه الإقتصادية الامريكية .

ومن المفيد أن ندرك الأساليب التى تسنى بها الابقاء على هذا الاعتقاد ، ذلك أنه إلى جانب الديموقراطية السياسية المتغلغة فى التقليد الأمريكى أصبحت الأدوات والأجهزة التى تصور هذا الأمر وتفسره للأمريكى فرعا من مشروعات العمل الكبرى ، وهـــذا يصدق على السينما والإذاعة والنسبة الساحقة من الصحافة . وإذا كنا نجد فى حالات ومواضع متفرقة مصدراً للشك فى اتفاق عادات كبار رجال الأعمال مع عادات أسلوب الحياة الديموقراطى ، كما نلقاه مثلا فى بعض أفلام المستر شابلن أو فى الطريقة الرائعة التى استخدم بها الرئيس روزفلت المذياع أو فى عدد صغير من المجلات الأسبوعية التى لا يرقى توزيعها كله إلى درجة التأثير الذى تحدثه صحيفة واحدة مثل « ستاندارد إيفننج پوست » أو فى الأعمدة التى تظهر من حين لآخر بقلم صحفى من أهل المدن الصغيرة ، مثل المرحوم وليم آلن هوايت، فإن الصورة كلها تُرسم وتُلون بشكل ضخم وباستمرار بقصد تأييد المصالح الثابتة ضد التقليد الديموقراطى الذى من أجله ظهرت أمريكا إلى الوجود كشعب مستقل . ويسير التأثير الهائل لسياسة الإعلان ونظامه فى الاتجاه ذاته . هذه بوجه عام الغاية التى يستهدفها المسرح أيضاً وإن حدث بصفة عارضة أن تثير إحـدى المسرحيات الشكوك حول سلامة ما يدعيه « اللسكيون الإقتصاديون » من حق لهم فى الحـكم . وإذا اختلف الأمر بالنسبة إلى الـكتب كما حدث حين أبرز المستر شتاينبك بصورة واضحة مأساة العامل العاطل المتنقل فى كتابه **Grapes of Wrath** ، أو الدراسات الرائعة التى نشرها المستر والمسز ليند فى كتابهما « **Middletown** » حيث أوضحا التعارض الظاهر بين الديموقراطية كفكرة والديموقراطية فى مجال التطبيق ؛ فإن الأمريكيين الذين يتأثرون بهذه الانتقادات الموجهة إلى الموقف الفعلى عددهم صغير بشكل خطير بالموازنة مع الذين يخضعون لتأثير الصحيفة العادية أو الفيلم العادى أو المجلات المعنية بالشئون الاقتصادية والتى تخصص عدداً كبيراً من صفحاتها لتوضح كيف أن الديموقراطية

الأمريكية تتضمن حكومة لا تقيد نشاط رجال الأعمال . وفى ظنى ليس من المبالغة القول بأن كتاب **Babbitt** للمستر سنكلير لويس صورة فوتوغرافية مركبة وصادقة للعقل الذى تخلقه هذه الأجهزة الدعائية . المستر بابيت عطوف وكريم مضياف وتمر به لحظات يحلم أن فى مستطاعه التحرر من التقاليد التى تتحكم فيه . وهو زوج شريف ووالد تجيش فى نفسه رغبة شغوفة فى تدليل أطفاله . وهو فخور ببيته وسيارته ، وشديد الرغبة فى أن تكون زوجته مساوية على الأقل لجاراتها المتوسطات فى القدرة على الإنفاق . والمستر بابيت نادراً ما يقرأ ، وأندر من ذلك أن يفكر . وتحيط به هالة ضخمة من الأبخرة العفنة عما يراه الزمالة الطيبة والتى فى الحقيقة تخفى عنه منظر تلك الواقعية التى يشتبه بصورة مزعجة أنها قريبة منه . وفى وسعه أن يغضب مؤقتا ، ولكن بمجرد أن يبدأ فى إحصاء مايكلفه ترجمة الغضب إلى أفعال فإنه يدرك أنه فى الواقع سجين لا يجرأ على تحمل الخطر الذى يترتب على محاولة الهرب. ولذلك يركن إلى تقبل التقاليد التى يراد إقناعه بتماثلها مع التقليد الأمريكى حتى ولو استبد به شك مزعج بأنها فى الحقيقة تناقض ذلك التقليد .

وإلى جانب هذه المؤثرات الضخمة يجب أن تضاف قوة كبار رجال الأعمال فى عالم التعلم وميدان البحث العلمى . فالمدارس الخاضعة لإشراف حكومات الولايات تكاد أن تكرس كلية لتوضيح اعتقاد يجعل بالفعل من عبارة « السير قدما فى الحياة » كأنها جزء من عقيدة دينية . وحيث تكون المدارس مؤسسات خاصة فإنها لا توحى حتى بمجرد الشك فى مشروعية النظام الاقتصادى التقليدى وصلاحيته . وفى مجال التعليم العالى تكاد تطغى قوة الثراء . وحيث تنفق الولاية على الجامعة أو الكلية فمن الصعب على النظريات الراديكالية التعبير عن نفسها فى أى موضوع قد يعرض حقوق الملكية للخطر ، ومما يوضح ذلك بشكل بارز أن جامعة مونتانا فصلت أستاذاً مبرزاً من أساتذة علم الاقتصاد لأنه أثبت أنه خلال سنوات طوال تهربت شركات النحاس الكبرى من الإلتزامات المالية . والجامعة أو الكلية التى تعتمد على الهبات الخاصة نظرتها من بعض الوجوه أكثر تحرراً من التى تعتمد على أموال الدولة ، غير أنه فى أى موضوع تثار فيه مشكلة الملكية فمن النادر حقا أن يلقى العقل الذى يتصدى لها

الترحيب . وفضلا عن ذلك فصحيفة كبرى فى نيويورك هى التى دعت جامعة كولومبيا إلى فصل المؤرخ الكبير شارل بورد لأنه قام بفحص أصول الدستور الاتحادى بطريقة واقعية، وحين أضرب بوليس بوسطن عام ١٩١٩ تحت ضغط الإثارة عرض رئيس وهيئة إدارة جامعة كولومبيا خدماتها على حاكم ماساسوشتس وإن لم يعرفوا مصادر المظالم التى سببت الإضراب . كذلك ليس من غير المهم أن نذكر كيف أثبت البحث أن مبالغ كبيرة تدفع إلى أساتذة الاقتصاد من قبل هيئات رجال الأعمال ليدلوا فى مؤلفاتهم الدراسية بالحجج ضد الملكية العامة

إن الحقيقة البسيطة تتلخص فى أن النظام التعليمى الأمريكى يعكس صفة النظام الإقتصادى الذى يضطلع بوظيفته فى نطاقه ويكاد ألا يكون فى الإمكان أن يختلف الأمر عن ذلك إذ لم يعد المرء ينتظر من مجتمع رأسمالى السماح لمدرسيه عموما بتقويض أسس الملكية الخاصة أكثر مما نتوقع من مدارس الاتحاد السوفيتى وجامعاته أن تستخدم المدرسين الذين يكرسون جهدهم لشرح مغالطات الماركسية أو أن تسمح السلطات فى مؤسسات الفاتيكان العلمية بالتسامح إزاء الطلاب الذين ينظرون إلى ستراوس وباور ولوازى جورج فوت مور نظرة تفوق نظرتهم إلى ممثلى وجهة النظر الرسمية. ما من مجتمع يسمح أبداً بالشك فى الأسس التى يقوم عليها نظامه إلا إذا كان واثقا من إحراز النصر الساحق فى الرد عليه .

ومما له أهمية فى سير النظام التعليمى الأمريكى روحه الأسطورية الضخمة التى أسهم بها فى تشكيل التقليد الأمريكى أكثر من خضوعه للمصادر الفعالة للسيادة، ذلك أن مظاهر قليلة من حياته عملت الكثير لا لحمل الجماهير على الاعتقاد بأن الطريق من الكوخ الخشبى إلى البيت الأبيض طريق مباشر ومفتوح أمام الجميع فحسب ، بل وكذلك لتقبل الإيمان بأن لكل فرد فرصة كاملة للصعود ألى قمة الهرم الاجتماعى . فإذا كان نابليون أقنع الجندى العادى بأنه يحمل عصا الماريشالية فى جعبته، فكذلك جعلت المدرسة الأمريكية من الصعب على أى غلام ذى مقدرة ألا يحلم باليوم الذى يذكر فيه أسمه مع أسماء روكفلر وآستور وفاندربلت وهنرى فورد ، وفضلا عن ذلك

فإلى عهد قريب جداً كانت الفرص فى الميـــدان الاقتصادى من الضخامة وأمثلة الأعمال البارزة من الـكثرة بحيث لم يكن عسيراً على التشكك ألا يشك فى سلامـة نزعته . قد يكون الأمل فى دخول البيت الأبيض بالنسبة إلى الشاب ذى الأطماع السياسية خيالياً فى الواقع أكثر منه حقيقياً ، والـكتب والخطب التى لا حصر لها والتى مجدت أبراهام لنـكولن الذى علم نفسه بنفسه كأنه رمز الأفراد العاديين فى أمريكا أخفقت فى العادة ملاحظة أن لنـكولن كان ذلك الرمز أساساً لـكونه رجلا ممتازاً تماماً ، لاريب أن فرقة ضخمة بدأت المسير فى الطريق إلى البيت الأبيض ولـكن لم يكن إلا لـكتيبة صغيرة فقط أمل حقيقى فى الوصول إليه .

وبالرغم مما نقول يتعين علينا أن نتذكر أن الحياة السياسية كانت مفتوحة أمام الناس العاديين فى الولايات المتحدة أكثر منها فى أى بلد آخر فى العالم حتى يومنا هذا . كان أسهل على الفقراء ووضيعى النشأة أن يحصلوا على العضوية فى أى من مجلسى الـكونجرس أو فى الهيئات التشريعية بالولايات من أى بلد آخر . وليس هذا كل شىء ؛ فقد كان معنى انتفاء النظام الملـكى عدم وجود بلاط ومعنى الأمر الأخير عدم وجود ذلك الجو الخاص من « الاحترام » والذى لاحظه باجوت فى انجلترا كصفة تميز العصر الفـكتورى . وليس من حياة موحدة أمام الأمريكى إلا على أساس اللون وربما العقيدة أيضاً ؛ فليست سفارات الولايات المتحدة ومفوضياتها ما وصف به جون برايت وزارة خارجية انجلترا من أنها « مصلحة الإعانة الخارجية للارستقراطية » . فالمحامى والطبيب والمهندس وأستاذ الجامعة — كلها مهن طريقها فسيح يمكن أن يسير فيـه أقل الناس شأناً حتى يصلوا إلى قمتها . هناك بغير شك حوالى ست جامعات للطالب فيها إمتيازات بسبب مولده أو ثروته ولـكن عشرات غيرها تنتفى منها هذه الظاهرة . وحتى السنوات الطويلة من الـكساد والحرب لم تفعل إلا القليل نسبياً لتحطم ذلك العنصر الأساسى فى التقليد الأمريكى ، أى الاعتقاد بأن الإنسان يصنع نفسه وأن خير فرصة لتحقيق ذاته تأتى من فتح أبواب التعليم أمامه إلى أقصى حد . هناك بلا شك حدود ضيقة لآمال الذين من أصـــل زنجى ، وتجربة الحاكم سميث فى عام ١٩٢٨ تبين أن الوقت لم يحن ليتوقع الـكاثوليـكى دخول البيت الأبيض . وباستثناء عالم الصناعة والمال تحول حواجز غير مرئية دون ارتقاء اليهودى ،

فثمت جامعات لا يجوز له التدريس فيها ، ومستشفيات لا يستطيع مباشرة المهنة فيها، ونواد لا يمكنه الإلتحاق بها ، بل ومناطق معينة لا يستطيع أن يستأجر فيها بيتاً أو أن يقضى ليلة فى أحد فنادقها . يجب ألا نقلل من الثمن الذى تؤديه هذه الأقليات مقابل إبعادها عن المشاركة الكاملة فى التقليد الأمريكى ، سواء لأسباب عنصرية أو دينية ، إنه ثمن مرتفع من الناحية المادية كما يوضحه تفاوت الأجر فى الجنوب بين العمال البيض والملونين ، ومع ذلك فهو ثمن باهظ من الناحية المعنوية لأن الشعور بالخيبة النفسية والمفروض على هذه الأقليات قبيح ووحشى مثل الصفات التى تميز النازيين أو الفاشيين . إنه يربى فى مجموعات كبيرة من المواطنين شعوراً بالنقص بغير مبرر ، وهذا بدوره يعبر عن نفسه فى مظاهر من العجرفة المتناهية أو الخضوع غير اللائق .

وحتى لو أدخلنا هذا الثمن فى الجانب المدين من التقليد الأمريكى ، وأنه لإضافة باهظة إليه ، فإن ما يتبقى من اتساع الفرصة رائع بارز ، فالشخص العادى يعتقد أنه ما من أبواب موصدة فى وجهه ويشعر بحقه فى إجراء التجارب على نفسه وبالمكان الرحب الذى توفره العضوية فى مجتمع ذى صبغة ديناميكية ، فلا يقف الأمر به عند حد التطلع الى التلال بل تتوقع منه الجماعة أن يمد بصره الى أعلى من ذلك . وكونه يشق طريقه إلى الأمام يعطيه الحق فى الفخر كما لا يفترض أنه يتحرك خارج الحدود التى ينبغى أن يكون محصوراً فى داخلها بحكم أصله ونشأته . فبالنسبة إلى المواطن العادى لم يبق أى أثر من التراث الإقطاعى الذى مازال ذا تأثير عميق على العلاقات الإجتماعية فى معظم البلاد الأوروبية .

هناك مساواة بين مواطن ومواطن نلقاها واسعة الانتشار فى فرنسا واسكنديناوه وبصورة جزئية فى انجلترا وتكاد تنعدم فى وسط أوروبا وجنوب شرقيها . فقد يتحدث العامل الإنجليزى بصراحة إلى صاحب العمل دون أن ينسى أنه يعتمد عليه، ولكننا لا نجد فى العامل الأمريكى عادة الاحترام هذه . أنه يدرك وجود تميز اقتصادى على أساس طبقى بينه وبين رب العمل، ولكنه لا ينظر بسهولة إلى هذا التميز الاقتصادى على أن له نتائج اجتماعية ، وقد يشعر بالإقتناع وخاصة إذا كان صغير السن أنه سوف يتخطى

على أى حال ذلك التميز بمرور الزمن . لست أقول باحتمال تحقق الاعتقاد بل على العكس فتطور الطراز الاقتصادى فى عصر الصناعة الجبارة يهبط بالاحتمال باستمرار، ولكن المهم أن الدافع على هذا الاعتقاد يكمن فى البيئة، ومعناه أن العلاقات الراكدة فى العالم القديم زالت من الجديد . هذا التباين فى التوقع حيوى من أجل تفهم الفارق بين التقليدين الأمريكى والأوربى بحيث يستأهل منا توضيح نتيجته . فما له مغزى مثلا أنه يصعب أن نجد أمريكيا يستطيع القيام بدور الساقى أو الوصيف على النحو الذى يقوم به الخادم الإنجليزى المدرب فى أحد البيوت الكبيرة فى انجلترا، والحق إن الثرى الأمريكى الذى يبلغ المستوى الذى يرغب عنده فى الظهور أمام الناس عن طريق الخدمة التى تشبع روح التفاخر يحتمل أن يستخدم ساقياً أو وصيفاً من الإنجليز كما يحتمل أن تستخدم زوجته وصيفة انجليزية أو فرنسية . وذلك أيضاً نلمسه فى العلاقة بين ضباط الجيش والجنود العاديين، فذلك اللون من العلاقة النظامية التى تفرض بين الطرفين فى الجيوش الأوروبية ذات التاريخ القديم تثير الشعب لو حاول أحد فرضها فى فرقة أمريكية. إن الضابط الأوربى ينتمى إلى جهاز كان من الوجهة التاريخية الأداة التى تنفذ فى العادة أغراض الطبقة الارستقراطية ، وفرقته هى البلد الذى يعتبر فيه من النبلاء ، وهذا التقليد لم يكن له وجود أبداً فى الولايات المتحدة . كما لا يستطاع تكوينه بسهولة ، ذلك أنه بالرغم من أن وشنطن كان سيداً فرجينيا وربما أغنى أمريكى فى عصره فقد كان جيشه مكوناً مثل جيش كروموبل النموذجى من الفلاحين الصغار والصناع المستقلين ممن انضموا إليه لا بطريق القسر أو لعدم وجود مصدر آخر للعيش وإنما لأنهم آمنوا بعظمة القضية التى يحاربون من أجلها ؛ وهذا رسم صورة النظام الأمريكى فى جميع فروع قوات الدفاع ، وجعل من المستحيل نمو روح الطبقة المنعزلة التى يمكن أن تسود ضد الفكرة التى ترى أن الجندى فى جوهره مواطن حمل السلاح لأغراض مؤقتة وديموقراطية .

وثمت مثل أخير يمكن إقتباسه . من النادر أن نجد لندنياً ، وأندر من ذلك انجليزياً ، دخل القصر الملكى أو يعرف شيئاً عن المقر التاريخى لرئيس الوزراء ،

أكثر من الإسم . ولكن قليلا من الامريكيين من يزورون وشنطن دون التوجه لرؤية البيت الابيض ، وهناك أيام يزدحم فيها ، لابالمدعوين من ذوى المراكز الاجتماعية العالية وإنما بالمواطنين العاديين الذين يرغبون أن يروا بأنفسهم كيف يعيش رئيس جمهوريتهم . ولقد شاهدت بنفسى فى ألبانى ونيويورك وأوليمبيا ووشنطن مدرساً يصحب فصلا من الأولاد والبنات للتحدث الى حاكم الولاية بعد أن قاموا بزيارة الى الجمعية التشريعية. والمغزى السيكولوجى لهذا انتفاء ذلك التدرج الهرمى الطبقى فى التقليد والذى يحيط بعملية الحكم فى أوربا وآسيا . واذا استثنينا اسكنديناوه وبدرجة أقل هولنده فليس فى القارتين شىء يمكن أن ينافى البساطة الحاسمة التى ولدها التقليد الامريكى . لم يتم ذلك دون معارضة والدليل الكافى على ذلك فكرة آدامز عما ينبغى أن يكون المعنى العام الذى تعبر به رآسة الجمهورية عن ذاتها . وسواء أكان الامريكى رئيس جمهورية أم كان عضواً بمجلس الشيوخ أم حاكم ولاية أم قاضياً بالمحكمة العليا فإنه يضفى على الممثلين الذين اختارهم كرامة واسعة المدى دون أن يجد نفسه مضطراً الى السجود أمامهم ؛ ولهذا الأمر تأثير على الفكرة الديموقراطية أبعد غوراً مما يسهل إدراكه .

فى التقليد الأمريكى عنصر دينى يسهل أن نخطىء فهمه . إن تاريخ مستعمرات نيويورك المثير خلال القرن السابع عشر ، والجهود شبه المسرحية التى بذلتها أسرة ماذر ، والصراع بين الارثوذكسية البيوريتانية ، ودعوة آن هتشنسون ضد مذهب تناقض الشرائع ، ومطالبة روجر وليمز المصحوبة بالتحدى من أجل فصل الدولة عن الكنيسة ، وما كان لرجال الدين من مقام اجتماعى دام حتى عهد وليم إليرى تشاننج وايمرسون ـ كل هذه العوامل مضافة إلى التأثير الكبير المسلم به فى حلق جو ثورة القساوسة كما فعل چوناتان ميهو وشارل شونسى ، أدت فى ظنى الى سوء فهم للدور الذى لعبه هذا العنصر الدينى . فربما لمدة خمسين أوستين عاما بعد رسو السفينة ماى فلاور Mayflower لانجد مبرراً للشك فى أن تأثير البيوريتانية فى نيوانجلند كان واسع المدى وعميقا ، وفى أن عددا كبيراً من المهاجرين الأوائل غادروا انجلترا من أجل عقيدتهم وأنهم أقروا فرض قانون دينى للسلوك والاعتقاد على جميع من أمكن التأثير فيهم.

إلا أنه من المهم عدم المبالغة فى تقدير أثر البيوريتانية فى الحياة الأمريكية أو الدرجة التى بها عبرت عن نفسها بصورة قاتمة حتى بين أشد أتباعها إيمانا . وفضلا عن ذلك كانت شدة الارثوذكسية البيوريتانية موضع التحدى منذ بدأ استيطان نيوانجلند . والشىء الهام الذى أسهمت به فى الحياة المحيطة بها لم يكن اللاهوت اليقينى بقدر ما كان الشعور بحدة الحاجة الى الجهد مع الارادة من أجل ضمان الخلاص فى الآخرة عن طريق الوصول أولا الى الراحة والأمان فى الحياة الدنيا أما أن الطائفة التى آمنت بالحكم الدينى تذرعت بالصبر وتمتعت بالنفوذ فأمر لاشك فيه أبداً ولكنها كانت على استعداد دائما فى أواسط القرن السابع عشر لتقبل الحل الوسط ، كما نمت فى نهايته نظرة حرة عبرت عنها كتابات چون وايز وكانت شديدة الخطر على دعاوى تلك الجماعة . وحوالى منتصف القرن الثامن عشر هبطت مكانة الأرثوذكسية البيوريتانية ، وفى الوقت الذى كان فيه عناد جورج الثالث وغباء وزرائه يمهدان الطريق إلى

الاستقلال لم يعد فى الإمكان أن نجعل اعتناق عقيدة مسيحية معينة أساس الإنتماء للوطن ، ولهذا السبب تحقق بسهولة الفصل بين الكنيسة والدولة فى عام ١٧٨٧ . إن منطق جوناتان إدواردز الدينى والروح العاطفية للتحمسة التى اتسم بها عصر اليقظة الكبرى أقل تأثيراً من مطالب حياة تتطلب على الدوام إجراء التجارب وتجعل نفس الفكرة المنبثقة من بيئة مناطق الحدود مصدراً دائما للالتزام بالاعتراف بطابع الابتكار وتطبيقه على الخبرة .

وهذا هو السبب الذى يجعل كل ما يبدأ كمبدأ فى مذهب الحكومة الدينية ينتهى بأن يصبح تقليداً ليس من الميسور جدا تمييزه عن مذهب المنفعة . ربما نجد كثيرين ممن صيغت لهم تلك النظرة النفعية فى إطار دينى . إن العمل الشاق ، والحياة المنتظمة والإشتهار بالنزاهة والمعاملة العادلة ، وعدم تبديد جوهر الفرد فى التظاهر الذى ينم عن الاستهتار ، والعزم على تنفيذ الأغراض المتوخاة — كل هذه تمثل الفلسفة الاخلاقية التى تشكل بها دين أمريكا حين تكون التقليد الاساسى. ورأى كثيرون غيرهم أن مما يساعدهم على دعم تلك الفكرة أن يضفوا عليها طابعامقدسا . والأمر الهام الذى نؤكده كما توضحه بشكل بارز حياة بنيامين فرانكلين ومؤلفاته ، أن بيئة أمريكا شكلت المعتقدات الدينية التقليدية لتطابق حاجاتها أكثر مما شكلت الأخيرة البيئة الامريكية كى تطابق دعاوى تلك المعتقدات.

وفى ظنى ليس من السهل أن نخطىء النتيجة . فيجب أن تساعد الكنائس الناس فى نضالهم ليكونوا مواطنين إذ الدين ذو قوة إجتماعية للابقاء على النظام وحمل الناس على بذل الجهود التى تتطلبها الحياة ، وذلك ما قصده ناتانيال هوثورن حين كتب يقول « إن النظام الشامل لشئون الإنسان كمانلقاه مستقراً الآن قد أقيم عن قصد لاستبعاد الروح المهملة والسعيدة . فالأطفال أنفسهم يلومون التعس الذى يحاول النظر إلى الحياة والعالم — كما يمكن أن نفترض — على أن الغرض منهما أن

يكونا مكانا وفرصة للاستمتاع »[1] . كانت القارة واسعة الأرجاء تتطلب رجالا، ونساء يتوافر لديهم هذا الإيمان إذا أرادوا إخضاعها لتحقيق أغراضهم . وطالما أن بعض من ملكوا هذا الإيمان مصحوبا بالمقدرة والمهارة قد نالوا جزاء ضخما أصبح من الطبيعى النظر إلى ذلك الجزاء على أنه نعمة من الله على الإنسان الفاضل . وأكثر من ذلك الظن بأن الإخفاق فى الحياة الدنيا ثمرة الخطيئة ، وحينئذ تصبح العلاقة بين الإنسان وخالقه مسألة فردية يستنكر التدخل فيها . وبتشجيعه المجهود الفردى وجد الدين مكانا له فى التقليد الأمريكى ، وزاد من حدة تلك القوة التأثير الذى وقع عليها من ظروف وسيكولوجية مناطق الحدود لأن هذه أبرزت كل تلك النزعة نحو الاستقلال والكامنة فى الفكرة البروتستانتية . وفى الغالب كانت تلك المذاهب التى نمت مستمدة من العقيدة الانجليكانية وأكدت حق الفرد فى الخلاص ، وبدا نجاحها الأكبر فى دعواها العاطفية أكثر منه فى فحواها العقلى . لقد قامت إلى حد كبير على إيمان صاحبها بوجود نور باطنى يعجز حتى العلم عن إدراكه ، بله إطفائه . وبالنسبة إلى سكان مناطق الحدود كانت لذلك النور قيمة ضخمة إذ أكسبهم شعوراً ثابتا من الثقة بالنفس يستطيع أن ينساب بسهولة فى كل شخصياتهم وبذلك زودهم بالدرع الذى يقيهم من الصعاب الطبيعية والاقتصادية التى تنطوى عليها الحياة فى تلك المناطق . ليس من النادر أن تبدو لنا صفة المذاهب التى يجرى تقبلها بعثا لمظاهر التعصب الدينى العنيف الذى شهدته الحروب الأهلية فى بريطانيا ، وما كان ليصعب على توماس إدوردز جديد أن يكتب نسخة جديدة من كتاب «Gangraema» عن الشيع المختلفة مثل Rappites، Shakers، Come - Outers، Muggletonians وهكذا . صحيح أن بعض هذه الشيع الدينية كالموراڤيين فى بنسلڤانيا أو إخوان الكمال بدأت بمثل جماعية ولكن ندر أن استطاعت البقاء . إن جوهر البيئة

---

(١) Lloyd R. Morris : The Rebellious Puritan (New York : Harcourt, Brace, 1927), p. 331.

الطبيعية نفسه مهـــد السبيل للفردية فى الشئون الاقتصادية . وبخلاف الشيعتين Mormons ، Shakers فالتشبث بالروح التعاونية فى الدين لفترة طويلة وعلى نطاق كبير كان من الأمور الاستثنائية .

ترتب على هذا الدين المنبثق من بيئة مناطق الحدود دعم فكرة المساواة التى أثرت بدورها تأثيراً عميقا على فكرة الديموقراطية السياسية . لقـد مهد السبيل للتصويت العام إذ كان من المستحيل استبعاد الرواد من أهل كنتوكى وتنيسى المتشبعين بروح الثقة بالنفس من حقهم فى تقدير الـكيفية التى يحكمون بها . كذلك يجب ألا ننسى أن الرضاء العاطفى الذى يهيئه تعدد الشيع الدينية لم يكن له دخل مطلقا فى نمو الطابع الدنيوى للحياة الأمريكية . فمنذ الثلث الأول من القرن الثامن عشر على أى حال نجد أن تقبل مذهب ما وراء الطبيعة — وغالبا ما كان فى أشـكال تدعو إلى السخرية — سار بالسرعة نفسها التى تقدم بها الاهتمام بالعلوم والفلسفة . هذا الاتجاه نحو الطابع الدنيوى يظهره بين أشياء أخرى عظم تنوع المهن التى زاولها خريجو الجامعات فيما بين عامى ١٧٥٠ ، ١٧٦٠ بالقياس إلى الفترة ١٧٠٠ — ١٧٥٠ كما يظهره ازدياد الاهتمام بالعلم والأدب وسرعة نمو الصحف والرسائل التى تدعو إلى الانصراف إلى المسائل غير الدينية .

وحوالى الوقت الذى نشبت فيه الثورة الأمريكية كان قدر كبير من الطابع الذى أسهم به الدين فى التقليد قد بدأ يتخذ الشكل الذى تميز به منذ ذلك الحين . ففى كل مـكان راحت الـكنائس المعترف بها تفقد الأرض التى تقف عليها إذ كانت مستعمرات مثل رود أيلاند وبنسلفانيا تبين أن التسامح الدينى وثيق الصلة بالرخاء التجارى . ومما له مغزى أن داعية عبقريا مثل صمويل أدامز وجد من الخير أن يحذر مراسليه من أخطار الـكهنوتية . ومما لا نزاع فيـه أن تجربة الحرية الدينية ولدت الفزع من التضييق والقسر فى المسائل السياسية . ولعل هذا من الأسباب التى جعلت فيلادلفيا تقر بسهولة عام ١٧٨٧ تحريم أى اختيار دينى كمؤهل فيمن يتقدمون إلى وظائف الحـكومة الاتحادية . وحتى ماساشوستس قبلت عام ١٨٣٣ فصل الـكنيسة عن الدولة

كجزء من دستورها . بقى عدد صغير من الولايات ظل فيها الإيمان بتعاليم المسيحية شرطا لشغل الوظائف العامة ، وكان توكفيل فى المحكمة حين رفضت شهادة أحد الشهود لأنه ملحد. كذلك تبين قضية آبنر نيلاند أنه بعد انقضاء نصف قرن على وضع الدستور الاتحادى كان مايزال فى الإمكان الزج بشخص فى السجن بتهمة التجديف بالرغم من اعتراض رجال مثل إمرسون وتيودور باركر وتشانينج ، وما تزال سجلات التشريع فى عدد من الولايات تتضمن القوانين التى تعاقب على إهانة الدين .

إن بالتقليد الذى ظهر بعض الطابع الذى تنبأ به توكفيل فى مؤلفه العلمى العظيم الذى كان ثمرة زيارته الشهيرة للولايات المتحدة لقد غادر أوربا التى كان من الصحيح بوجه عام أنه يندر فيها اعتناق آراء ديموقراطية ودينية فى نفس الوقت ، وقرأ فى أدب عصر العقل فى فرنسا ، أن الإيمان يتضاءل كلما نما الفهم . وأثار دهشته أن يرى الأمريكيين يؤمنون بالعلاقة الوثيقة بين الدين والديمقراطية ، وحين سعى إلى معرفة السبب فى تلك الفكرة غير المنتظرة أعتقد أنها راجعة إلى أن رجال الدين بالرغم من فصل الكنيسة عن الدولة لم يهتموا بالمسائل السياسية . وكان الاستنتاج الذى ترتب على ذلك أن الدين فى حد ذاته دعامة النظام الاجتماعى ، ونتج عن ذلك أن الممتلكات المخصصة للأغراض الدينية معفاة من الضرائب .

ولعله يمكن القول بأن ذلك الاستنتاج جزء حى آخذ فى النمو من التقليد الأمريكى . قد لا تكون عقائد مخصوصة موضع رضاء الشعب فى زمن معين كما كانت الكنيسة الكاثوليكية غير محبوبة من حزب «الذين لا يعرفون شيئا» فى العقد الخامس من القرن الماضى ، أو جمعية كوكلاكس كلان بعد الحرب العالمية الأولى . وفيما يتعلق بالمسائل التى تنقسم بشأنها البلاد بحماس كالرق مثلا أو معاملة الزنوج اليوم تحرص الكنائس عادة على الإصرار بأن المسألة خارج اختصاصها . ما من سياسى يفكر فى التقدم إلى منصب على أساس إعلانه أنه ملحد ، ومن المؤكد أنه لا ينتخب لو صرح بذلك . وما من حزب يسعى إلى النجاح فى الانتخابات فى مركز آهل بالسكان مثل نيويورك أو شيكاغو أو بوسطن يفكر فى ترشيح أفراد دون النظر إلى توزيع الآراء

الدينية بين الناخبين . إن للكونجرس قساوسته ، كما أن لقوات الدفاع بالجمهورية قساوستها . وعموما ليس من المألوف بالنسبة إلى رئيس الجمهورية أو حاكم ولاية ألا يقدم مظاهر الاحترام التقليدية إلى الكنيسة التى ولد على مذهبها . وكذلك بوجه عام من الدقة القول إن التأثير الأساسى للكنائس أن تظهر اهتماما غامضا بالاصلاحات المعتدلة ولكنها تبدى عداء عميقا لأية فلسفة اجتماعية راديكالية . ومن المؤكد أنه يصح القول إن التأثير المتحد للمؤسسات الدينية بما فيها اليهودية هو الذى حفر الهوة الفاصلة بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى . إن الإصرار الدائم من جانب الرئيس روزفلت على واجب الحكومة السوفيتية فى إباحة الحرية الدينية لمواطنيها كان ذا أهمية غير عادية ، إلا أن الشىء الذى لا يسهل اكتشافه ما إذا كانت قوة الدين فى التقليد الأمريكى تعزى إلى الفردية التى كساها رداء من الاحترام فى الماضى ، أو إلى أمل الطبقة الحاكمة فى أن يخفف قادة الكنائس من الحماس الشعبى للاصلاح فى السنوات القادمة .

إن العبارة الشهيرة الواردة فى دستور ماساشوستس بشأن إقامة « حكومة من القوانين وليست من الناس » تعبر عن عنصر حيوى فى التقليد الأمريكى له أهمية خاصة بالنسبة إلى ما حققه والى التيارات المتعارضة التى واجهها فى البيئة التاريخية. ولا ريب أن جانبا من قوته يرجع إلى أن مثل الحكومة الشعبية كما يتضمنها القانون العام بدت — كما هى فعلا — درعا واقيا ضد الإستبداد سواء فى الكنيسة أو الدولة. قد يكون الطاغية ملكا مثل جورج الثالث ، أو حاكما من حزب الثورة مثل أندروز أو هتشنسن ، أو مصلحة ثابتة مثل مصلحة أنصار حماية التجارة الإنجليز ؛ وفى الوسع أن نكتشف فى تزايد التقدير للمحامين وقوتهم خلال القرن الثامن عشر بالقياس إلى السابع عشر شعوراً بالاحترام للقواعد الموضوعية التى لا يمكن إفسادها لصالح أى شخص . كذلك ليس فى الإمكان أن نخطىء السمعة العالية التى تتمتع بها فكرة القانون بمجرد أن بدأ النقاش بالبرلمان وهو النقاش الذى تطور فصار حرب الاستقلال ؛ فالحاجة إلى عرض قضية كانت مقنعة من الناحية المنطقية ضد دعوى مجلس العموم كان معناها تقديراً جديداً للمحامى الذى استطاع أن يوضح حق الأمريكيين فى الحكم الذاتى، بالاستناد إلى آراء كوك ولوك وبلاكستون . وبمجرد التصديق على الدستور بلغت المحكمة العليا فى إحترام الناس منزلة لم يسمح حتى أضعف أعضائها بأن تفقدها لأنها أصبحت حارس الملكية ضد قوة الجماهير . ومنذ أن أضفى عليها كبير القضاة مارشال هذا الطابع — بالرغم من وجود أعضاء فيها من وقت لآخر مثل هولمز وبرانديز وكاردوزو ممن رأوا أن التجارب التشريعية يجب النظر إليها على ضوء خبرتنا الكلية وليس على ضوء ما كان يقال منذ مائة عام سابقة — فان حماية الملكية ضد إرادة الشعب ظلت وظيفة رجل القانون فى معظم المحاكم الأمريكية وبخاصة فى المحكمة العليا ، وكان ذلك بوجه عام واضحا بشكل بارز .

كانت تلك الوظيفة تنحصر فى وقف الديناميكية الكامنة فى المجتمع الأمريكى .

ولا يقتصر الحال على أنها أوقفت أساليب ظاهرة مثل ضريبة الدخل أو تحريم تشغيل الأطفال ، أو أن المحاكم أعتبرت « الإجراء المناسب » لا كما أحسن وصفه القاضى ليوند هاند بقوله إنه تعبير عن « الفكرة الرياضية الانجليزية عن اللعب النزيه » وإنما كما لو كان التعديلان الخامس والرابع عشر تقنيناً « للإحصائيات الاجتماعية » التى أعدها المستر هربرت سبنسر على حد عبارة القاضى هولمز الساخرة . لقد وقفت المحاكم موقف العداء من النقابية خلال تاريخها كله تقريبا، واستخدمت فكرة حرية التعاقد لتحطم إجراء بعد آخر أعتقدت جمعية تشريعية بعد الفحص الدقيق للأدلة أنه لازم للرفاهية الاجتماعية ومنذ صدور قوانين الفتنة عام ١٧٩٨م لم تتردد فى السماح بالمطالب المستندة إلى فكرة الحرية وهى النـــداءات التى كانت فى الحقيقة ما دعاها القاضى كاردوزو « المظهر الساخر للإمتيار أو عدم المساواة والذى يسعى إلى حماية نفسه وراء عبارات مستمدة من المبدأ » . وعداء المحاكم لنمو قانون إدارى فعال لم يزد عن كونه وسيلة لتحطيم الجهود الأولى التى بذلت لكى تنمى فى مجتمع الولايات المتحدة الكبير المعانى التى تدل عليها الدولة الايجابية . وعلى وجه العموم استخدمت المحاكم الأمريكية حقها فى المراجعة القضائية كى تحل محل النتائج التى يصل إليها الخبير بعد استقرائه الحقائق الاجتماعية والتاريخية بروح البحث العلمى ووفقا لمقاييس تستمد مضمونها ومحتواها من دولة أمريكية لم تعرف إلا نادراً ما يشتمل عليه المجتمع الكبير .

وبالرغم من هذا نقول بوجه عام إن حكم القانون طبقا لما يراه بشأنه رجال القانون بدا فى نظر الأمريكيين جزءاً جوهريا من تقليدهم والضمان الواضح لحريتهم. ولما كانوا يعيشون فى ظل دستور مكتوب وبذلك تدربوا على النظر إلى رجـــل القانون بوصفه قاضياً على أنه المصدر الطبيعى للتفسير النهائى للدستور فإنهم لم يروا بسهولة أن الشخص الذى يعين فى القضاء كان واثقا نوعا من أن يكون محاميـــاً ناجحاً ، وأن القلائل الذين نجحوا فى المحاماة ممن كان عملاؤهم من الطبقة الغنية فى المجتمع الأمريكى . ومقـــابل ذلك فالذين يعينون فى مناصب القضاء كانو فى العادة

يحصلون على الجزاء عن الخدمة التى أدوها لحزبهم السياسى وبالمثل على الأقل كان من غير المحتمل أن تختلف آراءهم اختلافا كبيراً عن المعيار الذى يراه الحزب . يكفى أن نطالع المجلد الضخم الذى أوردت فيه اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ الشهادات التى أدلى بها أمامها عن صلاحية القاضى برانديز لعضوية المحكمة العليا ، أو من زاوية مختلفة المراسلات التى تبودلت بين تيودور روزفلت وعضو الشيوخ هنرى كابوت لودج حول الرغبة فى تعيين القاضى هولمز فى المحكمة التى كان مدى جيل أعظم أعضائها ، كى ندرك أن المقاييس العادية عن الصلاحية لمناصب القضاء كانت رغبة فى تقبل الماضى الأمريكى أكثر منها اهتماما بمستقبل هذا البلد .

هذا الموقف الخاص بتقبل هذه المقاييس شديد الوضوح ، ذلك أن التقليـــد الأمريكى تقليد فيه احترام القانون تعادله على الأقل العادة الدائمة عن عنف لا يرعى عادات القانون . ذلك العنف يعتبر من جهة أمراً لابد وأن يلازم حضارة نمت فى مناطق الحدود ، إذ حيث لاوجود لعادات الاستقرار التى يفرضها القانون فليس ثمت مايدعو إلى الدهشة أن يتولى الناس بأنفسهم وضع القانون كما حدث فى حالة الاندفاع وراء الذهب عام ١٨٤٩ . ومن جهة أخرى ينبعث العنف من امتزاج الأجناس والفلسفات، ذلك الامتزاج الذى ظهرت منه امريكا بمثل هذه الخطوات السريعة . إنه يرتبط بصورة مباشرة جداً بالحقيقة التى مؤداها أنه فى حالة طرح القانون جانبا فمن السهل أن يشق المرء طريقه إلى الثراء على مثل هـذا النطاق الواسع ، الأمر الذى أدى إلى افساد المحاكم والهيئات التشريعية بصورة تشبه فى حدتها العادات السائدة فى جنوبى شرق أوربا ، غير أنه من المهم أن نتذكر أن «الطعم» لايمكن أن يتوطن فى مجتمع دون أن يخلق طبقة من الناس تعيش على مقدرتها فى السخرية من القانون . فرجل الأعمال الذى يشترى الأداة السياسية ، سواء أكانت أطماعه واسعة أم متواضعة ، لابد وأن يخلق « السيد » الذى لن يتسنى له البقاء إلا عن طريق قدرته على أن يمنح عالم الأعمال الأفضال التى يشتريها ، وأسلوب قطاع الطرق هو النتيجة المترتبة على نظام « السيد » هذا . وبمجرد تقبـل الأسلوب فى قمة الهرم

الاقتصادى فلابد من تقبله أيضا عنـد السفح . إن عضو الشيوخ بنروز ينتمى إلى نفس الجنس كأى « سيد » مثل بلات فى نيويورك أو بندرجاست فى كنساس سيتى ، وجنسهم جزء من النوع الذى ينتمى إليه قاطع طريق مثل كابونى قد يظل الرمز الأعلى خلال النصف الأول من القرن . فبمجرد أن يحاول الناس أن يحيدوا عن طريق القانون فلابد أن يحلقوا لا الذين يتفادونه فحسب إذا استطاعوا بل وكذلك الذين يخرقونه بدون اكتراث وبشكل وحشى إذا لم يعرفوا سبيلا آخر يوصلهم إلى القوة والثروة

وثمت عاملين آخرين فى هذا الوجه من التقليد الأمريكى يتطلبان التأكيد . هناك معنى حقيقى للقول بأن احترام الأمريكيين للقانون ولد عدم احترامه أو بعث على الإباحية ، لأن الجهد الذى يبذل من أجل الإشراف على كل مجال من السلوك الإنسانى عن طريق التشريع — وهو من رواسب التراث البيوريتانى الواضحة — مما نجم عنه إمكان تحريم بيع الطباق والخمر ، كان معناه أن فى وسع جماعة من الناس أن تتولى إشباع هذه الحاجات التى أبى القانون إشباعها . وكلما زاد انتشار الحاجة عظم الربح الناجم من توفيرها وأصبح حماس المسئولين عن القانون من أجل تطبيقه أكثر جدية وغيرة . ومن هنا نما بطبيعة الحال شعور بالرضاء فى التغرير بواضعى القانون . وبمجرد أن يوجد ذلك النوع من التوتر فى البيئة الاجتماعية والذى شهده هذا الجيل فى الصراع بين الذين اعتبروا التحريم من عناصر الإيمان الدينى وبين الذين نظروا إليه على أنه تدخل عابث فى الحرية الشخصية ، فان المسرح يعد لتنمية العنف بسبب محاولة فرض طاعة القانون ، ولا يسعنا أن نقرأ تاريخ الأساليب التى عمد إليها المستر روكفلر لدعم تفوقه فى عالم صناعة البترول دون أن نرى أن ما صحبها من حالات الرشوة والإفساد وحوادث الإنتحار ولد بصورة حتمية عالما لم يكن فيه القانون مبدأ يجب احترامه وإنما كان عقبة لابد من تجنبها ؛ وما المستر روكفلر سوى صورة بارزة فى موكب من قوم على استعداد لشق طريقهم إلى القوة بغير شفقة أو رحمة . وإن الأساليب التى صارت بها تكساس ولاية أمريكية ، وسيطرة الخطوط

الحديدية على الفلاحين ، وعادات أصحاب الملايين من المشتغلين بقطع الأخشاب وتربية الماشية — كل هذه يجب أن توضع فى إطار جماعة تريد أن تحصل فى الحال على المزايا التى توفرها القواعد المستقرة دون أن تسمح للأخيرة بأن تعوق سيرها صوب الثراء .

والعامل الثانى ذو الأهمية يتمثل فى الحاجة إلى الإدراك بأن القيم البدائية التى آمن بها الرائد والتى تتجلى إلى حد كبير فى التقليد الأمريكى سيكولوجية فى صفتها كما أنها جغرافية . فليس عند الحدود فقط ينتهز الناس الفرص التى تتراءى لهم ولكنهم ينتهزونها كذلك فى البيئة المستقرة حيث الفرص كبيرة كما هو الشأن فى صناعة جديدة أو أسلوب جديد من التنظيم . لقد هيأت الصناعة الرأسمالية لرجال مثل آستور وڤاندربلت وجاى جولد وروكفلر نفس الفرصة التى هيأتها أمريكا العذراء للمستوطنين البيورتان فى القرن السابع عشر . وكما كان الهندى الأحمر العدو فى جيل أصبحت النقابة العدو فى فترة متأخرة ، ونفس الرضاء الذى كانوا يستشعرونه عند صد أى هجوم هندى أحسوا به كذلك إذا فشل إضراب . إن المثل الأعلى الرئيسى فى الصورة التى تضم كل القيم إنما هو الإغراء الذى تثيره الثروة الضخمة والمفاجئة . إن تأثيره على كل مظهر من الحياة الأمريكية يكاد لا يحتمل المبالغة فى التقدير ، فهو يصيب بعدواه رجل السياسة والمحامى والقس بل والمعلم ، وهو يلوثهم بعدواه بينما تتعذب ضمائرهم بسبب ذلك الحلم الأمريكى عن الفرصة المتساوية والذى يتحدى دائما حضارة قائمة على مشروعات الأعمال .

ويفسر هذا فى ظنى سعى أصحاب الملايين الأمريكيين وراء حسن السمعة فى المجتمع عن طريق الكرم فى الهبات العامة التى يقدمونها . إن الذين هاجمهم تيودور روزفلت على أنهم « أشرار من ذوى الثراء العظيم » سعوا بذلك إلى أن يثبتوا لأنفسهم — فضلا عن مواطنيهم — أنهم يسيرون فى طريق غير نفعى فقط . قد يتصرفون فى عملهم بقسوة سيزار بورچيا السلبية من الضمير ولكنهم تواقون مثله إلى أن يعرف الناس عنهم أنهم يحسنون إلى المجتمع الذين يسيطرون عليه . فأقاموا المبانى

العظيمة ، وأنشأوا الجامعات ، واشتروا النادر من الصور والمخطوطات والكتب ، وقدموا الهبات للابحاث الكبيرة فى العلم والطب وعلم دراسة الآثار والكشف الجغرافى ؛ وكان الشرط الذى أصروا عليه الاعتراف بحقهم فى تشكيل قوة الدولة لما فيه صالحهم . وهو شرط جعل من فكرة حكم القانون والتى تنطبق على الجميع بصورة متساوية أسطورة تكاد لا تخدعهم أنفسهم . وكان معناه أيضا أن معظم الذين سعوا إلى تحدى تفوقهم تعين عليهم أن يكافحوا بأنفسهم من أجل الثروة مع الإصرار على أن حكم القانون أسطورة ، وفيما بعد فالقادمون الجدد يدفعون أيضا عن إصرارهم بكرم مماثل. إن ما أغفل الجميع ملاحظته أن عادة العقل التى خلقوها سببت إساءة عميقة وواسعة الانتشار لذلك الاحترام للقانون والذى كان يتوقف عليه قدر كبير من مستقبل التقليد الأمريكى .

تتوقف قوة أى تقليد فى البقاء على مقدرته فى ضمان استمرار الإيمان به ، وهذا بدوره يعتمد على قوته فى إثارة الأمل والفرحـة فى نفوس الجماهير . وتظل الطبقة عادة فى مأمن طالما استطاع النظام الذى تسيطر عليه أن يكفل هذه الإثارة ، ذلك أنه طالما يحس الناس أن الطريق المباشر مفتوح أمامهم فلن يشعروا أن عليهم السير فى الطريق الملتوية . وكل من يدرس التاريخ الأمريكى لن يعجز أن يلاحظ — بغض النظر عن مشكلة الزنوج وحدها — أن جو أمريكا الفكرى تسوده روح الكشف والتوسع والتفاؤل . هناك بدون شك فترات من الأزمات غير أن الحيوية المتوافرة من القوة بحيث يندر أن يعجز الناس عن التغلب عليها بسرعة . إن الأسطورة المشهورة تصف أمريكا بأنها بلد المساحات والفرص والموارد التى لا حد لها . لقد ورثت كل ما هو صالح فى العالم القديم وأضافت إليه فرصة التحقيق الذاتى الذى لم يعرفه أبدا . وإلى هـذه المزايا الضخمة أضيف التحرر الفعلى من أخطار الهجوم العسكرى لمدة قرن من الزمان ، فضلا عن تأكيد أولوية الحياة المدنية بوصفها العلاقة التى تتضمن المجهود السياسى . فإذا كان الجندى الناجح قد كوفىء أربع مرات برئاسة جمهورية الولايات المتحدة فإنه حصل على ذلك الجزاء بوصفه شخصاً يزاول الحياة المدنية .

وعلاوة على ذلك تحررت الولايات المتحدة من جميع القيود التى يفرضها التقليد الإقطاعى ، فلم يكن بها طبقة حاكمة دائماً سواء بالمعنى الشخصى أو الجغرافى . وإذا كانت تمثل فى جوهرها حضارة بورچوازية فالطبقة الوسطى بهـا لم تلق نفسها مضطرة أبدا ، كما حدث فى أوربا ، إلى أن تشرك معها فى تملك قوة الدولة أولئك الذين خلفهم نظام اجتماعى سابق سواء أكانوا ملاك أرض أوطبقة عسكرية لاريب أنها عانت الآلام الرهيبة التى سببتها حرب أهلية ما تزال آثارها بادية فى عقل الجنوب وعاداته وفى المركز النسبى الذى تشغله فى إقتصاد أمريكا الإجتماعى ، بل يصح القول

بأن الحرب الأهلية لم تحل مشكلة وضع الزنوج فى حياة الشعب الاجتماعية والاقتصادية وإن ألغت استرقاقهم رسمياً . إلا أنه بصرف النظر عن هذا الإستثناء فالحواجز التى كانت تعترض طريق الرجل العادى فى العالم القديم لم يكن لها هنا وجود من حيث المبدأ . ليس من شعب آخر يملك مثل هذه الموارد الطبيعية ليكتشفها كما فعلت أمريكا بهذا العمق أو ظل بهذه الدرجة اليسيرة أسيرا للماضى أو قادرا على التكيف وفقا للاختراعات الفنية واستخدامها للتخفيف من مشقة العمل ، أو علق أهمية وقيمة أقل على النشأة ، أو نظر باحترام أكبر إلى مهمة كسب المرء عيشه اليومى ، أو جعل طريق المعرفة ميسراً لجمهور الشعب ، أو توافر فيه الإيمان بالتقدم بمثل هذه الدرجة من العمق والانتشار ، أو كانت ثقته أقوى بقدرة الرجل العادى على حل المشكلات التى يواجهها .

تلك هى العناصر التى تجمعت خلال ثلاثة قرون تقريبا بعد ظهور أمريكا على مسرح التاريخ العالمى ليتكون منها التقليد الأمريكى الذى ندر أن تعرض للشك ، بل إن بعض الشخصيات البارزة فى التاريخ الأمريكى مثل جيفرسون ووالت هويتمان آمنوا به فى حماس كاد أن يكون فى قوته عقيدة دينية . وإذا تعرض التقليد أحيانا للتحدى أو استشعر الناس الخوف من عدم الإحتفاظ به أو عجزوا مثل هنرى جيمس عن تقبل معناه ، فمن الصعب أن نشك أنه حتى نهاية الحرب العالمية الأولى كان تقبل الإطار الذى رسمه للحياة فى الولايات المتحدة الفرض الذى نظمت الأغلبية الساحقة من المواطنين أعمالها اليومية على أساسه . قد يكونون فقراء ولكنهم لن يظلوا كذلك ، أو عاطلين ولكن العمل قريب منهم ، أو نصف متعلمين غير أن أطفالهم سوف يلتحقون بالكلية ، أو من المواليد بالخارج ولكن أطفالهم المولودين فى أمريكا سوف يرثون التقليد بكل مداه الواسع . بل يمكن القول بأن التقليد استمتع بعد عام ١٩١٩ بشمس هندية لمدة عقد من الزمان . حين تحدث الرئيس هوفر فى خطابه الافتتاحى يوم ٤ مارس من عام ١٩٢٩ ليعلن للعالم أن مشكلة الفقر قد حلت فى الولايات المتحدة كان يشير إلى تحقيق ذلك التقليد .

ولم تمض شهور ثمانية على ذلك التصريح الحماسى حتى وقعت الولايات المتحدة فى قبضة أعظم كساد عرفه تاريخها . كان العاطلون يعدون بالملايين ، وتحول الأثرياء إلى معدمين مفلسين ، وظل ثلث الطاقة الانتاجية دون استغلال ، وصار ما بين ربع وثلث السكان يعتمدون على الاعانات العامة ، ووقع عشرات الألوف من الفلاحين فى أيدى الدائنين ، وأرغمت مئات المصارف على إغلاق أبوابها ، واضطرت البلاد إلى خفض قيمة الدولار المستند إلى أعظم إحتياطى ذهبى فى تاريخ العالم وإلى فصله عن معيار الذهب .

فى ذلك اليوم البالغ الأهمية الذى تسلم فيه الرئيس فرنكلين روزفلت مهام منصبه لم يعد فى الامكان الإدعاء بأن التقليد الأمريكى حتى فى نظر أهل الولايات المتحدة يشغل المركز السامى الذى احتله حين باشر الرئيس هوفر مهمته مليئا بالثقة . كانت تيارات مذهبية تهب من الشرق والغرب وبعضها بارد وقاس . وإذا كانت السنوات التالية أثبتت صدق عبارة آدم سميث من أن « هناك قدراً من الخراب فى كل شعب » فإن فترات الرآسة الثلاث — وهذه الحقيقة وحدها كانت تطورا مزعجا للتقليد — بدأت عصراً جديداً فى التاريخ الأمريكى ، وأرغمت الناس على أن يوجهوا إلى أنفسهم أسئلة جديدة ، بل واضطرتهم إلى الإجابة على بعض الأسئلة القديمة بطريقة جديدة . أصبح الأمريكيون ، على الأقل بصورة جزئية وبالألم يحز فى نفوسهم ، يدركون أنهم مازالوا بالرغم من كل قوتهم مجرد وحدة فى كلٍّ أكبر وأشد تعقيداً لا يستطيعون أن يعزلوا أنفسهم عن مصيره . وظهر معنى جديد لكاليفورنيا وأوريجون ووشنطن حين أكدت بيرل هاربور مغزى كون أمريكا من عظاوات المحيط الهادى ، ووضح نذير لا يحتمل الخطأ فى تقدير خطورته حين تبين بجلاء بعد سقوط فرنسا أن احتلال دولة معادية لشمالى إفريقية قد يهدد سلامة الولايات المتحدة من البحر الكاريبى إلى شمال الأطلسى . والكثير مما كان معتبرا حتى ذلك الحين مجرد بلاغة خطابية صار بين يوم وليلة حقيقة صلدة لأن التهديد اليابانى ربط مصير الولايات المتحدة بمصير استراليا وكندا كما ربطه التهديد الألمانى

بعصير كندا وبريطانيا العظمى ومستقبل الشرق الأوسط . إن ثمت معنى فى القول بأن الولايات المتحدة اصطدمت خلال خطوها السريع الكبير بالحرب العالمية الأولى ، ونادراً ما مرت بها لحظة شعر فيها المواطنون الأمريكيون أن عليهم أن يعيدوا التفكير فى المبادئ القديمة التى حققوا بها رخاءهم فى القرن الأول ونصف القرن من وجودهم كجماعة قومية مستقلة .

ولكن الفترة من ٤ مارس ١٩٣٣ حتى كارثة بيرل هاربور هزت الولايات المتحدة من أسسها . لم يعد واضحا أن أعداءها يوجهون ضرباتهم إلى الدعائم التى تقوم عليها حضارتها فحسب ، بل الأهم من ذلك كانت الحقائق التى بدت وأولها أن تنظيم الانتعاش والنصر سوف يتطلب تعبئة كلية لجميع مواردها من أجل سلامتها بما لا يقل عن سلامة حلفائها . ولكن وضح من جهة أخرى أن صلاحية التقليد الأمريكى سوف تتعرض للاختبار لا على يد النصر بقدر ما تختبرها الأغراض التى يتعين على النصر أن يحققها عند إتمامه . لا ريب أن ملايين الرجال والنساء الذين انخرطوا فى سلك الخدمة العسكرية نتيجة دخول أمريكا فى الحرب العالمية الثانية لم يتجاوز تفكيرهم الأعداء الأقوياء الذين يتوقف على إنزال الهزيمة بهم استقلال الولايات المتحدة فى المستقبل . ولكن بين هذه الملايين ، وبما لا يقل عن ذلك فى صفوف الشباب ، عرضت للكثيرين أسئلة حيوية تتطلب الإجابة . كان أغلبهم يملؤهم الولاء الحماسى للحكم الأمريكى ولكن معظمهم أيضا كانوا سيصرون على أن الوقت قد حان لتحقيق ذلك الحلم . لقد شبوا ونفير الوعود الأمريكية يرن فى آذانهم ، وشاهدوا فى السنوات التالية لعام ١٩٢٩ من الشقاء والألم والفقر ما تناقض بشكل غريب مع التقليد الذى حدثوهم عنه .

إن السنوات الممتدة من الكساد العظيم حتى تحرير الحياة المتحضرة من تهديد النازية والعسكرية اليابانية سنوات ربما كان الأمريكيون خلالها أكثر اضطرابا فى تفكيرهم منهم فى أى وقت منذ الحرب الأهلية . وبالرغم من أن فرنكلين روزفلت وأنصاره جاهدوا كى يتفق التقليد التاريخى مع الأحوال الجديدة التى واجهوها

فإن العـــداء الذى اصطدم به كان أبعد غوراً مما لقى أى رئيس فى السنوات الخمس والسبعين الثانية من تاريخ الجمهورية . اتخذت الملكية فى كل مكان موقف الدفاع ، واشتدت الكراهية للاتحاد السوفيتى ، وراح رجال الأعمال يؤكدون أن المغامرة والأمان مثل من المثل المتعارضة ، وسعوا إلى إثبات أنه حيث تضطلع الحكومة الإتحادية بالمبادأة بدلا من تركها فى الأيدى الخاصة فلا مفر من انهيار المدنية . وبحث الرجل الصغير فى كل مكان عن مهرب من المشكلات التى ألفاها خارج قوته على حلها . فأحيانا احتمى فى أشكال من البعث الدينى حاولت — مثل حركة بوشمان — تحريره من الخوف عن طريق بعث الثقة بالنفس . وأحيانا بدأ يشك فى سلامة الفكرة الديمقراطية واتبع بحماس إنجيل رجال مثل الأب كولن الذى تحدث إليه حقاً بعبارات كانت من الناحية الشكلية كاثوليكية ولكنها تقوم على اتجاه لا يسهل تمييزه عن اتجاه الهتلرية . وأصبحت السينما مع مجموعة من المجلات التى سعت موادها إلى حجب العالم الحقيقى ، وسيلة حيوية للتعزية . وبالرغم من أن مأساة الاضطهاد فى أكثر من نصف أوربا جاءت إلى أمريكا بأفواج من اللاجئين بعضهم من أشهر وأبرز رجال الفكر فى العالم القديم مثل إينشتين وتوماس مان ، فإن معظم الأمريكيين — باستثناء فئة صغيرة نسبيا من الأحرار — كانوا مشغولين بمشكلاتهم الداخلية إلى الدرجة التى جعلتهم لا يقدرون مدى المأساة ، وحتى الأحرار انقسموا ، فأصر كثيرون بقوة على أن أمريكا تستطيع أن تحسن مساعدة أوربا بتحقيق الديموقراطية فى الداخل بينما قال غيرهم إنه لا اختلاف حقيقى فى الجوهر بين غايات هتلر واليابان وبين أهداف الاتحاد السوفيتى . وحين فضل قادة أوربا فيما بين سبتمبر ١٩٣٩ ومايو ١٩٤٠ المناورات من أجل المركز الذى يصبون إليه على الحرب على نطاق سنة ١٩١٤ أخذ ينمو الظن بأن الحرب فى الخارج ليست أكثر من مرحلة جديدة فى السياسة الشريرة التى انتهجتها الدول الكبرى بالعالم القديم وليس لأمريكا أن تهتم بها .

أخذت الصورة تتغير بعد غزو هتلر الأراضى الواطئة وهولنده وفرنسا . وبدأ منظر انجلترا فى المحنة وحدها فى صيف ١٩٤٠ يوحى بأن بين التقليد الأمريكى والدكتاتورية النازية تناقضاً يصعب إغفاله . وهذا الإيحاء زاد من قوته هجوم هتلر

على الإتحاد السوفيتى حتى أصبح جزءاً حيا من أفكار كل مواطن بعد بيرل‌هاربور والفتوح الساحقة التى قامت بها القوات اليابانيـــة . حينذاك كان هناك قليل من الأمريكيين عجزوا عن أن يفهموا مدى التحدى لـكل ما تمثله الولايات المتحدة وكيف أن من الضرورى إنزال الهزيمة الحاسمة بالنازية فى كل صورها من أوربية وأسيوية إذا كان للحلم الأمريكى أن يصبح حقيقيا فى المستقبل .

والإدراك بعمق التحدى لم يتضمن حقا الإجابة على السؤال الرئيسى أى مدى الحيوية التى ما زال التقليد الأمريكى محتفظا بها . لقد أبدت الولايات المتحدة شجاعة وابتكارا وعزما فى رسم الخطط ومهارة فى التنفيذ ، وسارت بالاشتراك مع حلفائها إلى الأمام خطوة بعد خطوة صوب نصر لا بد وأن يكون ساحقا ؛ ولـكنها كانت حريصة أن توجه إلى نفسها السؤال الذى تشتد الحاجة إلى توجيهه دون أن تحاول الإجابة عليه . لا شك أن جميع قادتها من رئيس الجمهورية فما دونه كانوا يحترمون أفكار الديموقراطية الحرة ، ولا شك كذلك أن الولايات المتحدة أظهرت قوة لا تبارى فى تنظيم مواردها من أجل النضال ، وتوجه شبابها إلى موعد مع القدر فى شجاعة عالية إذا كان لها ما يساويها فى بريطانيا والاتحاد السوفيتى وفى قوة الاحتمال الباهرة التى أبدتها الصين نصف المسلحة فإنها لم تجد ما يفوقها فى أى بلد آخر . إلا أنه بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من الأمريكيين لم تكن الحرب تجديدا للإيمان بالتقليد التاريخى . كان شعورهم شعور الإعتقاد بأنه يجب تحطيم العدو ، ولـكنه شعور من الشك والتردد بشأن نتيجة الهزيمة . وكان ثمة شعور يسير بين الذين يرسمون خطط الحرب بأنهم كانوا مشتبكين فى حملة صليبية من أجل تجديد التقليد الأمريكى . وعلى العكس كان من الصعب أحياناً ألا نشك فيما إذا كانوا متأكدين أنه ينبغى تجديده. وكما يحدث دائما خلال أزمة فإنهم أظهروا قوة على الابتكار على نطاق من المشروع أن نجعله معادلا للعبقرية ، وكما يحدث دائما فإنهم شنوا الحرب كى يكسبوها . إنهم لم يشتركوا فى آلامها لأية غاية أخرى خلاف الهزيمة الـكاملة لخصومهم .

ولكنهم لم يناقشوا الغايات التى كانوا يقاتلون من أجلها ولا وسائل تحقيقها .
إنهم لم يستيقظوا فجأة على شعور متجدد من روعة الحلم الأمريكى . فقبل أن يدخلوا الحرب حقا تحدث الرئيس روزفلت ببلاغة مؤثرة عن الحريات الأربع وأوضح بصورة قاطعة أن فى الإمكان تحقيقها خلال جيلنا هذا . وألقى المسترهنرى ولاس نائب رئيس الجمهورية أثناء فترة رآسته التالية سلسلة من الخطب موضوعها الرئيسى الحاجة الماسة إلى استخدام النصر على الدكتاتورية بحيث يصبح العصر التالى ما أطلق عليه عبارة «قرن الرجل العادى» ، ولكن الشىء الذى له مغزاه بالنسبة إلى الأثر الناجم من تفكير ولاس أن حزبه لم يعد تعيينه وحل محله سياسى محترف كان من غير المحتمل أن يزعج الناخب الذى لم يكن يميل إلى المسائل غير المريحة التى تعرض عليه .

ولذلك ليس من العدالة أن أقول إن الأمريكيين رفضوا أن يسألوا أنفسهم ما إذا كانت المبادىء التاريخية التى تضمنها تقليدهم يمكن جعلها تلائم بيئة عصر جديد . كان لديهم — ولا يقل عن ذلك الرئيس روزفلت — شعور بأن قوتهم كبيرة جدا وأن التأثير الذى يمكن أن يحدثوه أعظم فى الجيل مما يقدر عليه أى شعب آخر . وكان لديهم فى . الحالتين المبرر الكافى . ولكن كان هناك عدد قليل من المفكرين راغبين فى التساؤل عن الهدف الذى من أجله تستخدم قوتهم ، وكذلك عن تأثيرهم على حضارة مازالت فى البوتقة . وفى نظر الشخص الخارجى عنهم كان رفض التساؤل أمراً من الصعب ربطه بصفة الإجابات التى كانوا يشكون أنهم سوف يلقونها ، لأنهم كانوا على وعى كامل لا بمظاهر التوتر المتزايد فى مجتمعنا فحسب بل وكانوا يدركون أيضا أنه حين تتطلب هذه المظاهر صيغا جديدة كما يحدث أثناء فترة أزمة فانه يتعين علينا أن ننتقل من بعض المثاليات الاجتماعية إلى غيرها وأن نوفق بين الأخيرة وشكل التنظيم الإقتصادى والسياسى الذى يثبت عدم صلاحيته للعصر وخطورته . وهذا الأمر لا تقل صحته اليوم عما كان عليه الحال حين كان لنكولن يبنى دعواه فى المطالبة بولاء جميع الناس المتحضرين منذ تسعين عاما تقريبا . إن البيت المنقسم على نفسه

لا يمكن أن يظل قائما . والمشكلة التى يبدو لى اليوم أن الحفاظ على التقليد الأمريكى يعملون على تجنبها تنحصر فيما إذا كان هناك ذلك الإنقسام والنتيجة التى تترتب عليه إذا كان موجوداً . وإلى أن يجاب على ذلك السؤال بالثقة التى تميز بها چيفرسون وأتباعه فيبدو من المؤكد تماما أن التقليد الأمريكى العريق ، بالرغم من كل الأعمال المجيدة التى حققها ، سوف ينظر إليه نظرة قوامها عدم التأكد بل والشك من جانب الذين ينبغى أن يستفيدوا منه .

الفصل الثانى

روح أمريكا

- ١ -

يتصف الأمريكيون بالتفاءل وروح المودة وحب البحث والاستطلاع والتفكير العملى . فيصعب عليهم الاعتقاد بأن التقدم ليس أمراً محتوما ، ولا يتقبلون فى يسر الحق فى التحفظ والسرية إذ يفترضون أنه إذا تقابل شخصان فمن الطبيعى أن يتبادلا خبراتهما . وهم لا يثقون بالنظرية ويعلقون الأهمية على المقدرة التى تطبق بها فكرة على حل لمشكلة . وهم يحتفظون باحترامهم الرفيع لرجال من طراز فورد أكثر منه لأمثال تيودور ريتشاردز . وهذا هو السبب فى النظر إلى بنيامين فرنكلين على أنه الرمز الأسمى للروح الأمريكية لأنه نجح فى كل ما حاول عمله . كان يقابل الملوك والساسة ورجال التجارة والعمال على قدم المساواة ، وكان يريد أن يتعرف ماهية كل شىء واجهه وإذا أمكن سببه أيضاً . وإذا كان من الشخصيات البارزة فى تاريخ علم الطبيعة فإن إختراعه موقد الطبخ مكنه كثيرا من تحسين مستوى الطيبات المنزلية فى عصره . لم يكن فيه شىء من التباعد الذى تميز به وشنطن، ولا من الروح الحزينة والنهائية التى جعلت من لنكولن أنموذجا لا يمثل الأمريكيين . ففى عمق نظرته وحكمته وإخلاصه فى أن يخلق من العالم ما تريد أن تراه عليه كل نفس رقيقة سمحة — فى هذه الصفات كلها يبدو فرنكلين خلاصة رائعة للفكرة الأمريكية عن المواطن الفاضل .

ومنذ بدء تاريخ أمريكا تقريبا تعود الأمريكى أن يجعل نظرته تشمل أفقا فسيحا مما أغراه على التسوية بين الكبر والعظمة . لقد جعله ذلك شخصا قلقا وشغوفا بالعمل أكثر منه بالحياة ، ذلك أنه إلى عهد قريب جدا كان يجد الحدود واحداً تلو الآخر وكانت حيويته المثيرة للدهشة سر غزوه للقارة . ومجرد

وجود هذه المساحة الفسيحة التى أصبح فى الحقيقة الوريث لها بغير منازع بعد أن أتم چيفرسون شراء لويزيانا ، جعله ينظر إلى المشكلات من زاوية مختلفة جدا عن نظرة أجداده الأوربيين . فلم يجد بنفسه حاجة أبداً إلى الافتراض كما فعل الإنجليز بأن فى الحياة مراكز مقدرة له وأخرى تعتبر بداهة خارج متناول يده ، ولم يتقبل أبداً المثل الأعلى الذى اعتنقه الفرنسى من حيث ضرورة الوصول إلى مركز ممتاز فى سن مبكرة حتى يستطيع أن يخصص وقته ، والأفضل أن يكون ذلك فى مكان ريفى ، لزراعة حديقته ، ولم يفرض عليه التاريخ أبداً مأساة المواطن الألمانى الذى لا ينتمى إلى طبقة النبلاء والذى يدرك أن الوظائف العليا فى السياسة أو الجيش قد تكون موصدة فى وجهه ، وكذلك لم يعان التناقض البشرى فى أن يكون نبيلا تعوزه الوسائل كى يعيش عيشة النبلاء أو تاجراً أو فلاحاً يجد إذا كان ناجحاً أن لا أمل له فى الوصول إلى هذه الدوائر من الحياة الاجتماعية مما قد تصبو إليها نفسه .

إن القول بانتماء الأمريكى إلى جيل عصامى قول ينطوى على معنى حقيقى ، فالأمريكى يدرك أن فى استطاعته البدء من جديد والصعود إلى أعلى دون خوف من حاجز وضعه التاريخ فى الطريق وظنى أن من الصحيح بوجه عام القول بأن الأمريكيين الذين إخفاقهم فى إشباع مطالب الروح مؤكد هم أولئك الذين يتوقعون من الماضى أن يقرر المستقبل لهم ، ومن الصعب أن نفكر فى مثل أشد كمالا لهذه الحقيقة مما نلقاه فى هنرى آدامز . لقد كان عقله من الطراز الأول وتربيته بعيدة الغور ، ويعرف كل من يستأهل المعرفة فى أمريكا ، وخبرته وثيقة بالقوى التى تشكل حضارة عصره . ولكن ما من شخص يقرأ تاريخ حياة الرجل كما كتبه بنفسه دون أن يساوره الاعتقاد بأنه منذ عودة آدامز مع والده بعد الحرب الأهلية كان رجلا بالغ التعاسة . لم تكن تلك التعاسة وليدة المأساة الشخصية فى حياته الزوجية فقط. إن بعض الأشياء التى عملها كان يمكن أن تجعله يؤمن بأن شخصيته تحققت . ومن الواضح أنه اكتسب لنفسه منزلة هامة بين الطلاب أثناء دراسته فى جامعة هارفارد . والكتب التى وضعها قبل أن يتخطى أوسط العمر أكسبته الاعتراف والتقدير مع الإعجاب من

جانب من توافرت لديهم مقدرة الحكم عليه . وكان له أصدقاء من ذوى الصفات البارزة حبوه حبا ثابتا . وحيثما سمع عن الجمال فى الطبيعة والفن والأدب كان يذهب لمشاهدته . وحين استقر به المقام فى واشنطن لم يسع إلى التعرف به غير العدد اليسير من الزوار البارزين . إلا ان أن جميع الجهود شبه العلمية التى بذلها للخلاص من اليأس لم تستطع أن تخفى ما يعتمل فى نفسه من شعور قاتم بالإخفاق .

كان هنرى جيمس مثل ثلاثة أجيال من أسرته قبله ، يحن إلى أن يلعب دوراً بارزاً على مسرح السياسة ولكنه لم يستطع الانحناء من أجل إدراك النصر إذ كان فى طبعه ماجعله يسعى إلى الحصول على سعف النخل دون أن يلوثه التراب وإذ آثر إخفاء طموحه الحماسى بالقيام بدور المتفرج الذى لايفكر فى النزول إلى حلبة الصراع لهذا لم يطلب إليه أحد النزول إلى المعركة . لقد أمضى السنوات الحاسمة من حياته يستعد لقيادة جيش عجز عن تجنيده بفعل صفات معينة تضمنتها طبيعته . ورأى رجالا دونه مثل هنرى كابوت لودج مثلا وجون هاى يسيرون إلى القدمة على المسرح السياسى ، ولم يستطع إقناع نفسه باتخاذ الخطوات التى ربما نظمت له الفرص التى رغب فيها . لا يرجع السبب إلى أن طبيعته أثمن من أن يفعل هذا ، ولكن العلة فى ظنى خوفه من الفشل إذا أقدم على المحاولة ، كما أنه افترض من جهة أخرى أن رجلا فى مركزه وصلاحيته يمكن أن يسعى إليه مواطنوه . إن مثل آدامز فى الولايات المتحدة كان الصورة المعنوية المعادلة لسيسل ستانلى فى انجلترا . إن ما لم يره وربما ما لم يفهمه ، أن الروح الأمريكية ترغم المواطن على أن يبنى لنفسه السلم الذى يتمكن من الصعود عليه فى عالم السياسة . ولذلك فعند ما أحس بالفشل المتولد أساسا من افتقاره إلى النظرة التاريخية العميقة وهو المؤرخ الكبير ، أمضى جيلا من حياته ليبنى من نفسه وعلى سبيل التعويض أسطورة ووضع تلك الكتب التى ألفها فى سنيه الأخيرة والتى نلقى فى الحقيقة وراء مظهرها التاريخى تبريراً لفشله ، كما أن أجزاء كبيرة منها مجرد وسيلة لإخفاء احتقاره المشوب بالغضب لعصر لم يطلب منه أن يتولى قيادته .

من المهم أن نوازن بين الصور الرمزية للروح الأمريكية الممثلة فى فرنكلين فى القرن الثامن عشر وبين الحكم الذى أصدره عليها ضمنا هنرى آدامز فى التاسع عشر ؟ ولكن ذلك معناه أن نضحى بالمشكلات الأكبر فى هذا الموضوع من أجل مثل واحد يعتبر مخالفا . ويمكن تلخيص الحجة بأن ما يتراءى — حين تكونت دولة الولايات المتحدة من الولايات الثلاث عشرة — هو الاعتقاد بأن الرجل الناجح هو السعيد ، وأن معيار النجاح إما أنه المعيار النفعى للقوة والذى يقاس بسهولة بمقدار ما يحققه من ثراء ونفوذ وإما أنه مايراه زملاء المرء من أنه حقق النجاح . فجون جاكوب آستور وآبوت لورنس سعيدان لأن نجاحهما بالمعنى المادى لايحتمل الإنكار تماما كما أن هنرى وادزورث لونجفلو وبرونسون آلكوت سعيدان لأن العالم المحيط بهما يمنحهما تاج العبقرية الذى كانا يصبوان إليه ، ولهذا فالأمريكى السعيد فى ظنى هو الذى يعد ناجحاً فى البيئة التى يتحرك داخل حدودها . ولذلك فحين يقرأ المرء تاريخ نيو انجلند فى أوائل القرن التاسع عشر فإن الآنسة بيبودى قد تكون سعيدة فى مكتبتها الصغيرة لأن أصدقاءها يعتبرون رأيها بنفس الأهمية التى ينظر بها أصحاب صناعة النسيج فى نيو إنجلند إلى الحكم الذى يصدره آبوت لورنس. إن الأسس الحيوية فى الحياة الأمريكية إما أنها تكوين الثروة أو بناء الشهرة مما يجعلك موضع التقدير فى نظر جيرانك . ومن أجل أى من هذين الغرضين من المهم أن تعمل شيئاً بنفسك ، وكان ذلك هو الرأى السائد إلى عصر كالذى تولى فيه الجنرال جرانت رئاسة الجمهورية . ولذلك ليس من السهل على أغلبية معاصريه أن يفهموا كيف يمكن أن يكون تورو سعيداً ، ويكادون يحسون الحاجة إلى ما أكده إمرسون، وهو رجل ناجح وذو بصر فى الوقت نفسه — من أن تلك الروح الميالة إلى التأمل والتفكير فى والدن تجد الفرحة كبيرة فى ملاحظة الطبيعة بحيث أن رضاءه فى حد ذاته نوع من العمل . إذا لم يكن ثمة وجود من الوجهة العملية لشىء مادى يقوم به برونسون آلكوت ليبعد الفقر عن داره ، فإنه بالرغم من ذلك ناجح لأنه نشيط بدرجة لا يصدقها العقل فى الكشف كل أسبوعين تقريباً عن سر الكون .

إن أية محاولة لفهم طبيعة الروح الأمريكية لا يمكن أن تكون كاملة إذا لم تؤكد أن العمل من جوهرها . فالأمريكيون دائماً يعملون شيئا أو يحاولون شيئا ، وأكثر من هذا فهم يسعون دائما إلى أقصر الطرق لعمل الأشياء ، وإلى جانب هذا السعى نجد أولا الرغبة فى الكشف عن أقصر طريق يسير فيه المرء ثم الكشف عنه ثانية حتى يسير فيه الآخرون . وأظن مما له مغزى أنه حتى عهد الازدهار الذى بلغته نيو انجلند فى النصف الأول من القرن التاسع عشر كان الشيء المهم فى الحياة الأمريكية ذلك الذى يتصل بمسرات الحياة العملية كالعمارة مثلا أو بكتابات رجال الفقه وأصحاب المنشورات السياسية . إن اللاهوت الأمريكى فى عهده المبكر مقنع أحياناً وربما له قوة عاطفية تبعث على الدهشة كما فى حالة جوناتان إدوردز ، ولكنه نادرا ما كان أدبا إبداعياً . وحتى عهد ازدهار نيوإنجلند المشار إليه يندر أن يزيد الأدب الرفيع عن كونه الذى يضطر الدارس إلى مطالعته ليرى كيف تحول الشتاء إلى ذلك الربيع . أما علوم القانون والسياسة وإلى حد ما الاقتصاد فمختلفة منذ البداية ، ففيها يدرك الكاتب أن الكلمة هى الفعل وسواء أكان توماس هوكر أو كوتون مازر فى قرن أم چون وايز أو توماس چيفرسون فى القرن التالى فهو يكتب ليجعل الناس تتصرف وفق طريقة معينة بدلا من غيرها ، ذلك لأن هدفه ليس ملء مساحة من الفراغ وإنما دفع الجيل الذى يعاصره فى الاتجاه الذى يؤيده الكاتب .

ومن هنا نشعر بما يغرى على القول بأن الروح الأمريكية فى معالمها الرئيسية كانت إلى عهد قريب جداً جوهر بيوريتانية اتخذت الطابع الدنيوى . فاحترام الجهد ، والاعتقاد بأن النجاح يلازمه ، والنظر إلى الإخفاق على أنه وليد نقص فى الخلق وتبرير الثروة على أنها وكالة يتوقع الجمهور منها الوفاء بالالتزامات الملقاة على عاتقها ، وعدم الميل إلى المذاهب الراديكالية بوصفها صورة اجتماعية من فلسفة تناقص الشرائع والخوف من أية أفكار قد تهدد وحدة الجمهورية — كل هذه يبدو أنها لا تعدو قليلا كونها تكييفاً للمبادىء الدينية المألوفة فى القرن السابع عشر . ولما كان المذهب البيوريتانى مطبقاً فى مجتمع ما يزال حتى اليوم يقوم على نزعة الإرتياد فمن الطبيعى

إذن ، بازدياد صبغته الدنيوية ، أن يمتـــدح الصفات التى تمكن الرائد من إدراك النجاح . فالمخاطرة ، والشجاعة ، والقدرة على التنظيم ، وأكثر من هذا موهبة القيادة التى تفرض القانون والنظام فى مجتمع يكافح ظروفا بدائية من طبيعية أو اجتماعية ـ كل هذه عناصر فى خلق الفرد تشكل الروح الأمريكية . إنها ليست روحا تتقبل بسهولة فكرة نظام الدرجات الاجتماعيـة ، أو روح حضارة تؤكد كمال التكنيك أو تهذيب الخلق ؛ ولكنها روح تعنى بتمام أداء العمل وتشكيل الأدوات اللازمة لذلك والتعبير بجفاء عما يجب أن يقال أكثر مما تعنى بالأسلوب أو العرف سواء فى الصنعة أو الحديث .

ولما كانت الروح الأمريكية تعمل فى بيئة دائمة التغير فإنها تؤكد أهمية القدرة على الابتداع والتكيف . إنها تحترم الماضى ، وإن الاحترام شبه الدينى الطابع الذى ينظر به أهل الولايات المتحدة إلى الماضى لا نجد له مثلا إلا فى عدد قليل من البلدان . غير أن هذا الاحترام لا يتفق تماماً مع حق كل جيل فى إجراء التجارب على نفسه، وأكثر من هذا مع حق كل فرد فى أن يعقد الصفقة الخاصة به مع القدر ونظراً لأن أمريكا كانت بلد المغامرين فقد جعلت روحها للاعتماد على النفس قيمـة عالية ولدت بدورها الضجر من التقييد وبالتالى الافتراض بأنه كلما قل التدخل فى أعمال الفرد كمل الاحتمال بأنه سيكون رجلا كاملا . وليس من الخيال فى شىء بالكلية أن نقول إن الفردية الأمريكية هى الشكل الدنيوى للبيوريتانية الأمريكية ، ذلك الشكل الذى يدع الفرد وجها لوجه أمام مصيره كما جعلته الأشكال الأساسية للبيوريتانية وجها لوجه أمام الله . وفضلا عن ذلك فكلما شاهد الأمريكى ازدياد متانة النسيج وضمان النجاح ونمو القدرة على الابتكار، أخذ يفضل مثل هذا النوع من الخبرة ويرى ، وربما بغير وعى تقريباً ، أن الدولة التى تضطلع بأكثر من تنظيم الدفاع الخارجى وقوات الأمن الداخلى دولة تتجاوز حدود وظيفتها الأصلية السليمة. إن فردية المستر هربرت هوفر « الخشنة » ذات صلات وثيقة بالأسس التى تقوم عليها الروح الأمريكية . إنها تفترض صلاحية النظام الاجتماعى الذى إذا ما استبعدنا العنف، يسمح للمرء بأن يحصل من وراء جهوده وقواه على أكبر فائدة يقدر عليها . وهى تحث

على نوع مفهوم تماما على ضوء التاريخ الأمريكى على أن المرء يحسن الإستفادة من نفسه حين تتوافر له الحرية كى يتعلم بطريق الخبرة تلك الأفعال التى يعظم معها احتمال إدراك النجاح . من المؤكد أنه يحتمل أن يكون الإنسان خير حكم على مصالحه الذاتية ، ومن المشكوك فيه أن يتم أداء العمل الذى تقوم به الحكومة بالنيابة عن المواطن على نحو طيب كما لو تولاه بنفسه . والحق ، إن الروح الأمريكية تنظر بعين الريبة إلى الحكومة لأنها من جهة تربط بين الأخيرة وبين الاستبداد والقسر ، كما تكن من جهة أخرى إحتراما عميقا للحرية التى تقصد بها السماح لكل فرد بالسير فى الطريق الذى يرتضيه وحيث تتدخل الحكومة فالروح الأمريكية تشك فيما إذا كان تأثير التدخل الحكومى يقع على الجميع بالتساوى. إن ظل الحكومة ما زال ماثلا أمام أعين عدد كبير من الأمريكيين على أنه يمثل الملكيات الأوربية فى القرن الثامن عشر ؛ والجيل الذى علمه بين أن أفضل الحكومات ما قللت من الحكم جيل خلف وراءه أثراً بالغا على الروح الأمريكية . ليس من المؤكد تماما أن المواطن الذى يحتاج المساعدة يصلح حقا لأن تقدم إليه ، بل وأن يكون عضوا فى شعب ذى سيادة . وهذه الروح تخشى أنه بمجرد أن توضع الحواجز فى طريق واحد فسوف توصد جميع الطرق ، كما تشك فى رجل السياسة بشكل يقرب من شك المؤلف فى الناقد لأن السياسى يكسب عيشه على حساب الجمهور بسبب إخفاقه فى كسب العيش فى مكان آخر ، كما أن الناقد هو الشخص الذى يهاجم الصورة بسبب عجزه عن رسمها أو السيمفونية لأنه لا يستطيع تأليفها أو الكتاب الذى لا يتمكن من كتابته.

على هذا الأساس قامت الروح الأمريكية ، ومن هذه المصادر وجدت عاداتها فى الحياة ، من واعية وغير واعية . أن الكثير مما لا يشعر به الأمريكيون عادة يرجع إلى البيئة الخاصة التى تطورت فيها الولايات المتحدة حتى بلغت دور النضوج . وما كان فى وسعها أن تصل إلى ما هى عليه لو لا تلك المساحات غير المحدودة من الأرض والتى يتعين ارتيادها وكشفها ، ولو لا ذلك التحرر الفعلى من خطر العدوان

الجدى منذ عصر شاتام إلى عصر الطائرة . كذلك لا ينبغى أن نغفل الدور الهائل الذى لعبه فى تكوينها إنهيار إقتصاد المزرعة الكبيرة القائم على الرق ثم تحطيمه نهائياً فى حرب أهلية رهيبة . وترتب على ذلك الحدث المزدوج ثورة لعلها أبعد غوراً من أية ثورة أخرى فى القرن التاسع عشر ؛ ذلك أن الجنوب عاد إلى الانتعاش بمجرد قبوله أن يكون من الوجهة العملية مستعمرة يستغلها الشمال كثيراً حسب إرادته. هذا من جهة ومن جهة أخرى برز من الحرب الأهلية ما دعاه ميرداد « الورطة الأمريكية » إذ ما أن إضطر الجنوب بحكم القوة إلى نبذ « نظامه الخاص » حتى تخلى بذلك التنازل عن إيمانه بالمساواة. فلكى يبقى الزنجى فى «موضعه» اضطر، وربما بغير فهم كامل ، إلى إبقاء الرجل الأبيض الفقير فى مكانه أيضاً ، ولكى يفعل ذلك بصورة فعالة تعين عليه الوقوف فى وجه تلك المؤثرات الوافدة من الشمال والساعية إلى حماية العامل من إستغلال رب العمل . ليس معنى ذلك أن الجنوب أصبح فى ظل الظروف العادية تابعاً ثابتاً للحزب الديموقراطى وإنما معناه أيضاً أنه كلما عظمت الصفة الاجتماعية للتشريع فى الشمال زاد الاحتمال بأن يجتذب الجنوب رؤوس الأموال للاستثمار لمجرد الوعد بالحماية من التشريعات الاجتماعية . إن إنتقام الجنوب لهزيمته فى الحرب الأهلية لم يقتصر على إنزال العقاب بالزنجى بفرض مركز منحط عليه وإنما بفرض مركز يقرب منه على البيض الفقراء . إذ مهما كان وجه النشاط السياسى سواء فى التعليم أو الصحة العامة أو قوانين المصانع أو الخدمات العامة فإن مستوى الجنوب دونه فى الشمال أو الغرب ، الأمر الذى يجعله يفقد الزنجى القادر والذى يحترم نفسه فيها جر إلى الشمال ، بينما العامل الأبيض الذى يبقى تعوزه المهارة أو الكفاية اللتين يتصف بهما زميله من أهل الشمال . وفقر الأبيض من سكان الجنوب يصحبه التصميم على ألا يكون فى طبقة واحدة مع الزنجى وبالتالى يصحبه عداء للأخير، الأمر الذى نجم عنه إنقسام أساسه إختلاف الجنس بينما مصلحة الطرفين الاقتصادية تستلزم إتحادهما . وهكذا يسرى فى الروح الأمريكية ذلك السم من انعدام المساواة والذى ندر أن عجزت أشد العناصر رجعية بالولايات المتحدة عن الاستفادة منه.

ومن المهم أن نلاحظ أن ما أطلقت عليه عبارة صبغ البيوريتانية بالصبغة الدنيوية لم يخلق حتى الآن فى الولايات المتحدة فلسفة محلية حقيقية . فالى عهد كالحرب العالمية الأولى كانت أمريكا تستمد الإلهام من أوربا أكثر منه من الولايات المتحدة ؛ وبينما يصح القول بأنه حتى وفاة إمرسون ظلت إبتكارية نيو إنجلند ظاهرة وإن أمريكا أنتجت فى شخص كل من هو يتمان وملفيل إثنين من عمالقة الأدب فى القرن التاسع عشر ، فمن الصحيح كذلك القول بأن مركز الفنان الخلاق خلال هذه الفترة كان صعبا وأحيانا مفجعا . فمن الناحية الثقافية لم يكن الأمريكى على ثقة من نفسه إلى أن انتهت حركة التوسع الاستعمارى بنشوب الحرب العالمية الأولى ، كما لم يكن على تمام الاقتناع بأن الأدب حرفة مشروعة مثل الفلاحة أو البناء أو الهندسة ، وإنما مال إلى النظر إلى الكاتب أو الرسام أو النحات أو الموسيقى على أنه شخص يصلح لكى يملأ أوقات فراغه القليلة حين يستريح من العناء الذى يبذله فى غزو القارة ، بل إنه لم يكن واثقا أن الفنون ليست مظهراً من مظاهر الحياة تعنى به النساء اللواتى يتوافر لهن الوقت. وهذا الاتجاه يفسر فى رأيى السبب الذى من أجله ظل الفنان فى أمريكا حتى الأمس تقريبا هيابا بحيث وجد الرجل العملى من الصعب أن يأخذه مأخذ الجد . لقد كان الدليل على أن الحضارة الجديدة بلغت المرحلة التى عندها تستطيع توجيه الاهتمام إلى الثقافة . أما بالنسبة إلى رجل الأعمال القوى فى وول ستريت أو مين ستريت فقد كان الفنان دائما شخصا غامضاً نوعاً ، فان كان من طراز ادجار آلان بو بدا غير أمريكى ، وإن كان من قبيل فينيمور كوبر أو وشنطن ارفنج فشهرته إلى حد كبير إنعكاس لما يقال إنه رأى الأوربيين فيه . يمكن أن نغفر الكثير لأوليفر وندل هولمز الأكبر إذ كان استاذاً معروفاً فى كلية الطب بجامعة هارفارد ، وكان جيمس رسل لوول وفرانسيس باركمان وجون لوثروب موتلى يشغلون مراكز جعلتهم لا يعتمدون كلية على الفنون ، ولكن أحين إتفق ذلك الوضع المستقل كما فى حالة هوثورن أو هوولز فوظيفة صغيرة فى السلك الدبلوماسى كانت تبدو جزاء مناسبا عن مواهبهم . ربما إهتز العصر المذهب من الضحك حين استمع إلى فكاهات مارك توين ولكنه اعتبره مجرد شخص رائع يصلح للتسلية . ولم يعرف ذلك العصر ماذا يفعل بوالت هويتمان وإن

كان واضحا أن رجلا استعمل بصراحة بعض تعبيرات الأخير لم يكن يصلح لشغل وظيفة صغيرة فى مصلحة حكومية . ولم يحصل ملفيل قبل سنة ١٨٦٦ على وظيفة مفتش جمارك فى نيويورك وهى الوظيفة التى كفلت له الطمأنينة خلال السنوات التسع عشرة التالية . والموسيقى ذات الأهمية قليلة ، وقدر وافر من العمارة لم يكن تعبيراً عن العبقرية الأمريكية فى فن البناء بقدر ما كان تحويلا إلى طوب وحجارة بيوت النهابين المشهورين الذين يعرضون فى نيويورك وواشنطن وشيكاغو وفيلادلفيا قدرتهم على الإسراف الظاهر . والرسامون ممن يكادون يعلون المرتبة الوسط عددهم قليل وان ذكرنا المسترف. أو. ماتهيسن بعظم ارتفاع مستوى الفن الفوتوغرافى فى صور ماتيو برادى . والشخص الذى يريد الإنغماس فى التظاهر يصبح راعيا لعظيم أوربى متوفى بدلا من أن يرعى الأمريكيين المعروفين من أجل جيله . إن الفن فى معظم صوره قائم على الروح الأمريكية ، واختبار عظمته ينحصر فى اعتراف أوربا بذلك أكثر من المديح الذى تزجيه أمريكا . حين قال الرئيس كوليدج بلهجته الأمريكية الفاترة التى تميز بها «إن العمل فى أمريكا هو العمل» كان يلخص مبدأ فى النظرة الأمريكية بدأ يصبح موضع الشك حين أصبح رئيسا للجمهورية . وحيث سمت الثقافة الى تعبير أمريكى كامل منها كما فى نيو انجلند وبصورة غالبة فى بوسطن كان لها اتجاه واضح فى التأنق بريشها الجميل كما لو كانت ترتدى ملابس تنكرية . الأمر المؤكد أنه من الصعب ألا نستنتج أن سادة بيكون هل وبراتل ستريت شعروا أنهم الطبقة الأرستقراطية المختارة التى تحرس تراثا ثمينا يصبح بغير ذلك فى خطر من الزوال.

إن ما دعاه سانتا يانا « التقليد المهذب » هو فى الحقيقة عنصر ضئيل جداً فى التقليد الأمريكى . فالقوم الذين زرعوا البرية ومدوا الخطوط الحديدية عبر القارة وجعلوا مستوى العمل التكنولوچى — إذا ما جعلنا الإتساع والنوع متحدين — شيئا لم يعرفه العالم من قبل كان لابد وأن يعتبروا الثقافة منتجا ثانويا لمجهودهم يمكن أن يعهدوا به إلى نسائهم أو أن ينميه ويطوره رجال يفتقرون إلى قوة الإندفاع العنيفة التى ينطوى عليها ترويض قارة . إن الذين قاموا ببناء حضارة جديدة وهم قوم إتصفوا بالافتقار إلى الرقة وانعدام الرأفة لم يكن لديهم الوقت كى يستبدلوا بالارتياد

الفلسفة . ربما سمعوا بصورة غامضة ان فى مواضع متفرقة من الولايات المتحدة تجارب غربية مثل بروك فارم أو الشيع المعروفة باسم Oneida ، Shakers ، بل ربما سمعوا وبصورة أشد غموضاً أن جميع المذاهب الغربية مثل اشتراكية فوريه ومذهب سويدنبرج عما وراء الطبيعة وحماس إيمرسون الشديد لتلك الصور التى لم يتم هضمها من العقائد الشرقية ، كانت تعمل على اجتذاب الأنصار هنا وهناك ، ولكن الروح التى اعتبروها ذات أهمية لم يكن لديها الوقت أو الإهتمام لبحث هذه الأمور . كانوا بطبيعة الحال يظهرون إحتراما بألسنتهم لمبدأ الديموقراطى ، ويختبرون إلى أقصى حد ما فيه من رومانسية ، وعرفوا الإثارة الشديدة التى يولدها الكفاح من أجل القوة السياسية والاقتصادية كما عرفوا إثارة أشد حين كانوا يكافحون من أجل الاحتفاظ بالقمة حين يبلغونها ، وجميعهم تقريبا كانوا على اقتناع بأنهم أقاموا مجتمعا تساوت فيه الفرص وتقاس فيه قيمة المرء بما هو عليه . وكانوا ينصتون فى جذل إلى أمثال دانيال ويبستر وهنرى كلاى وچون ك. كالهون ممن عبروا عن أفكارهم فى خطب تتساوى فى الروعة مع الأعمال التى حققوها فى الميدان التجارى . كانت تمر بهم بين الحين والآخر لحظات من الضيق حول مسائل كالرق وإن كان فى وسعهم أن يشعروا بالراحة بفضل إيمان چيفرسون بحتمية زواله ، أو بما كشف عنه فتزبرج فى كتابه « علم الاجتماع للجنوب » من أن أرسطو لم ير نفعا فى الداعين إلى إلغاء الرق ، إلا أنه كلما تكونت الروح الأمريكية فإن لحظات الضيق هذه لم تكن نادرة فحسب بل ونادرة بصورة غير مفهومة ذلك أنه كان من الصحيح بوجه عام حتى عهد رئاسة الجنرال جرانت أن الرجل النشيط القادر مهما كان أصله كان واثقا من أن يلقى جزاءه ؛ ويصح أن مثل هـــذا الرجل ، سواء كان انجليزى الأصل أو ألمانيا أو إسكنديناويا ، أمامه فرصة حقيقية للسير إلى أعلى دائما . وفضلا عن ذلك رأوا أمام أعينهم قصص حياة تحققت بحيث بدت كأنها قصص من كتب الأساطير أكثر منها أشياء واقعيـــة من الحياة . فالصانع الذى علم نفسه بنفسه واشتغل بشق القضبان أصبح رئيسا للجمهورية ، والمسافة التى كانت تفصل محل إقامته عن وشنطن

أو آدامز دليل مؤكد على أن أسس الجمهورية الأمريكية أوسع فى روحها . وماذا كان يمكن أن تكون الفرص أمام حياة كهذه فى أوربا ؟ إن السرعة التى نجح بها رجل مثل باتريك تراسى جاكسون سرعة من المؤكد أنها تتسم ببعض الصفات التى تحدثنا عنها اللاحم ؛ فقد عمل صبيا لدى أحد التجار فى ماساشوستس وهو فى سن الخامسة عشرة ، وأصبح ضابطا بحريا ولما يبلغ العشرين من العمر ومؤسسا ومديراً لمصنع والتام فى سن العشرين بالاشتراك مع فرانسيس لدول ، ولم يمض عقد من الزمن حتى كان المنظم الحقيقى للطرق الحديدية فى نيو انجلند : وكذلك قصة هارند وآدمز اللذين بلغا أسمى منزلة فى شركة ولز فارجو التى استطاع صمويل بوولز رئيس تحرير The Springfield Republican أن يكتب عنها فى سنة ١٨٦٩ قائلا « إن المنشآت الثلاث الأولى التى أقيمت فى مدينة تشتغل بالتعدين كانت مطعما وقاعة للبلياردو ومكتب ولز فارجو » .

إن الأمريكى المولود عام ١٧٩٠ رأى عدد سكان بلده يرتفع فى عام ١٨٦٠ حين بلغ السبعين من العمر ، من أربعة ملايين إلى اثنين وثلاثين مليونا تقريبا ، واستطاع أن يلاحظ أنه بينما كان ٩٥ فى المائة من السكان يقيمون فى الولايات الثلاث عشرة أصبح أكثر من نصفهم يعيشون فى سنة ١٨٥٠ غربى جبال الليجانى . وبينما وجدت عند مولده ست مدن فقط يزيد أهل الواحدة منها على ثمانية آلاف نسمة ارتفع العدد حوالى سنة ١٨٦٠ إلى مائة وإحدى وأربعين مدينة . والكشف عن الذهب ، والامكانيات التى توفرها الأراضى غير المملوكة لأحد ، ونمو الاعتقاد بأن التعليم العام خير سبيل لمواجهة الجريمة والفقر وحماية المعانى التى تتضمنها ديموقراطية جيفرسون — كل هذه عناصر اشتركت فى تكوين الروح الأمريكية . كذلك مما له مغزى كبير أنه بينما اشتملت البلاد على أربع وعشرين كلية فى عام ١٨٠٠ زاد العدد إلى عشرة أمثاله على الأقل فى عام ١٨٦٠ . كان معظمها بطبيعة الحال مؤسسات طائفية صغيرة ولا يحتمل أن تبلغ مستوى علميا عاليا ، ولكنها دليل على إيمان بقيمة العلم ، كما كان اتجاهها المستمر نحو زيادة تأكيد طابعها العلمانى . وكذلك من

المهم أنه خلال هذه السنوات ترتب على السيل المطرد من المهاجرين والحدود إضعاف قوة الديانة النظامية مهما كان تأثيرها على الإيمان الفردى . إن نفس حجم البلاد معناه أثناء استعمارها أنه حتى الكنائس البارزة ذاتها إضطرت إلى الإعتماد على الجهود التبشيرية بين سكان متناثرين فى مختلف أرجاء البلاد على نحو واسع، ولم يكن فى وسع غير القليل من الجماعات أن تنفق على رجل دين مقيم بين ظهرانيها . وإذ كان الرائد فى معظم الأحوال نادراً ما يحتمل أن يكون رجلا مثقفا فان الدين الأمريكى ولد خلال الفترة السابقة للحرب الأهلية ذلك الإتجاه إلى البعث العاطفى والذى لم يفقده أبداً. والنتيجة — وإن قل تأكيدها — أن الإيمان الذى تقبله الأمريكيون المقيمون خارج المدن الكبرى كان أسلوبا مؤقتا لإشباع الرغبة الجامحة فى التعبير عن الذات وذلك خلال الفترات التى تتخلل العمل اليومى الشاق أكثر منه قانونا يتضمن القواعد التى تشيع فى السلوك اليومى للمؤمن . وحتى فى المدن الكبرى زادت الصعوبة فى الإبقاء على شدة المذهب. وفضلا عن ذلك فاعرسون هو الذى كسب المعركة ضد الأرثوذكسية البيوريتانية والخطاب الذى كان صدمة لكلية اللاهوت فى هارفارد من الأسباب الرئيسية التى تخلده على مر التاريخ.

كذلك ليس لأى شخص يحاول فهم الروح الأمريكية أن ينسى أهمية نمو الأساليب والمخترعات التى استهدفت تخفيف عبء العمل المنزلى . فالأدوات المنزلية من الصفيح بدلا من النحاس ، وسرعة إنشاء شبكة من أنابيب المياه فى جميع المدن الكبرى ، وحتى تطور الآلات الزراعية — هذه كلها نجم عنها أسلوب فى المعيشة أيسر .وحوالى العقد الرابع تحسنت إضاءة الشوارع إلى درجة بالغة ولم يكن البريد الرخيص الذى أدخل فيما بين عامى ١٨٤٥ ، ١٨٥١ أقل قيمة من انتشار الخطوط الحديدية والترع فى تحطيم حواجز العزلة . وبحلول عام ١٨٤٠ أسهم ظهور الصحيفة التى تباع بينس واحد لا فى مجرد تضاءل شأن النزعة المحلية الضيقة فحسب ، بل بدأ يتحول إلى ذلك الظمأ للمعلومات بشأن كل شىء والذى جعل قوة الصحفى الأمريكى فى الحصول على الأخبار تختلف فى صفتها ومداها عن عادات أى شعب آخر فى العالم . إن شدة

الرغبة فى معرفة الأخبار من الصفات التى لا يتسنى إشباعها فى الروح الأمريكية . وحتى بعد تطور الراديو كان من الواضح من برامج الإذاعة فى الولايات المتحدة أن تلك الشهية زادت بفضل ما كانت تتغذى به .

لم يكن من السهل إغراء الأمريكيين خلال العهد الأول من تاريخهم على حياة الدعة واللهو ، ولقد كان توكفيل أبرز الملقين الأوائل ممن أكدوا شدة انصراف القوم إلى العمل . حقيقة نشأت حول الكنائس حياة اجتماعية شديدة الرغبة نوعا فى الحصول على المعرفة ، وكان المحاضر المتجول — على ماأوضحت تجربة إيمرسون — موضع الترحيب دائما حين كانوا يظنون أن لديه ما يقوله . إن المركز النسبى الذى تشغله نظم مثل المسرحية والأوبرا والباليه فى الحياة الأمريكية كان صغيراً نسبيا يكاد لايميز المرء مغزاه قبل الحرب الأهلية . قد يصح القول أنه فى الجنوب كان للرقص وسباق الخيل والمقامرة والصيد مركز ظاهر فى حياة المزرعة ، وكانت تمضية أسابيع فى شارلستن أو نيو أورليانز شيئاً طبيعياً بالنسبة إلى مالك الأرض كما كان الحال فى انجلترا حيث تقضى الأسر الكبيرة أحد فصول السنة فى لندن . كان كرم الضيافة عند الأمريكيين على جانب كبير من الروعة ؛ وأقل اتصال بالأدب الأمريكى يظهر لنا عمق تلك الفكاهة الجافة التى كان أرتيموس وارد ومارك توين وفنلى بيترون أبرز من عبر عنها .

إلا أن درجة الجدية فى الروح الأمريكية هى الصفة الرئيسية التى تميزها حتى تشوب الحرب الأهلية كأنما أدرك الأمريكيون أن تحدى الطبيعة فى تلك القارة الفسيحة لا يمكن أن يؤخذ بروح المرح أو الابتهاج . فالأمريكى يحيا حياة شديدة ، ويعمل بجد ، بل ويلعب بقوة ، ويبدو أنه يشعر أن الحياة العنيفة هى وحدها التى تجعله سعيداً . ومما يلفت النظر مثلا أنه إلى عهد متأخر نسبياً لم يتطور الأدب الساخر فى أمريكا والسخرية هى الأداة التى يستخدمها قوم يمكنهم أن يراقبوا المجهود الذى يبذلونه بدرجة عالية من التسلية. هناك نباهة فى النكتة وهجاء وقدح بوفرة ولكن كلا من هذه العناصر قوى فى طابعه وصفته ، وهذه القوة أو الحدة تبدو غير متناسبة

مع السرعة التى تسير بها الحياة. إنهم يتحركون بسرعة إلى حد أنهم يكادون أن يخافوا أو ربما يشعرون بالخجل قليلا من العقل الذى يتأمل ويفكر ببطء. إنهم غير متأكدين من أن الراحة لا تعتبر إنكاراً للتقدم. وكما إن الحدة متناسبة مع السرعة فكذلك نلقاها متناسبة مع الحجم؛ فالأمريكى على حد عبارة ماثيو أرنولد لا يسعى فقط إلى إثبات وجوده وذاته، وإنما يسعى إلى أن يثبت أنه فى هذه السنة أكبر فى حد ذاته وأنه بوصفه جزءاً من كلىّ أصبح أكبر مما كان عليه فى السنة السابقة.

ذلك على ما أظن السبب فى ارتياب الأمريكيين خلال تاريخهم فى كل ما يخالف العرف. يمكن أن يكون الأمريكى « شخصية »، وحضارة الولايات المتحدة زاخرة إلى حد يفوق التصديق بالشخصيات البارزة، إلا أنه لا يحس بالراحة تماماً — وحتى فى الوقت الحاضر — إزاء « الشخصية » التى لا تتفق مع العادات الرئيسية للروح الأمريكية. إنه لا يجد محلا لعبقرية غريبة شاذة مثل إدجار آلان بو، ويستطيع أن يرحب فى حماس بأمريكى عظيم مثل وليم چيمس، بينما يبدو كاللغز فى نظره أمريكى عظيم مثل هنرى چيمس الذى يعتبر من ناحية تفكيره وتصرفاته أمريكيا بصورة جزئية. إنه لم يشتر الكثير من كتب إيمرسون حين كان على قيد الحياة، وامتلأت نفسه بنوع من الحيرة والفزع من والت هويتمان. ومعظم الخطب الأمريكية التى ظلت كلاسيكية ورمزاً للبلاغة — ويعتبر خطاب جيتسبرج استثناء ظاهراً لها سواء تلك التى ألقاها ويبستر أو كلاى، أو چاكسون أو كالهون، زاهية مزدهرة كأنما يشعر الخطيب أن من الضرورى أن يترك مستمعيه على اعتقاد بأنه يتقبل تماما نفسية المجتمع الأمريكى التقليدية. يجب أن يكون الخطيب الأمريكى شاذاً جداً إذا كان يقرأ من مطبوع كأنما يلقى عظة ذات صبغة دنيوية؛ وعلى ضوء هذا المعنى من المهم للغاية أن نوازن بين خطبة إيفرت — وهى ما كان الجمهور يتوقعه — وبين ماقاله لنكولن، وأن نتذكر أن الكثير من الصحف الهامة فى ذلك الحين لم تهتم حتى بنشر كلام يرى التاريخ أنه جدير بأن يوضع فى صف خطاب التأبين الذى ألقاه بيريكليس.

إن المرء ليجد ما يغريه على الإستنتاج — على الأقل حتى زمن قريب — أنه كان فى العقل الأمريكى اعتقاد راسخ، ولو عن غير وعى تام، بأن عمل المجموعة

الشرط الوحيد الذى على أساسه يحقق مصيره . ومعنى ذلك العمل الجماعى أنه إذا كانت هناك فردية بارزة فى المسائل الإقتصادية كما تدل عليها عادات روكفلر أو ڤاندربلت أو مورجان الأكبر ، فإن الروح الأمريكية تطلبت تخطيط حدود التناسق والتوحيد بقدر من النظام والترتيب . ليس من باب الصدفة كلية أن مين ستريت يمثل جميع الشوارع التى تحمل هذا الإسم ، وأنه إذا كان لهارڤارد « دورها » فيجب أن تكون لجامعة ييل « كلياتها » من الطراز نفسه . كذلك ليس من قبيل الصدفة أن من المبادىء الأساسية فى أسلوب الحياة الأمريكى أن يكون المرء على غرار قرنائه سواء تجلى ذلك فى أثاث البيت أو عدد السيارات التى تملكها الأسرة أو الكتب التى ينبغى للمرء أن يطالعها أو المجلات التى يشترك فيها . إن وحدة أو تناسق القيم عبارة عن النتيجة المترتبة على غزو الأمريكيين للقارة بصورة أكثر مدعاة للدهشة مما توقعه حتى ذلك المراقب الشهير توكڤيل ؛ إذ من المشكوك فيه على الأقل وجود ديموقراطية رأسمالية يصدق عليها القول المأثور من أن « الأفكار الحاكمة فى عصر هى أفكار الطبقة الحاكمة » أكثر مما يصدق على الولايات المتحدة . إن القيم الروحية التى تلقى القبول العام لا تختلف فى نيويورك عنها فى شيكاغو ، وفى الأخيرة عنها فى لوس أنجلوس .

وهذا صحيح مع إضافتين كل منهما جديرة بالإعتبار إلى درجة عالية. لعله مما لا يدعو إلى الدهشة أن تكون للمدن الكبيرة مثل نيويورك وشيكاغو معايير للعمل متشابهة، ولكن العجيب أن تبدو المعايير ذاتها صالحة فى مدن صغيرة نسبيا فى الأقاليم مثل ورستر فى ماساشوستس أو بلومنجتن فى إنديانا . قد تسخر سانت پول ومنياپوليس كل من الأخرى كما تفعل منشستر وليڤربول، ولكن الإختلاف الرئيسى بينهما إختلاف فى الموقع الجغرافى لا الأفكار . حين رسم الاستاذ ليند وزوجه تلك الصورة الرائعة لمونسى بإنديانا كان يرسمان — ولو على نطاق صغير — ما يمكن بسهولة أن يكون صورة مصغرة لأية عاصمة فى البلاد. ربما كانت هناك أسباب للخلاف بين فيلادلفيا وبوسطن حتى قرن مضى، ولكن تلك الظروف الخاصة زالت إلى حد كبير بحيث لم يعد فى الإمكان

أن ننكر نواحى التشابه الأساسية بينها . إن المدينة الكبيرة جامعتها وفرقتها السيمفونية وصالتها الفنية وكلها من طراز واحد كما هو الشأن بالنسبة إلى فنادقها ومتاجرها الكبيرة ودور السينما . قد تكون مدينة أو أخرى أكثر أهمية فى وقت أو آخر ، فقد رأى هوولز أن بوسطن كانت المركز الثقافى بالولايات المتحدة بعد الحرب الأهلية، وعملت نيويورك بعد الحرب مع أسبانيا على أن تشغل هذا المركز وإن سارت وماتزال تسير شيكاغو فى أعقابها . وكما أن كتاب الأقاليم من أمثال مارك توين أو هاملن جارلاند كانوا فى القرن الماضى يؤكدون تحررهم من كلمة «Wen» المألوفة فى العواصم فكذلك فى القرن الحالى يؤكد شرود أندرسون أو وليم فوكنر الأمر نفسه .

والنزعة الإتحادية التى بدأت بمحاولة الإبقاء على « التنوع فى ظل الوحدة » انتهى بها الحال بالوقوع تحت تأثير الرأسمالية الجبارة والتى لا توافق بحكم طبيعتها الكاملة على ذلك التنوع الذى تعمل الإتحادية على الإبقاء عليه . وإذا كنا نجد حتى الآن أدبا إقليميا فى الغرب الأوسط أو الغرب الأقصى أو الجنوب فقد كانت النتيجة الرئيسية للتطور الإقتصادى التأكيد بأن الفكرة الاتحادية صائرة إلى الزوال .

والاضافة الثانية الجديرة بالاعتبار هى الدرجة العجيبة التى تغلغلت بها عادات رجل الأعمال فى الاغلبية الساحقة من تلك العناصر بالولايات المتحدة والتى كان المنتظر منها أن تكون أساس المعارضة لهذه العادات . فليس من مجتمع على هذه الصورة من الأهمية الاقتصادية الكبيرة قبلت فيه الطوائف السلبية من الامتيازات » على حد تعبير الرئيس روزفلت ، وبصورة كاملة ، الفروض التى بمقتضاها يشق رجال الاعمال طريقهم إلى القوة. وحتى إذا قسنا الحركات الراديكالية ابتداء من حركة شاى والتى سمت أن يكون لفكرة المساواة فى الحياة الاقتصادية أساس حقيقى ، فقد كانت النتيجة البارزة عجز تلك الحركات عن البقاء أكثر من كونها ظاهرة مؤقتة . كان بعضها مثل الحركة الشعبية على جانب كبير من الأهمية ، وقد يأتى يوم تصبح لها فيه أهمية تاريخية مثل حركة ليلبورون والتسويين Levellers فى عهد كروموبل . ولايسع أحد أن ينكر السحر الذى بدت به التجارب الجماعية مثل

بروك فارم ، ومن الواضح كذلك أن رجالا مثل أوريستيس براون أو وليم إيلرى تشانتج أو تيودور باركر كانوا يدركون الكثير من الأخطار الكامنة فى التطور الاقتصادى . كذلك هنا وهناك نجد أن اتحاد شخصية عظيمة مثل هنرى جورج مع مقدم الكساد سبب توقفاً مؤقتا فى كمال قبضة رجل الأعمال على العادة الأمريكية الغالبة ، غير أنه من الحيوى أن نتذكر أنه ما من حركة راديكالية عاشت طويلا فى الولايات المتحـــدة إلا كخيط رفيع من النسيج الكلى ، وأن الحركات الراديكالية الرئيسية بعد جون تايلر وأوريستيس براونسن تقبلت أساساً الايمان بالتقدم وذلك التفاؤل الملئ بالثقة ، وهما الصفتان اللتان تعتبران كما قلت عناصر لا تتجزأ من الروح الأمريكية . إن نقابات العمال ، على أى حال بعد عهد أندرو جاكسون ، شاعت فيها روح الرأسمالية الناجحة . كانت تطالب بظروف أفضل دون أن تسع أبدا إلى القوة السياسية . وكان للحزب الاشتراكى فى شخص كل من دانيال دى ليون ويوجين دبس رجال من ذوى الخلق والنبل والمعظمة النفاذة بحيث كان فى الوسع ترشيحهم لرئاسة الجمهورية أو استخدامهم ، كما فى حالة دى ليون ، لوضع بديل عن فلسفة رجل الأعمال . وكانت هناك إضرابات عنيفة مثل لودلو وباترسون وجاستونيا . إلا أن الطراز الذى تغلب فى النهاية بل وتغلب بسهولة كان الطراز الذى افترض سلامة وجهة نظر الأعمال[1]. قد تمر لحظات حيث يترتب على صراع معين امتيازات يمنحها أرباب الأعمال للعمال ، ولكن قوة الدولة صاغتها فلسفة لم تستطع الطبقة المالكة تعريفها . لقد كانت الراديكالية الأمريكية دائما ظاهرة يمكن أن تحرز نجاحا مؤقتا وجزئيا ، وليس مما يتجافى مع العدل على ما أظن القول بأن الراديكاليين أنفسهم حتى الآن قد افترضوا أن ذلك هو المصير الذى انتظرهم .

---

(١) Samuel Yellen : American Labour Struggles (New York ; Harcourt, Brace, 1936), passim.

ومغزى هذا واضح . إن مشكلة الروح الأمريكية كانت المشكلة التى تنبأ بها توكفيل منذ أكثر من مائة سنة . كلما عظم تنظيم الديموقراطية السياسية زاد سلطان الأقلية الحاكمة من رجال الصناعة قوة وذلك على الأقل إلى وقت الكساد العظيم فى سنة ١٩٢٩ . إن ما دعاه إليهو روت « الحكومة غير المنظورة » حصلت على قوة راحت تعظم عقداً بعد آخر وأصبحت باستمرار أكثر بعداً عن المسئولية ، بل وأصبحت الملكية والسيطرة أكثر تركزا وبدت أية وسيلة سياسية كالانتخاب والاستفتاء والمبادأة وسحب الثقة عاجزة عن الحد من ذلك التركز . ربما استطاع الباحثون من أمثال چ. ألن سمث وبارنجتون وبيرد أن يصوغوا فلسفة سياسية على أساس البحوث الرصينة التى قام بها هنرى ديمارست لويد أو إيدا تاربل عن عادات رجال الأعمال، ونكتفى بهذين المثلين . وقد يكتب بيرد بقوة ، « إن الدولة الحقيقية ليست الدولة القانونية ولكنها تلك المجموعة من الأفراد القادرين على العمل سويا بشكل فعال من أجل تحقيق أغراضهم المشتركة والتغلب على كل معارضة ضد أى مشكلة معينة فى وقت معين » ، ولكن الواقعية التى من هذا القبيل لم تسر إلا قليلا نسبيا . لعلها أثرت فى عدد صغير من أهل الفكر أو فى تنظيم نقابى من وقت لآخر ، وربما فى عهد مبكر كالعقد الثامن من القرن التاسع عشر وجد بعض من شعروا بالمعنى الذى عبر عنه وليم دين هوولز حين كتب إلى هنرى چيمس يقول إنه « بعد خمسين عاما من الرضاء المتفاءل عن الحضارة وقدرتها على السير فى الطريق السليم فإنى أبغضها الآن وأشعر أنها تسير فى الطريق الخاطىء أخيرا إن لم تبن نفسها من جديد على أساس من المساواة الحقيقية » ،وقد يكتب إد هاو وهاملن جارلاند عن ذبول الحياة الزراعية، وقد تسخر إديث هوارتن وفرانك نوريس وتيودور درايزر وروبرت هرك بصورة عابسة أو بصورة رقيقة كما فى حالة المسز هوارتن ، من روح الأمل الأمريكية . وقد يوضح هنرى چيمس على بعد ثلاثة آلاف ميل وبالرغم من الأسلوب الملتوى الذى

يعبر عنه ، ذلك الإعوجاج الذى يميز حضارة أغنياء حديثى العهد من البورجوازيين تؤدى فى النهاية إلى الثورة . إن الشىء المهم أن الأسطورة التى تتحدث عن الأعمال العظيمة التى حققتها أمريكا طغت على جميع ماوجه إليها من الانتقادات منذ أيام الحرب الأهلية . كان الاعتقاد السائد بالرغم من كل شىء أن أمريكا مختلفة وأن لها مصيرا خاصا وأن آمالها فى مستوى يعلو على آمال أى بلد آخر فى العالم .

من استمرار تلك الأسطورة الرائعة تتركب الروح الأمريكية ، لأنها كانت أسطورة بالرغم من نجاحها الساحق . وحتى إذا كان هناك مهرب دائما من عبودية نظام الأجر كما عرفته أوربا بكل ما يبعث عليه من اليأس ، فطالما كانت الأرض متوافرة فإن العامل كان فى مركز لايحسد عليه . وحتى هارييت مارتينو الذى كتب عنه بحماس إعترف بان العمل كان حوالى سبعين ساعة . وانتشر عمل الأطفال ، كما كانت الحالة الصحية فى المصانع سيئة . وبعد أزمة سنة ١٨٣٧ حدث تدهور تدريجى بوجه عام فى حياة العمال ، فخفضت الأجور ، وأسفرت محاولات التنظيم النقابى عن وضع أحد الراديكاليين النشيطين فى القائمة السوداء ، وكانت أحوال السكنى سيئة كما عرفتها الصناعة القطنية فى شمال انجلترا . وكلما كثر عدد المهاجرين زادت قوة أرباب الاعمال. ولا يقل فى تفسير ذلك أن اختلاف الجنسية واللغة جعل تحقيق الوحدة على أى نطاق جدى أمرا صعبا تماما . ونستطيع نحن الذين ننظر إلى النتيجة النهائية للثورة الصناعية فى الولايات المتحدة أن نرى ضخامة الآثار التى ترتبت عليها وضخامة الطاقة الإنتاجية التى خلقها حتى الوقت الذى نشبت فيه الحرب الأهلية ولكننا لا نعرف إلا القليل عما نجم عنها من تكاليف طبيعية . ونستطيع أن نتصور أنها تكاليف باهظة لا يطالعه صحف الطبقة العاملة قبل عام ١٨٦٠ بل وكذلك من تأثير تطور الصناعة على عقول سمحة كعقول تشانينج وتيودور باركر . ونستطيع أن نراها كذلك فى الجاذبية التى اتصفت بها التجارب الجماعية التى أجريت خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر . ربما أخفقت بشكل يدعو إلى الرثاء ، ولكن مغزاها لا نلقاه فى إخفاقها بقدر ما نجده فى المثالية الحماسية التى بعثت على إجرائها . ونستطيع كذلك أن نرى عمق الأسطورة فى الاعتقاد الذى ساد فى الجنوب قبل عام

١٨٦١ بأنه أسهم بفضل نظامه الخاص به فى خلق حياة حافظ فيها السيد الشهم المثقف على ذلك المثل الأعلى لدولة أمريكية، لولاه ، لزال ذلك المثل بفعل مادية الشمال والغرب . هذا الاعتقاد حقا أبعد من أن يكون قد انتهى الآن ، وما تزال قوته على التغلغل فى سياسة الجنوب عميقة الأثر بشكل يدعو إلى الأسى .

إن ماكان جوهريا فى تكوين الروح الأمريكية عامل مثلث الجوانب ، ولا يمكن فصل أحد الجوانب عن غيرها . والجانب الأول المثير والذى لا مهرب يتمثل فى قارة فسيحة اختفت منها الطبقة المسيطرة والتنظيم الاجتماعى الهرمى السائدين فى العالم القديم ولا تخضعها أيدى الرجال فقط بل والرجال الذين كان الكثيرون منهم يروحون ضحايا هذين العاملين فى العالم القديم . إنها لمسرحية مثيرة رائعة سواء نظرنا إليها من زاوية سرعة التطور أو مجرد مقدار النجاح الذى تحقق . وكل من يوازن بينها وبين التطورات الذى حدثت فى الوقت ذاته فى كندا واستراليا ينبغى ألا يجد من الصعب أن يفهم ثقة الأمريكى بنفسه ومبلغ نشاطه والقوة الدافعة التى تتميز بها براعته التى لاحد لها .

والوجه الثانى يتمثل فى أن غزو القارة كان الشيء الذى يبقى فى الذاكرة دائما والذى يعبر عن تقليد النجاح والفرح لا الإخفاق أو الأسى . فالقوم الذين بدأوا الحيـــاة ولا يملكون غير قدرتهم ونشاطهم يصبحون فى الميدان السياسى أخيراً رؤساء جمهورية أو قضاة بالمحكمة العليا أو أعضاء فى مجلس الشيوخ أو حكاما للولايات ، بينما يجمعون فى المجال الاقتصادى ثروات ينظر إليها أفراد الطبقات الراقيـــة الأغنياء فى العالم القديم بعين الحسد . وفى كل هذا لايجد الشخص الناجح سواء أكان من رجال السياسة أو الصناعات أى حاجز لايقدر على تحطيمه . وهناك دائما جو يشيع فيه الأمل فإن أخفق اليوم فقد يوفق فى الغد ، ولهذا لا ينبذ الفكرة عن ضرورة مواصلة المحاولات من أجل النجاح ، بل إنه ليفترض ذلك . هذا الجو من الأمل يولد تلك الحيوية الأمريكية العجيبة التى تتغلب على حرارة المناطق الاستوائية وبرد الأقاليم الجليدية . إن الأساس الذى بدأ منه الأمريكيون

فى القرن التاسع عشر يتلخص فى أنهم إذا كانوا من المهاجرين فأمامهم فرص ما كانوا ليجرأوا على أن يحلموا بها ، وإن كانوا من مواليد أمريكا فنجاح أمثال جاكسون أو لنكولن أو چون چاكوب آستور أو نيقولاس بيدل يمكن أن يكون من نصيبهم أيضا . ومن هذه الوجهة يشبه تاريخ الولايات المتحدة إمتحان مسابقة كبيراً جدا يجد فيه كل من يتقدم إليه ، وحتى يومنا هذا ، فرصة الحصول على الجائزة ، وهذا الاعتقاد تلازمه المعرفة بأن بعض الجوائز على قــدر بالغ من الضخامة .

والوجه الثالث الذى يضفى على الروح الأمريكيــة طابعا خاصا فحواه أنه كما بدأت الولايات الثلاث عشرة حياتها الفعالة فى القرن السابع عشر وهو العصر العظيم للكشوف العلمية ، كذلك استهلت الولايات المتحدة حياتها الفعالة فى القرن التاسع عشر حين بدأ العلم يدخل بصورة تامة فى مرحلة النضوج التكنولوچى . ومن هنا يحق لنا أن نستنتج أن المزاج الأمريكى يميل إلى المغامرة وإجراء التجارب، بل أكاد أقول إنه ثورى فى مضمونه السيكولوچى ، وهذا المزاج — على الأقل حتى الوقت الذى تم فيه الوصول إلى الحدود — زاد من حدته أن الأمريكى لم يجد أمامه من سبيل إذا شاء أن يجعل بلاده ملكا له إلا أن يكون رائداً ، ولهذا فنادراً ما كان مثقلا بعبء تقليد موروث يكاد لا يجسر على فحصه ، بله تغييره . وبالرغم من بناء فكرة دولة أمريكية موحدة فقد دخلت فى تكوينها أفكار وعواطف أسهم بها العالم كله . إنها مجتمع لا وجود فيه لفضائل ثابتة أبداً ، وفيه يكاد البحث عن الأمن والطمأنينة فى حد ذاته أن يعتبر إعترافا بالفشل لأن الأمان أو الاطمئنان يعد إلى حد ما مماثلا للركود . ونستطيع أن نرى هذا الإتجاه فى تضاءل شأن نيوانجلندوعظمتها بعد أن بدأ استعمار الأقاليم الواقعة إلى الغرب. إن معظم شباب هذا المجتمع يزحفون صوب المساحات الجديدة حيث الفرص الجديدة، أما الباقون فيعنيهم أن يحموا المركز الذى حصلوا عليه ضد التحدى من جانب المهاجرين بحيث أنه حتى لو ظلوا أغنياء فعليهم أن يروا ستيت ستريت يرضى بمنزلة دون ما يمكن أن توفره نيويورك أو شيكاغو

أو سانت لويس أو دنفر أو منيا بوليس أو سيتل أو سان فرنسسكو. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فليس ثمت ما يلقى الضوء على روح الإقدام الأمريكية من هذا العدد الكبير من عوانس نيو إنجلند فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . إنهن من سلالة عائلات كريمة وغالبا ماتتوافر لهن موارد مادية كافية . ولكن نيو إنجلند بدأت تتقبل نظاما أوربيا من تدرج الطبقات الأمر الذى ترتب عليه أنه إذا عجزن عن الزواج ممن ينتمون إلى طبقتهن ففى وسعهن على الأقل ألا يلطخن نسبهن بالعار إذا ما تزوجن من أبناء المهاجرين الإرلنديين أو اليهود ولذلك تكاد ميلى ديكنسون ، وتمثل صورة من نيوانجلند لإليزابث باريت ، أن تعيش كراهبة فى البيت الذى اتخذ منه والدها ديراً لها ، والأمريكى الذى كان فى وسعه أن يفعل مثل برونتج فيقنعها بتحطيم الأبواب يعيش فى إيوا أو إيداهو أو كاليفورنيا . ونكاد لا ندرى شيئاً عن الأحلام التى تمر فى ذلك العقل الرائع وهو قابع فى صومعته التقليدية ، ولكنا نستطيع أن نكون واثقين فقط أن إميلى ديكنسون لم تكن أبداً أكثر من ظل لما كان يمكن أن يكون لأنها لم تجرأ — حسب المعنى الحقيقى للتقليد الأمريكى — على تحدى الحياة التى كانت سجينة بها.

وعلى ذلك إذا نظرنا إلى الحياة الأمريكية خلال الخمسين عاماً الوسطى فى تاريخ تكوينها وحيث استمدت عاداتها ، فإن أشياء معينة تبدو لنا بوضوح تام . فهى جسورة إلى درجة الوقاحة بل والاستهتار ، إذ بالرغم من كل إحترامها الشكلى للقانون فإن غايتها الحاسمة هى الوصول إلى هدفها . وإذا ما أنطوى ذلك على معنى التحايل على القانون أو تجاهله عن طريق استخدام العنف فإنها نادراً ما تتردد فى إنتهاج هذا السبيل . وقوتها عظيمة ، وقدرتها على الاحتمال بطولية ؛ وكل من يقرأ القصص المفصلة عن تأسيس ولاية أوتاه سوف يفهم نوع قوة الارادة والغرض التى تمثلت فى صنع هذا التقليد . وهى روح ذات قدرة على المثابرة لا تقل عن غيرها وضوحا ؛ ولعل المثل الأعلى لهذه القدرة تلقاه فى حياة إبراهام لنكولن بحركتها التى لا تتوقف صوب الهدف الذى جعله الرجل نصب عينيه . والحق ، إن معتمى

فى الملاحظة الشهيرة التى أبداها الجنرال جرانت حين قال « سوف أحاربها عند هذا الخط ولو استغرق ذلك الصيف كله » ؛ وهى الملاحظة التى تعتبر رمزاً لتاريخ الولايات المتحدة . إن الأمريكى فى هذه الفترة الوسطى الحرجة يعرف ما يريد ولا يمكن أن يثنيه شىء عن النضال من أجل الوصول إلى غايته مهما كلفه ذلك من ثمن.

هناك مغزى كبير فى الحقيقة التى ترى أنه فى الغالب نضال شكل الروح الأمريكية. فأحيانا يكافح الطبيعة ، وأحيانا يقاتل الهندى ، وحارب بريطانيا العظمى مرتين ، وبمجرد أن سحق بقايا أسبانيا القديمة بسرعة جعلت المعركة ضد العدو العسكرى أقل صعوبة منها ضد المرض الذى تفشى فى صفوفه ؛ وأذكر هنا أنى أتحدث فقط عن القرن التاسع عشر . لست أدرى أيهما أمريكى تماما : الاندفاع الذى لا يتوقف نحو الثراء كما تمثل فى أول رئيس لأسرة روكفلر ، أم الشوق الذى تذوق كل ما وسع فلسفة العالم أن تقدمه كما تدل عليه الصفحات التى سطرها إمرسون . ولعل مما يستوجب الاهتمام هنا أن نبين أن فلسفة كونكورد السامية وشبه الصوفية فى غموضها ذات صلة هامة من حيث نوعها وأسلوبها برجل يختلف إختلافا كبيرا من ناحية المصالح والخلق، وأقصد به بنيامين فرانكلين . أن مظهرين من أبرز مظاهر جهد إمرسون فى تفسير الحياة هما أولا قدرة رائعة على التعبير عن الحقيقة بقول مأثور مما يشبه أسلوب فرانكلين الشهير فى « تقويمه » ، وثانيا شغف بفحص النظم الأخلاقية والميتافيزيقية التى تشبه حماس فرانكلين للتعمق فى فهم أسرار الطبيعة . وفى كلا الرجلين القوة على أن يعيش بين زملائه ومع ذلك يبدو بعيداً عنهم ، وهذا أمر فى غاية الأهمية .

والروح الأمريكية مكبة على العمل ، فنادراً ما نجد عند الأمريكيين الحماس أو الموهبة للتأمل . فإذا كانت فيهم الصفة الأخيرة كما فى حالة تورو مثلا فإن جيرانهم يميلون إلى النظر إليهم على أنهم أفراد ذوو أطوار غريبة ، ذلك أن الأمريكى يعد التأمل ترفاً ينعم به الرجل المسن كثمن يتقاضاه لقاء حياته التى أنفقها فى العمل . إن الوجود هو العمل ، ومعنى العمل التغلب على الصعاب التى تعترض طريق المرء وهذا هو الجوهر الباطنى للروح الأمريكية . إنه يجعل الفوز من مسئوليات الفرد أى مجهوداً يتعين على المواطن أن يبذله بنفسه دون توقع المساعدة من الجماعة . وهذا

فى ظنى السبب فى أن نظرية داروين عن تنازع البقاء غزت العقل الأمريكى بمثل هذه السرعة ، وفى أن مراقبا حكيما وذا نظرة نافذة مثل القاضى هولمز — وهذا مثل لا يستطاع تفسيره على غير هذا النحو — احتفظ حتى آخر العمر باحساس عميق من الاعتراف بالجميل لهربرت سبنسر بوصفه المفكر الذى حرر أكثر من غيره جيله من الفلسفات التى صيغت فى إطار دينى جعله يدرك أن هناك صراعا نهائيا بين الفرد وقوة الدولة . وهو صراع لا يستطيع أى قدر من فلسفة هيجل التوفيق بينهما .

كذلك يجب ألا نغفل ملاحظة أن النشاط بوصفه فضيلة فى حد ذاته مرتبط بالذكاء والميل الطبيعى إلى الحل الذى يواجه مشكلة سياسية بسرعة أكثر منه إلى الحل الذى يتطلب وقتا أطول لتحقيقه وإن كان أنسب من ناحية الذوق . إن الروح الأمريكية عملية تقدر النتائج أكثر من وسائل ادراكها ، ولا تعنى بالمظاهر الشكلية التى يعلق عليها البريطانى مثلا أهمية كبرى . فاختيار الفرد يتم على أساس « صلاحيته » للعمل الذى يطلب منه أداؤه ، وهنا من المهم أن نوازن بين هذه النظرة وبين الفكرة البريطانية عن الصلاحية للمنصب والتى تدخل فيها اعتبارات تتصل بالنشأة والتعليم الى جانب الكفاءة . ويتجلى شغف الامريكى بالنتائج السريعة بعادة الإبتكارية الظاهرة فى كل مظاهرها تقريبا ، ونستطيع أن نلمس هذا الشغف فى حماس الأمريكى للأدوات المنزلية التى توفر الوقت والجهد ، كما نراه أيضا فى تنظيم الإنتاج الكبير وفى ازدياد انتاج السلع ذات الطراز الموحد والتى تصلح للاستعمال العام. فالفرق مثلا بين صناعة ملابس الرجال فى كل من أمريكا وبريطانيا العظمى هو الفرق بين روح ، بمجرد أن تصل إلى مستوى من الطراز والكفاية ، لا تشغل بالها بأهمية التنوع والتميز وبين روح يزعجها أى تشابه واسع النطاق فى الإنتاج . وحتى بالنسبة الى ملابس النساء يظهر شىء من هذا التباين وإن كان بدرجة أقل . أما التفردية فتميل إلى أن تكون مقصورة فى الولايات المتحدة على زوجة الرجل الواسع الثراء والتى فى وسعها قبل عام ١٩٢٩ على أى حال ، شراء حاجياتها من شارع دى لا بيه .

أشرت الى روح المودة التى تتصف بها الروح الأمريكية وهى صفة من الصعب المبالغة فى تقدير قوتها . فالأمريكى يضع بيته تحت تصرفك ، ويسألك عمن تريد أن تلتقى بهم ويهىء لك وسيلة الالتقاء . واذا استضافت زوجته على نطاق متواضع فالأكثر احتمالا أن تساعدها زوجات ضيوفها فى إعداد العشاء لك بل وفى رفع الاطباق بعد تناوله . وحيث تعنى ربة البيت الإنجليزية بأن تدخل فى الروع ، مهما كانت مضيفة بارعة ، أنها بعيدة كل البعد عن دولاب العمل المنزلى فإن ربة البيت الأمريكية تفخر باتصالها الشخصى به . وبينما لا يستضيف الانجليز أحداً الا بعد أن ينتقل التعارف الى مرحلة الصداقة فان الأمريكيين يعرضون ضيافة سريعة بمجرد أن يبدأ التعارف ، وهذا أكثر فى حالة الفرنسى الذى تعتبر الضيافة بالنسبة اليه النتيجة المترتبة على المعرفة الطويلة وهى الأمر النادر حدوثه حتى فى العلاقات بين الاصدقاء الحميمين . فكوب من النبيذ بأحد المقاهى ، أو حديث بعد انتهاء العشاء ، أو دعوة الى حفل الاستقبال الذى تقيمه مدام (س) يوم الخميس من كل شهر — كل هذه الأشياء تقابل روح المودة عند الامريكيين والتى يبدو أنها تفترض أن الإنسان يسير فى طريق مباشر من التعارف إلى مرحلة تقرب من الصداقة الفعلية .

وجذور هذا الاتجاه على ما أظن نلقاها فى صفتين تميزان الحياة الأمريكيــة ، أولاهما — ولعلها أكثرهما أهمية — أن فكرة الديموقراطية كان معناها حتى نهاية القرن التاسع عشر على أى حال المساواة وأنه ليس من السهل أن تكون المساواة حقيقية بغير وجود الإخاء ، والخدمة المنزلية على أى نطاق كبير يندر الحصول عليها إلا فى حالة الأغنياء حقا ، كما كانت حرفة غالية الثمن أو عملا يؤديه صاحبه بعض الوقت بحيث تشعر ربة الدار بالسعادة إذا استطاعت استخدام طاه أو خادمة يمكن أن تكون فتاة تستعين بأداء الخدمة المنزلية لمدة ساعتين أو ثلاث ساعات فى اليوم حتى تحصل على المال الذى يمكنها من شق طريقها إلى الكلية . ويجب أن نضيف إلى ما تقدم هذا العدد الذى لاحصر له من الأسرات الأمريكية من أهل المدن الصغيرة والتى تعرف تفاصيل حياة جيرانها ، الأمر الذى يقابله فى انجلترا أن قلة من الإنجليز

تعرف جيرانها وأقل منها من تود إقامة العلاقات معهم . يكفى أن نوازن بين عادة الأمريكيين والإنجليز فى عربة التدخين فى قطار السكة الحديدية لندرك كيف أن الأولين يعرفون عمل وتاريخ بعضهم بعضاً قبل انقضاء ساعة من التلاقى بينما يرى الإنجليز أن أمراً يقرب من الحادث الخطير يمكن أن يبرر الحديث مع الغرباء ، وكان هذا صحيحاً حتى أثناء الحرب العالمية الثانية حين كان توافر درجة من التفاهم المتبادل عنصراً رئيسياً فى إحراز النصر .

والعامل الثانى فى نظرى يتمثل فى تأثير الحدود . فالغريب الوافد من جهات بعيدة وأمامه مسافات طويلة يقطعها يتوقع إن يلقى — وهو يلقى فعلا — عطفا فى معظم الأماكن التى يتوقف فيها خلال رحلته . أن لديه أخباراً هامة ويحصل على المعلومات التى يعتقد أنها تساعده فى رحلته . صحيح بالطبع أنه كلما استقرت الأحوال فى جهة قل احتمال وجود روح المودة هذه، فمن غير المحتمل أن يلقى المسافر فى ڤيرمونت العطف الذى يجده فى كاليفورنيا ، ومن المؤكد أن نيويورك ستكون أقل اهتماما بالرجل الذى يفد للاقامة بها بالقياس إلى أهل فارجو وداكوتا الشمالية أو فورت واين فى إنديانا . إن الغريب فى شيكاغو مجرد رقم فى جدول إحصائى إلا إذا كان ذا مركز عال، ولكن الغريب فى بولمان بولاية وشنطن يعتبر حادثاً فى حياة المدينة. فحيث ظلت مناطق الإقامة صغيرة الحجم نسبيا أو بعيدة عن الطرق الحديدية الرئيسية فإن بالولايات المتحدة روحا جماعية من المستحيل ألا نلحظها كعنصر له أهمية فى روحها ، وهذه تتوقف إلى حد ما على جنس المقيم أو دينه أو حتى أفكاره ، فالمودة التى تبديها بلدة صغيرة فى مينسوتا نحو رجل من اسكنديناوه أعظم مما يلقاه المقيم الإنجليزى ، تماما كما يكون الود الذى يلقاه فى إقليم الفحم بينسلفانيا أحد سكان ويلز أكبر مما يجده الكندى الفرنسى الذى يرغب الإقامة فى إحدى جهات تنيسى . غير أن النقطة الجوهرية التى أريد توضيحها أن الديمقراطية الأمريكية ولدت خارج العواصم الكبيرة نخوة ذاتية يصعب ألا ندرك أنها روح ذلك الإخاء الذى وضعت عليه فترة الثورة الفرنسية تأكيداً كبيراً .

وثمت سبب آخر لهذه الروح الودية . إنها تحطم عدداً غـــير يسير من تلك الحواجز الطبقية التى ظلت عالية ومانعة فى معظم البلاد الأوربية . فالفلاح الأمريكى الصغير الذى يكسب عيشه من الأرض بصعوبة ما يزال يشعر شعوراً عميقا بأنه مواطن من أهل الولايات المتحدة ؛ فهو لا يعيش على مجرد تلقى الأوامر التى هو مضطر إلى الوجهة العملية إلى طاعتها كالفلاح فى هنغاريا أو المستأجر المثقل بالالتزامات فى أسبانيا ولـكنه من وقت لآخر يعرب عن ارادته بطريقة لا تجرؤ أية حكومة على تجاهلها ، وإذا كان إلى حد غير يسير ضحية تلك العملية السريعة من الإستيطان والتصنيع فإنه يحس إحساساً عميقا بفرديته . والحق، أن ثمت معنىللقول بأنه على الرغم من الرهونات وسوء المحاصيل فالفلاح الأمريكىقدجعل منه رجلا جو الروح الأمريكية بالمعنى الذى قصده ماتيو أرنولد أى شخصا يكون آراءه بطريقته الخاصة على ضوءخبرة يصرعلى تفسيرها لنفسه.هذه النزعة ظهرت بشدةوقوة فى ثورة جيفرسون على السيطرة الفدرالية (الاتحادية) ، كما تبدت مرة أخرى فى تلك الحركة الشعبية الرائعة التى ظلت مدى جيل تدين بولاء لايتزعزع لوليم جينجز بريان.لم تكن الحركة حاذقة جداً فى مقدرتها على التنظيم ، وكانت تهزم عادة عند أخذ الأصوات، ولـكنها لم تعترف أبداً بهزائمها وحين تنتهى حملة إنتخابية كانت تفترض عادة حقها الديمقراطى فى أن تبدأ الاستعداد من جديد للحملة التالية . وكانت تراقب موظفيها عن كثب ولا تحكم على عملهم على ضوء كفاءتهم بقدر ما كانت تحكم عليه على أساس الإدراك بأنهم أشخاص صالحون لايتخطون حدودهم . فمن عضو فى مجلس الشيوخ مثل المستر بوراه إلى مأمور ضبطية فى مقاطعة، ومهما كانت أهمية الآراء السياسية التى يمثلانها فالأمر المهم فى نظر الشخص الذى يسعى إلى منصب انتخابى أن يعرف أهل الدائرة كما لو كانوا أعضاء جماعة واحدة ضخمة. كذلك غالبا ما كنا نجد،على الأقل فى الشخص الأمريكى المولد، الشعور بأن المنصب السياسى شىء خارج متناول الرجل المتوسط الـكفاية .

من الصعب ألا نفترض بهذا الصدد أن إنتخاب أندرو جاكسون لرئاسة الجمهورية أسهم فى تـكوين الروح الأمريكية بعنصر ما تزال له أهمية بالغة ، اذ حطم قبضة العائلات

الكبيرة فى ڤرجينيا ونيو إنجلند على الوظائف، وبعد سنة ١٨٢٨ كان من النادر وجود ميزة فى أن يكون المرء من أسرة عريقة غنية ودام ذلك حتى انتخاب فرنكلين روزفلت . وبالرغم من أن تيودور روزفلت قد يبدو استثناء من هــذه القاعدة فيجب أن تتذكر أنه دخل الأبيض نتيجة لاغتيال ماك كنلى وعين قبل ذلك نائباً لرئيس الجمهورية لكى تخنق أطماعه فى الرئاسة . وكل من يراجع قائمة الأشخاص الذين انتخبوا فى الفترة التالية لچاكسون سوف يدرك على الفور أن الذى يصل إلى المناصب الهامة الرجل غير العادى الذى يرجع إلى أصل عادى ؛ وإلى عهد قريب جدا لن نجد فى السجل مثل أسماء فاندربلت أوسالتنستال ، بل من الدقة القول إنه بالرغم من الفرص الضخمة أمام التعليم العالى فى الولايات المتحدة فالرجل الذى يدعى أنه علم نفسه بنفسه يبدأ بميزة ظاهرة على الذى دخل الجامعة بفضــل رعاية والديه . فقبل سنة ١٩٣٣ لم تلعب جامعات هارفاردوييل وبرنستون فى السياسة الأمريكية الدور الذى لعبته أكسفورد وكمبردچ فى السياسة البريطانية أو حتى مدرسة النورمال فى سياسة الجمهورية الثالثة . حين أصبح مدير سابق لجامعة برنستون حاكماً لولاية نيوچرسى ثم رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة جرت العادة على أن تنسب أخطاؤه الى أن حياته الجامعية عزلته طويلا عن الخبرة التى تتيحها الحياة العملية .

لم يكن للرجل العادى فى القرن التــالى لانتخاب چاكسون احتكار للميدان السياسى ولــكن الاحتمال فى أن يجد الطريق أكثر تمهيدا فى حالته أكثر منه فى حالة الغنى أو ذى المولد الطيب . ولهذه الحقيقة صلة وثيقة بالقوة الرائعة التى تملكها أدوات الأحزاب المختلفة فى كل ولاية لأنه اذا كان الأغنياء وذوو النشأة الكريمة عنصراً استثنائياً فى السياسة فقد كانوا بالرغم من ذلك وبطبيعة الحال تواقين الى أن لايعتدى أحد على امتيازاتهم ولذلك تعين عليهم عقد المحالفات مع الأفراد الذين يستطيعون حمايتهم ضد هذا الخطر ؛ ولما كان « السيد » فى المدن والاقاليم يسيطر على الأصوات عن طريق تسلطه على الآلة الحزبية صار من المحتوم قيام علاقة خفية بين أداة الحزب من جهة وكبار رجال الأعمال أو كبار الزراع من جهة أخرى .

غير أن هذا بدوره كانت له نتائج غير متوقعة ، فقد كان فى استطاعة « السيد » أن ينظم أتباعه بطريقة قديرة بفضل مقدرته على فرض نفوذه على البوليس والهيئة القضائية والموظفين العموميين والهيئة التشريعية . وترتب على ذلك أن كبار رجال الصناعة كما فى شيكاغو وبتسبرج وكبار المشتغلين بقطع الأخشاب كما فى كولورادو وعند ساحل المحيط الأطلسى ، وكبار مربى الماشية كما فى تكساس ، كانوا دائما على صلات وثيقة برجال كانت ظروفهم وعاداتهم تضطرهم إلى الحملة على الأولين علنا . وبعبارة أخرى كانت هناك ثلاث حكومات تملك السلطة فى كل منطقة فى وقت معلوم. فهناك الموظفون المنتخبون وهؤلاء وإن كانوا من أهل نيو انجلند المتكبرين مثل هنرى كابوت لودج لا يجسرون أبداً على أن ينسوا اعتمادهم على صوت مثل صوت الكاثوليك الإرلنديين فى بوسطن . وهناك السياسيون الذين يديرون آلة الحزب ، وهؤلاء مهما كانت الحرف العلنية التى يزاولونها يخصصون نشاطهم الأساسى لربط الناخبين بأحزابهم. وبطبيعة الحال كانوا ينتظرون الأجر الذى يتفق مع مايتطلبه هذا الجهد من وقت ومشقة . وهناك الطبقة الأرستقراطية فى عالم الصناعة أو الزراعة ، وبالرغم من أن أفرادها لا يتوافر لهم الوقت للاشتغال بالسياسة إلا أنهم كانوا يضمون الترتيبات بقدر ما فى وسعهم مع أدوات الأحزاب بقصد حمايتهم ضد الحركات الإصلاحية الجنونية التى يبدو من حين لآخر أنها تهددهم بالخطر .

ما كان فى وسع بلد أن يهيء جو الارتجال المعقد والسلبي أحيانا والذى تبدو به سياسته إلا اذا كان بلدا ذا توسع غير محدود وبالتالى قادراً على أن يفسح المجال أمام الآمال التى تكاد أن تكون بغير نهاية ؛ ولكن هذه هى الصفات المميزة لحياة الولايات المتحدة حتى فجر الثلث الثانى من القرن العشرين . مرت فترات من الذعر ولكنهم كانوا يتغلبون عليها دائما ، وحدثت بطالة ولكن قليلا من الناس ومنهم العاطلون أنفسهم كانوا يؤمنون أنه قد حكم عليهم بالبقاء دائما فى مرتبة الفقراء . وحدثت تلك الظاهرات المألوفة من الدورة الاقتصادية ، ولكن جميع الرجال الناجحين ومعظم الاقتصاديين كانوا يؤكدون للرأى العام أن هذه ليست سوى

الآلام التى تصاحب ميلاد حضارة جديدة . ومن وقت لآخر كان يساور الناس الشك فيما إذا كان نظام المشروع الخاص بما يصحبه من احتكارات تنمو بإطراد ومن إيمان بالحماية الجمركية وعيار الذهب ، سوف يحقق الحلم الأمريكى . ومن وقت لآخر كانت مظاهر الفخامة البالغة التى بدأ بها رجال مثل ڤاندربلت وجولد تثير الشك فيما إذا كانوا يمثلون ماتستهدف أمريكا أن تكون عليه . ولكن إذ شاهد معظم الناس ذلك المنظر الذى لايقبل التصديق لم يكونوا على تمام الثقة من أن هؤلاء القوم لم يكونوا الثمن الذى تعين على البلاد أداؤه ، كما بهرهم تأثير الأخيرين على أوربا التى كان من الواضح أنها موزعة بين رغبة المشاركة فى الأسلاب وبين الحسد الشديد لمستواهم الرائع . ومن المؤكد أنه فى الوقت الذى حقق فيه مورجان الأب تفوقه الرائع فى عالم المال كانت قلة صغيرة نسبيا تلك التى أصرت على أن أمريكا تتنكر للأغراض المنبعثة من نشأتها . لقد أحس معظم الناس بثقة لاتتزعزع فى الطابع التقدمى المستمر والذى يتسم به النظام السائد ، بل وأحسوا أن الذين رفضوا الإعراب عن هذه الثقة كانوا أنفسهم مصدر الخطر على هذا التقدم .

إن قدراً غير يسير من الروح الأمريكية شكله رد الفعل ضد ما اعتقد المواطنون الأمريكيون، وبحق أحياناً ، أنه روح أوربا الأمر الذى يفسر بصفة جزئية على الأقل حساسية الأمريكيين اذا وجه الأجانب النقد اليهم ، كما يفسر من جهة أخرى أن التقدم الهائل الذى حققته الولايات المتحدة أثار فى معظم أجزاء أوربا ، وبخاصة فى نفوس الطبقات الحاكمة فيها ، نوعا من الشماتة فيما يصيب أمريكا من فشل وما ترتكب من أخطاء . ويعتقد الأمريكى أنه شخص بسيط بينما الأوربى معقد، وأنه ديموقراطى والآخر أرستقراطى ، وأنه يؤمن بالمساواة فى حين أن نظام الأوربى قائم على الفكرة التى ترى أن التنظيم الطبقى للمجتمع هو وحده الذى يحافظ على النظام . ويصدمه ما يشيع فى أوربا من فقر ، وضيق مجال ما تهيئه من الفرص ، وعدم الرغبة فى تقدير المرء على ضوء كفايته . وهو يشعر بالاحتقار لعدد كبير من الأوربيين ممن ينعمون بامتيازات دون أن تكون لهم وظيفة يؤدونها ، ويميل إلى النفور من عادة الاحترام الذى يبديه الأوربى نحو « من هم أفضل منه » وهى العادة التى يراها متوطنة فى المجتمع الأوربى . ويحس بالفزع من قوة التقاليد فى الحياة الأوربية ، والخطى البطيئة التى يسير بها التغيير ، والخوف من التجديد ، والافتراض الأساسى السائد والذى بمقتضاه يشغل المرء المكان المقدر له والذى لا يأمل أن يتجاوز حدوده . ويزعجه افتقار أوربا الى الوحدة السياسية ، وطاقتها الصغيرة نسبيا فى الإنتاج ، وذلك القدر البالغ من انتشار الأمية، ورفضها تقبل المعانى والنتائج التى يتضمنها التغيير التكنولوجى. إنه ينظر الى أوربا على أنها تمثل حضارة تجاوزت ذروة المجد وسارت فى طريق التدهور ، وأنها تفتقر إلى القدرة على تجديد الأسس التى تقوم عليها . وهو لا يشعر بالميل الى احترام العادات البالية والحماس للقديم لمجرد كونه كذلك .

وليس فى وسع الأمريكى إلا أن يذكر أنه حتى الوقت الذى نشر فيه اللورد برايس كتابه الشهير كان الاستثناء لا القاعدة أن يكتب الأوربيون بروح مؤدبة

ومهذبة عن الحضارة الأمريكية ، ولعل خير دليل على هذا الشعور ظهر خلال الحرب الأهلية ، وليس ثمت ما يكشف عن وجهة النظر الأوربية مثل الحادثات التي سجلها ناساو سينيور أثناء زياراته لفرنسا ، أو موقف الصحافة البريطانية من قضية الشمال عموما ومن الرئيس لنكولن بوجه خاص (١) ؛ إذ الواضح أن الطبقات الحاكمة فى إنجلترا وفرنسا كان يساورها الأمل فى دوام الإنقسام فى الإتحاد ، وكان أفرادها يتعلقون فى لهفة بكل نبأ يشير إلى إحتمال فوز الجنوب . ومن الصحيح والمهم بطبيعة الحال أن الطبقات العاملة لم تتخذ هذه النظرة . وإن مما يستوجب الاهتمام أن من أول أعمال مؤتمر الدولية الثالثة أنه بعث إلى الرئيس لنكولن بخطاب أعرب فيه بحرارة عن تمنياته الطيبة . إلا أن الشعور العام كان يتمثل فى حرص الأرستقراطية الأوربية من أهل الثروة أو النشأة ، باستثناء روسيا القيصرية وهو أمر عجيب له مغزاه ، على ألا تقوم بالقارة الجديدة دولة بالغة القوة كالولايات المتحدة أكثر من إهتمامها بالمشكلات التى كانت موضع الصراع فى ساحات القتال . لا يكفى للدلالة على هذا أن لويس نابليون حاول إستغلال الصعاب التى تعانيها أمريكا كى ينشىء فى المكسيك دولة شبه تابعة لفرنسا ، أو أن رجالا مثل المستر جلادستون واللورد آكتون أخطأوا على نحو محزن فهم طبيعة الحرب ؛ ولكن الشيء المحزن بشكل واضح تماما أن اللورد بلمرستون واللورد جون رسل وأجها إحتمال الاشتباك فى حرب مع الشمال بقدر بالغ من الرضاء ؛ ولولا تصميم السفير الأمريكى فى لندن شارل فرنسيس آدامز ومهارة لنكولن كما تدل عليها التغييرات التى أدخلها على المراسلات التى بعث بها وزير الخارجية ستيوارد لما أمكنه تجنب ما كان يشكله فى مناسبات عدة التدخل الأوربى من خطر جسيم يهدد بتحطيم وحدة الولايات المتحدة . ولقد كان من باب التعزية اليسيرة عن تلك الصعاب أن رجالا من أمثال برايت وجون ستيوارت بل وكيرنز ممن ينتمون إلى الجيل

---

(١) Nassau, W. Senior : Conversations with ... Distingnished Persons during the Second Empire (London : Husst & Blackett, 1878).

الأقدم ومثل ليسلى ستيفن من الجيل الأحدث عهداً . كانوا يفهمون منذ البداية الأمور التى ينطوى عليها الحال .

إلا أنه يمكن أن نغفر للأمريكى إذا افترض ، خلال السنوات الممتدة إلى عهد تولى الجنرال جرانت رئاسة الجمهورية ، أن للبدأ الأساسى فى الحياة الأمريكية يكاد يتناقض تناقضا مباشراً مع مثيله فى الفكرة الأوربية ، إذ ربما كان من السهل أن يذكر نفسه ، كما يتجلى فى الكثير من كتابات جيفرسون ، بالأغراض البعيدة الغور التى تستهدفها أوربا . وكان يقال للأوربى إن الأمريكيين ماديون وصاخبون وبرابرة وغير كرماء ، وإنهم حيث يقربون من المعيشة المتحضرة فالثقافة التى تستأهل الإبقاء نلقاها فى العادات السائدة بالجنوب أكثر منها فى الشمال . إن الرجال والنساء الذين ألفوا هذه الأسطورة فعلوا ذلك ، مع استثناءات عارضة ، بسبب خوف واسع الانتشار بأوربا من تأثير أمريكا فى ميدان القوة ومجال الأفكار على عالم ما زال يرتاب فى المبدأ الديموقراطى ، كما أن قلة من الأوربيين من جهة أخرى هى التى فهمت جوهر نفسية الأمريكى الذى ما زال منهمكا فى مغامرة الإرتياد . ذلك أنه حين نعقد الموازنة بين الذنوب والخطايا التى تلصق بالأمريكيين وبين شرور الحياة الأوربية يتضح بما فيه الكفاية أن الفارق الحقيقى مجرد فارق بين قصور نضج أمريكى وسفسطة أوربية . إن انجلترا وفرنسا فى الستينات لم تخلوا من الرغبة العارمة فى تكوين الثروات ، وتوحى كتابات كارليل وماتيو أرنولد الإنجليزيين وفلوبير ورينان الفرنسيين إن فى البورجوازية الأوربية صخبا وبربرية لا يقلان عنهما فى بورجوازية الولايات المتحدة ، كما أنه فى تلك السنوات كان بسمرك ينمى سياسة « الدم والحديد » التى لا يسهل التوفيق بينها وبين عادات الحضارة . والقلائل ممن يوازنون بين الشمال والجنوب خلال الجيل السابق على الحرب الأهلية يستطيعون أن يكشفوا فى الأول ، باستثناء لطف المعشر ، عن فضيلة أسمى ؛ أما من ناحية الشجاعة والأفكار والنشاط والقدرة على الكشف فقد كان للشمال تفوق لا يرقى إليه الريب .

غير أنه فى العصر الممتد من تاسيس الولايات المتحدة حتى نشر كتاب اللورد برايس عن « الجمهورية الأمريكية » عام ١٨٨٨ فمن التعميم الصادق فى ظنى القول بأن الأمريكيين كانوا يعانون بالنسبة إلى أوربا عقدة الشعور بالنقص . فبالرغم من أنهم كانوا يشكلون أدبا قوميا رائعا فقد افترضوا أن معايير التفوق الأدبى يضعها الأوربيون ولا تحددها المستويات الأمريكية . وبالرغم من أنهم أظهروا عبقرية تكنولوجية يمكن على الأقل مقارنتها بالعبقرية الأوربية فإنهم لم يشكوا أن عليهم الاهتداء بأوربا فى مسيرهم . وإذا كان جنودهم وبحارتهم وساستهم يمكن أن نوازن بينهم مع أمثالهم فى انجلترا وفرنسا بل ومع مهارة هيئة أركان الحرب الألمانية ، على الأقل بصورة مواتية للأولين ، فقد كانوا يفترضون أن العالم القديم هو الذى يضع مستويات العالم الجديد . وبالرغم من أن ما حققته الثورة الصناعية فى أوربا يكاد أن يكون عبث أطفال بالقياس إلى ما حققه الأمريكيون فى الفترة ذاتها ، فقد تقبل الأخيرون بدون تحفظ تقريبا وجهة النظر التى ترى أنهم مقلدون وغير مبدعين . وحين يثرى منظموهم نراهم يزورون أوربا ويجمعون كنوزها ويرعون كتابها وأرباب الحرف من أبنائها ؛ وفى ظنى يصح القول بأنه فيما يتصل بالموسيقى والشعر والرسم والنحت تعد صفة الإنتاج الأوربى أرقى كثيرا من أى شىء تستطيع أمريكا أن تعرضه . كذلك يصدق الأمر على عالم الفلسفة والعلوم المجردة بخلاف العلوم التطبيقية . غير أن النتيجة التى ترتبت على هذا كله شعور الأمريكيين بمركب نقص من ناحية أوربا ، وهو شعور ظل قائما حتى القرن العشرين . لقد كان فى سلوكهم ذلك الطابع الذى يولده الخضوع للاستعمار ؛ ولذلك ما كانوا ليشعروا أنهم حققوا نجاحا فعلا إلا إذا حاز الثناء والإطراء من جانب الأوربيين . ومثل جميع الشعوب التى تعانى مركب النقص بدا فى عاداتهم مزيج غريب من العجرفة والخنوع . وترتب على تلك الإستجابة المزدوجة شعور من الحساسية لم تأخذ حدته تخف ليحل محله السلوك العادى إلا حين حدث اللورد برايس مواطنيه أنه قد قامت فى النصف الغربى من الكرة الغربية حضارة جديدة خلاقة ، تعلم الغير على الأقل بالقدر الذى تتعلمه .

كان كتاب اللورد برايس وصفاً رائعاً وإن أعوزه العمق الفلسفى الذى يتجلى فى مؤلف توكفيل قبل ذلك بنصف قرن وترجع أهميته إلى أنه أجتاز الفجوة الفاصلة بين أوربا وأمريكا بطريقة لم يقدر عليها كتاب قبله ؛ وعلى ذلك كان أثره الهام أن جعل فى مستطاع الأمريكيين التحرر من الاعتماد على أوربا. لقد بدأ تلك العملية الرامية إلى التحرر ولكنه لم يتمها ، وظلت لجامعات ألمانيا والفن الأدبى الأوربى السيطرة على الولايات المتحدة مدى ثلاثين عاماً بعد ذلك ؛ ويتضح هذا من تأثير چون هوبكنز ومما قاله هنرى چيمس بأنه يجب أن يضع الصورة الأمريكية فى إطار أوربى . إلا أنه بعد برايس لا تبرز فقط نظرية ف. چ تيرنر البالغة الأهمية والتى تفسر التطور الأمريكى على ضوء المؤثرات الناجمة من مناطق الحدود[1] ، وإنما يبدأ على نطاق هائل ذلك التحول فتصدر أمريكا أحكامها على أوربا بعكس الحال من قبل ؛ ويبدأ الأدب والعلم الأمريكيان يدعيان لأنفسهما أهمية تتساوى مع أهمية الأعمال التى حققتها أوربا. ويستطيع المرء أن يرى فى العقد التاسع من القرن الماضى أن الروح الأمريكية أخذت تتأقلم فى التربة الأمريكية .

ولكن هذا التأقلم عملية أبطء كثيراً مما نتصور عادة ، فحتى نهاية الحرب العالمية الأولى تقريبا ظل مركز أمريكا الثقافى فى أوربا ، كما لقى العمل فى ميدان العلوم الأساسية ، كالعمل الذى قام به ويلاروجيش مثلا ، التقدير قبل أن يحظى به من أمريكا. وحين تنتهى الحرب فإن الجيل الذى حارب فيها وإنتصر يصاب بذلك النقص فيرغب فى أن يجد فى باريس ولندن وبرلين وكابرى مالا يستطيع أن يجده فى الألف شارع التى تشبه مين ستريت بالولايات المتحدة ، ويحاول أن يجعل من قرية جرينتش فى نيويورك حيا لاتينيا فيه يستطيع السفسطائيون فى العالم الفنى ان يتحدثوا بعضهم إلى بعض كيف أن الأمريكى لا أمل له فى الهدوء أو التقدير بالولايات المتحدة ، وحيث يثبت أن إيدى جست شاعر معروف، وهنرى فورد رمز أحلامه ، وهارولد بل رايت الروائى الذى

---

(١) The Frontier in American History (Newyork : Holt, 1921), pp. 1 — 38

يحظى بأكبر عدد من القراء . ويكاد يبدو أن الآمال الكاذبة فى سنوات ما بعد الحرب جعلت الأمريكيين يرون فى أنفسهم ما سبق أن كتبه الأوربيون عنهم قبل أن يخرج بابس مؤلفه . هناك انهيار أصاب ثقة أمريكا بنفسها ، والرخاء السهل الذى شهده عصر الرئيس كوليدج كان تعويضاً يسيراً عن ذلك الإنهيار ، وهو الرخاء الذى يمكن أن يجعل الأفكار الإجتماعية لرجل غنى وملهم كالمسترفورد ذات اهمية حيوية .

والحقيقة على ما أظن أن إشتراك أمريكا فى حروب ثلاث كبيرة وحرب واحدة صغيرة — وهى الحرب الأهلية والحروب مع ألمانيا وأسبانيا — دفع بها سريعا إلى مسرح الشئون العالمية قبل أن تبلغ نفسيتها الكامنة مرحلة النضوج الحقيقى ، وإنى لأرى فى ذلك تفسير ذلك الرواء الدنىء والرخيص الذى بدا به العصر المذهب بفنه المعمارى الغريب وبما ساده من ظاهرة الإنفاق الباذخ بل المستهتر ، وبرغبته فى أن تمثله شخصيات مثل بلين ومارك حنا فى السياسة وجيتس (المعروف باسم Gates « Bet Million ») وڤاندربلت فى عالم المال ، وعجزه عن تقدير عظمة والت هويتمان ، ورفضه المشوب بالغضب الاعتراف بنقابات العمال ، وتضحيته الغريبة الداعية إلى السخرية بالفوضويين من أبناء شيكاغو على مذبح مخاوفه . ولذلك التطور ما يوازيه فى العقد الثانى من القرن التاسع عشر حين يمكن أن يكون دوجرتى وميلون أعضـــاء فى الحـكومة الأمريكية ، وحين يرغب الحـكم فى تجاهل أحداث مثل مذبحة سنتراليا وحين يصبح إخوان فان سفرنجن من قادة العمليات المالية ، بل وحين يعجز مؤرخ ناقد مثل بارنجتون الشهير عن أن يرى أن چيمس برانش كابل لا أهمية له كلية . مثل هذه الفترة وحدها كانت تستطيع أن تفترض أهمية جرترود شتاين وأن «علم» عذرا باوند حقيقى .

إلا أنه إذ يوازن المرء بين طبيعة الروح الأمريكية بعد الحرب الأهلية وطبيعتها بعد الحرب العالمية الأولى فمن المستحيل ألا يدرك ضخامة الفرق فى القدرة الخلاقة . فالفترة الاولى تتميز بالثقة فى النفس ولـكن عاداتها صاخبة وخشنة؛ ومنذ وفاة لنكولن

الى وقت إنتخاب تيووور روزفلت لم يدخل البيت الابيض شخص جدير بالتقاليد الاولى للجمهورية . قد تكونت ثروات ضخمة ولكن قلة من أربابها توافر لديهم أى شعور من المسئولية المتولدة من الثراء الكبير؛ ومعظم الذين كونوها أرادوا المال لمجرد القوة التى يخلقها أو لتبديده بشكل يلفت النظر يكسبهم سمعة سيئة . والفترة الثانية واثقة بنفسها أيضاً ولكنها دائماً تدقق فى هدوء فحص ذاتها ، وفى رجال مثل لافوليت الأكبر وجورج نوريس ولويس و. برانديز نراها تصر على وجود مستويات معينة للسلوك السياسى يتعين على المواطن الأمريكى المهذب أن يرعاها. ولا يقل عن ذلك مغزى التباين فى الصفة الأدبية لكل من الفترتين . فجون دوس باسوس وسنكليرلويس وأرنست هيمنجواى ووليم فوكنر — هؤلاء جميعا يحبون أمريكا حبا لا يقل عن الحب الذى غمر نفوس الذين تقدموهم ، ولكنهم جميعاً يصرون على أن فحص المرء لذاته لا يتعارض مع هذا الحب . لقد خلصوا أمريكا من ذلك « التقليد الدمث » الذى حمل حتى وليم دين هوولز على الإصرار بأن هناك موضوعات ، منها الجنس Sex مثلا ، لا ينبغى للمرء أن يمسها .

وحين يطالع المرء الرواية الأمريكية فى هذه الفترة يخالجه الشعور بأنه بينما تعلمت الدروس الكامنة فى كتابات كبار الروائيين الأوربيين فإنها مستقلة عنهم أيضاً من حيث الموضوعات التى تختارها والأسلوب الفنى الذى تعتمد عليه. لست أظن أنها فترة شعراء عظام على الأقل بالمعنى الذى يعتبر به والت هوتمان شاعراً عظيما ، ولكنها فترة تمثل عصراً يعرف أنه يجب أن يأخذ الشعر مأخذ الجد العميق ؛ وسواء كان الشاعر روبرت فروست أو كارل ساندبرج أو روبنسن جيفرس أو أرشيبالد ما كليش فأنها تنظر إلى الشاعر كما تنظر إلى المشرع أى تدعوه إلى الخلق والإبتكار . كذلك لا يقل التغير فى النقد أهمية . إن إرفنج بابيت وبول إلمر مور يمثلان فى الفترة السابقة على الحرب العالمية الأولى الاعتقاد المستقر بأن أمريكا قد عقدت صفقتها مع القدر ، وأن الحقيقة تنتهى حيث ينتهى شارع بيكون أو براتل . إنهما على يقين من أنهما يعرفان ، وينظران إلى الرجل الذى لم يستقر رأيه على شىء بعد بأنه أقرب إلى الدمار من الرجل الذى ينغمر فى إجراء التجارب الجذرية . ولكن النقاد الأحدث عهداً

ممن يأخذون مهمتهم مأخذ الجد مثل إدمند ويلسون يستخدمون قدرتهم النقدية في النفاذ إلى أعماق العناصر الحيوية فى الحضارة الأمريكية . إنهم على إستعداد للثناء على ما حققته أمريكا من عمل عظيم ، ولا يقل عن ذلك إستعدادهم لإبداء الشك فى المبادىء والمثل التى سلم بها الأمريكيون خلال جيل سابق .

ومما لا يقل أهمية كذلك موازنة البحوث والدراسات فى الفترة المبكرة بمثيلتها فى الفترة اللاحقة ، وأظن أن الإختلاف يكمن من جهة فى النطاق الضخم الذى تشمله الثانية ، وفى الإصرار من جهة أخرى على أن معايير الحقيقة يجب أن تكون أكثر تدقيقاً ومستويات التقدير أعظم قسوة وشدة . ويصح القول بطبيعة الحال أن الفترة المبكرة أنتجت دراسات معينة مثل « تاريخ الأدب الأمريكى ». لمؤلفه موسى كويت تيلر ، وهى دراسات لم تخرج الفترة التالية ما يفوقها وربما ما يعادلها . ولا شك أن المؤلفات التى وضعها أمثال باركمان وبرسكوت سوف تظل لها دائماً قيمة تاريخية مثل كتاب موتلى عن التاريخ الهولندى . إلا أن وجه الإختلاف الرئيسى بين المعرفة فى العصر المذهب ومثيلتها فى الفترة التى أعقبت عام ١٩١٤ أن القيمة تقاس فى الأخيرة وفق المستوى الأمريكى الذى رأى فى كليفلاند رجلا عظيما وأعجب بمارك حنا لأنه جمع بين القوة والثراء . والذى يطالع مثل مؤلفات هاسكنز عن النهضة فى العصر الوسيط ، أو فرجوسن عن أثينا الإغريقية وهما من الباحثين الذين يعالجون موضوعات غير أمريكية ، أو مثل مؤلفات آلفورد وكارل بيكر وشارل بيرد وآرثر شليزنجر ونكتفى هنا بأمثلة من التاريخ الأمريكى ، فسوف يخالجه الإحساس بأنه لا يجد هنا الأدلة قد حققت برقة ودقة فحسب بل وأنه يلقى مقدرة على عمل شىء أكثر من الوقوف إلى جانب الموضوع وتمجيد ما حققته أمريكا . إن كتابا مثل « إعلان الإستقلال » لكارل بيكر أو « نهوض الحضارة الأمريكية » لشارل ومارى بيرد، فيهما من سعة الأفق ونضوج الروح ماندر وجوده حقا فى القرن التاسع عشر .

وما يصدق على الأدب يصدق كذلك وربما بدرجة أقل على العلم . ما يزال

صحيحا أن العلم الأمريكي يميل إلى التخصص فى الناحية التطبيقية أكثر منه فى الناحية المجردة ؛ وحيث لا تكون الفلسفة الأمريكية نوعا من الفلسفة الأداتية فإنها لاتزيد قليلا عن كونها تكييفا للمدارس الأساسية فى الفلسفة الأوربية . ولكن تطور الفقه الأمريكي تفوق إلى حد بعيد على الفقه فى معظم البلدان الأوربية من ناحية الفهم الواقعى ، ومن المؤكد تفوقه على مثيله فى إنجلترا والذى لا يتجاوز دوره إحداث التغييرات فى أفكار جيريمى بنتام والسيرهنرى مين . لعل ما من قانونى أمريكي ملك عبقرية عمق النظرة التاريخية بتلك الروعة التى نلقاها عن ميتلاند وإن كاد مؤلف القاضى هولمز عن « القانون العام » لا ينزل عن مرتبة تلك النظرة ؛ ولكن ليس من منافس لأمريكا فى ربط القانون بكلية العلاقات الإجتماعية وهذه حقيقة من الصعب ألا نحس بها ، وإذا كان قليلا عدد إقتصادييها من ذوى المرتبة الأولى فى قوة التحليل وفى تطبيق علم الاقتصاد على الصناعة والزراعة، إلا أنى أظن أنه يمكن الإدعاء بأن الولايات المتحدة قد فاقت فى الجيل الأخير جميع منافسيها ، وتعظم روعة هذا النجاح إذا تذكرنا أن ما عملته أمريكا فى هذا الميدان وكانت له أهمية واضحة كان قليلا قبل الحرب الأهلية .

وليس فى وسع أحد أن يغفل أن النظام التعليمى الأمريكي بالرغم من ترقيعه لا يقل فى أفضل صوره عن أى شىء فى العالم . حقيقة نلقى أغلبه فقيرا من حيث الكم ، بل وفقيراً من ناحية هدفه فى الجنوب ، غير أن من يوازن بين حالة هارفارد أو ييل أو برنستن قبل الحرب الأهلية أو بعدها بقليل وبين ما أصبحت عليه منذ عام ١٩١٩ من حيث الهدف ومستوى ما حققته ، لن يشك فى ضخامة درجة التقدم . حقيقة بالطبع نجد فى الولايات المتحدة كليات لا حصر لها يصعب الدفاع عنها على أى أساس وبخاصة تلك الكليات التى لها صلات بالطوائف الدينية ، وإذا كانت هناك مدارس كثيرة من الدرجة الأولى فإن كثيراً منها كأنما لم تحرز تقدما من ناحية هيئات التدريس فيها ومبانيها . ومما لا يقل عن ذلك أنه بينما تقدم تعليم الزنوج منذ العقد

السادس من القرن الماضى إلا أنه لم يتقدم بالدرجة التى سار بها تعليم المواطنين البيض ، وما تزال المعارضة لتعليم الزنجى تتركه يقوم بقطع الخشب وحمل الماء لسادته البيض . وبالرغم من هذه الفجوة الهامة فالتباين فى التعليم بين المهدين ضخم للغاية . وبكل ما يتبقى أداؤه فليس من بلد آخر آمن تماما بأن تعليم المواطن شرط لبقاء الديمقراطية كما آمنت الولايات المتحدة (وبخاصة الولايات الغربية) ، وما من بلد آخر تغلب بهذه الدرجة الرائعة على الخوف الذى لم يزل بعد فى أوربا عامة وفى إنجلترا على وجه الخصوص من أن تعليم الجماهير يهدد الامتيازات التى تتمتع بها القلة .

ما المعنى الذى يدل عليه هذا التباين من حيث تأثيره على روح أمريكا ؟ فى ظنى أنه شجع نضوج العقل والروح الذى لم يكن من السهل دائما أن نكتشفه إلا فى أبرز الشخصيات الأمريكية مثل فرانكلين وچيفرسون فى تاريخ الولايات المتحدة قبل عصر وودرو ولسون ، ذلك أن النضوج القومى لا توضحه فقط القدرة على لعب دور له مغزاه على مسرح التاريخ العالمى ، وإنما توضحه كذلك قدرة الشعب على أن يدرك أنه يجب أن يكون قادراً على أن يضحك من نفسه ، وإذا لزم الأمر ، أن يعيد فحص المبادىء الأساسية الذى يقوم عليه . لعل من المبالغة القول إن الأمريكيين بوجه عام قد بلغوا تلك الصفة الثانية بأى حماس ، ولكنى لا أظن من المبالغة القول إنه خلال فترة ما بين الحربين . وبخاصة منذ الكساد العظيم ، فإن عددا له مغزاه من الأمريكيين ويتزايد باطراد قد أصبح يشعر بضرورة الاضطلاع بهذا الواجب .

لقد أدركوا أن عبارة « لا محالفات مربكة » والتى أشار بها چيفرسون على وشنطن ليس لها معنى جدى فى عالم تعتمد أجزاؤه بعضها على بعض . وأدركوا أيضا أنه بعقدم رجال مثل هيو لونج وجيرالد ك. سميث والأب كولن ، وأنه حيث يوجد فريق بالغ القدر من الناس المتعطلين والسلبيين من الامتيازات فان قوة الديموقراطية على البقاء فى خطر حقيقى ، مهما كان التقليد الأصلى . لقد احتفظت أمريكا التى عاشت فيما بين الحربين بقدر طيب من تفاؤلها ، ومعظم إيمانها بالتقدم ، واعتقادها القوى الواسع الإنتشار بأن أمامها مصيراً يختلف عن مصير أية شعوب أخرى . قد تجد مجموعة صغيرة من الأمريكيين الإلهام فى الاتحاد السوفييتى ، ولكن بالنسبة إلى الأغلبية الساحقة من الأمريكيين تعتبر البلشفية تناقضا مباشراً بل وشريراً للفكرة الأمريكية . وقد ترى جماعة أخرى أن أمريكا قد بلغت درجة الاستعداد لتقبل التطور الإشتراكى ، ولكن نتائج انتخابات الرآسة بعد عام ١٩٢٠ أوضحت بأن مثل هذه النظرة على الأقل لغاية فترة الحرب العالمية الثانية لا يرجى لها أن تحظى

بأى قبول على نطاق واسع ، وحتى الذين ظنوا أن فترة التوسع انتهت ظلوا على اعتقادهم بأنهم سوف يتخلصون بطريقة ما من النتائج المترتبة على انتهائها ، واحتفظت الأغلبية الساحقة برأيها فى أن ما يعمله النشاط الخاص خير من أى شىء تضطلع به الحكومة . لقد كانوا فى قبضة الفردية الاقتصادية كأنها كماشة ، ونظروا إلى الملكية الخاصة على أن لها مرتبة أدبية أسمى من الملكية العامة ، وكان لإنجيل النجاح سلطان شبه أسطورى على الناس . وحتى الرئيس فرنكلين روزفلت الذى كان عليه معالجة أعظم أزمة إقتصادية عرفها تاريخ أمريكا أكد بالرغم من ذلك أن النظام الأمريكى صالح تماما لتحقيق رخاء الشعب ، ولم يعز الانهيار إلى مبادىء كامنة فيه وإنما أرجعها إلى الإفساد المتعمد الذى طرأ على تلك المبادىء على يد قوم ركزوا اهتمامهم فيما يحقق رخاءهم دون النظر بعين الاعتبار إلى مصالح جيرانهم .

ومن الحقائق البارزة فعلا أن الكثير من التشريعات الصادرة خلال فترة السياسة الجديدة انطوت على تناقض مباشر للمبادىء الأساسية التى يقوم عليها الاقتصاد الأمريكى ، إلا أنه بالرغم من ذلك قيل دائما بعد انخفاض موجة الحماس الأولى لبدء الانتعاش أن السياسة الجديدة تعد فى الحقيقة ، كما ذكر الديموقراطيون ، النتيجة الطبيعية للروح الأمريكية ، أو أنها بتعارضها مع هذه الروح كانت تعرض الأمل فى تحقيقها للخطر ، ولم يظل على التعلق الشديد بالسياسة الجديدة سوى جماعتان فى الولايات المتحدة وهما نقابات العمال وأولئك الذين عهد إليهم بتطبيقها ممن جاء بهم الرئيس روزفلت إلى وشنطن ، وكانوا أساسا ممن يمارسون الحياة الأكاديمية ، أما الأغنياء وأصحاب الامتيازات وأغلبية المحامين ورجال المهن الحرة ومعظم الشخصيات البارزة فى ميدان الأعمال كانوا يبدون إزاء هذه السياسة عداء مستمرا لا يلين . ومما يلفت النظر أن الرئيس روزفلت واجه معارضة مرة من بعض أعضاء حزبه ومنهم عدد من ذوى الأهمية والنفوذ فى مجلس الشيوخ، كما كان يعارضه الحزب الجمهورى، وتعرض لنقد أشد مرارة مما لاقاه أى رئيس منذ لنكولن فى الحرب الأهلية وجيفرسون حين هزم الحزب الاتحادى . وكان جوهر النقد الذى تعرض له الاتهام بأن سياسته « غير أمريكية » .

ومن المهم أن نوضح ما قصده النقاد بهذا الاتهام . كان هدف السياسة الجديدة الحد من الأخطار المتولدة من البطالة بخلق ما كان من الوجهة الفعلية نسخة محدودة من دولة الخدمات الاجتماعية وانصب الاعتراض على أن هذا يفتت شعور الفرد بالمسئولية، ويضعف الروح الخلاقة التى تميز بها عنصر المغامرة الأمريكى ، ويزيد من قوة البيروقراطية إلى حد التضييق ، ويحطم دافع المواطن على بذل الجهد . وبعبارة موجزة سعى الناقدون إلى التشهير بالسياسة الجديدة بأن يعبئوا ضدها صورة أمريكا المشبعة بروح الارتياد ، وهى الظاهرة التى كانت قد انتهت بابتداء القرن العشرين . إن ما يلفت النظر فى السياسة الجديدة أنها لا تعدو فى الواقع كونها تكملة لتطور مستمر فى الأستياء من الفردية التقليدية ، وهو الأستياء الذى يرجع من جهة إلى ثورة شاى، ومن جهة أخرى على الأقل إلى الحركة الشعبية التى حدثت فى الفترة التالية للحرب الأهلية . ومن هذين الوجهين فإن النضال الذى شنه چيفرسون وچاكسون ضد المصالح المالية المتجسدة أولا فى الحركة الاتحادية وثانيا فى بنك الولايات المتحدة، يجب أن يكون حلقة فى سلسلة الحركات التى تقدمته ، وينطبق الأمر كذلك ـ ولو من زاوية مختلفة ـ على الحركة التقدمية الجمهورية التى تولاها تيودور روزفلت . هذا كله فى المستوى الاتحادى، أما إذا فحصنا خبرة الولايات فان وسكونسن التى أنبتت لافوليت الأكبر تمثل أكبر التطور فى التجارب الاجتماعية التى يمكن استبعاد عدد قليل من الولايات الثمانية والأربعين منها .

إلا أن روح أمريكا وجدت من الصعب أن تتقبل ما لم يزد فى الحقيقة عن كونه تأكيداً جديداً لخبرة قديمة . لقد بدا كأنما فى الفترة من جرانت إلى كليفلاند قد صيغ من كل ما ينبغى أن تكون عليه السياسة الأمريكية مادعاه المستر والتر ليبمان بعبارة تدعو إلى الإعجاب « صورة مصحفة » ، ونُظر إلى كل مايقرب من فكرة الدولة الإيجابية على أنه يكاد بالبداهة أن يكون انكارا لهذا التصحيف . هذا الأخير أصبح جزءاً حيا من تفكير الأمريكى العادى . أنه يتعلمه فى المدرسة ، وهو الإطار الذى يتضمن فى داخله التدريس بالكليات ، وباستثناء عدد قليل فأن الصحف من يومية وأسبوعية

ونعمل على تأكيده . والنتيجة أن الأمريكى يجد من الصعب الخلاص من الأنموذج الذى يفرض عليه . فإذا ما بدأ عملا فسرعان ما يقتنع أنه كلما قلت علاقته بالحكومة كان ذلك أفضل ، وإذا اشتغل بالمحاماة فان فرصه فى النجاح تتوقف على مقدرته فى إقامة علاقات مع رجال الأعمال ، وإذا كان مدرسا للعلوم الاجتماعية فإن سجل الجمعية الأمريكية لأساتذة الجامعات يشير إلى خطر الإنحراف عن الطريق التقليدى ؛ وعلى أى حال فالذين يتحكمون فى مؤسسات التعليم العالى يؤخذون من صفوف أولئك الذين يعتبر « التصحيف » بالنسبة إليهم شبه عقيدة دينية . وإذا كان مهندسا مثلا أو كيميائيا فإن فرصته للتقدم فى عمله يحتمل أن تتوقف على الشركات الكبرى التى تجعل التطبيق العملى لهذا « التصحيف » قانون وجودهم ، على ما أوضحت لجنة المصارف والنقد بمجلس الشيوخ فى سنة ١٩٣٣ . وبوجه عام ، إذا كانت له أطماع سياسية فسوف يجد أن أياً من الحزبين الجمهورى أو الديموقراطى فى أية فترة لا تتخللها الأزمات يتوقع منه تقبل ذلك «التصحيف» كشرط للصلاحية .

كل هذا يدفعنا إلى القول بأن الفكرة التى تقوم عليها الروح الأمريكية متخلفة بما يقرب من ثلاثين إلى أربعين عاما عن الحقائق الفعلية للحياة الأمريكية الاجتماعية والاقتصادية . إن على تكافؤ الفرص النظرى أن يربط بينه وبين الصورة التى رسمها ف.و. تاوسج ، س.س. جوسلين عن نمو المحسوبية فى المشروعات الصناعية[1].

إن توسع العالم الاقتصادى يجب أن يوفق بينه وبين عالم يضم فى الظروف العادية أربعة ملايين على الأقل من العاطلين الأمريكيين[2] ، ويمكن إذا توقفت طلبات الحكومة وعلى ضوء مستوى الإنتاج فى عام ١٩٤٠ أن يرتفع الرقم إلى ما يقرب من ستة عشر مليونا . والإيمان الشديد فى الفرص التى يوفرها التعليم يجب أن يوضح

(١) أنظر كتابهما American Business Leaders
(نيويورك ، مكميلان ، ١٩٣٢) .

(٢) Chester Bowles : To - Morrow without Fear (New York; Simon and Schuster, 1946).

ذلك الأنموذج الذى جعل فى عام ١٩٤٢ وحده مائة ألف من المدرسين فى الجنوب يتركون مهنتهم ليشتغلوا فى مصانع الذخيرة سعيا وراء أجور أعلى[1]. والإيمان بالتقدم يقابله من جهة ازدياد اعتقاد الطبقة المالكة أن الرأسمالية والديموقراطية لا يعيشان فى المستوى الواحد ، وانه بينما هناك نمو هائل فى تركز القوة الإقتصادية فهناك استياء متزايد من الجهد الذى يبذله العمال من أجل الانتظام فى سلك نقابات . إن الروح الأمريكية تمتدح بحماس حكم القانون ولكن من الصعب أن نرى أن حكم القانون يلقى الإحترام الواجب فى جاستونيا وباتيسون ، وفى قضايا مونى فى كاليفورنيا وساكو وفانزيتى فى ماساشوستس . إن إنتقال السياسى من الكوخ الخشبى إلى البيت الأبيض نظرية جذابة ، ولكن الواضح بصورة مطردة أن ذوى الثراء والنشأة يحصلون على المناصب الرئيسية التى تهيئها الحكومة . لقد كان المستر روزفلت الشخص الذى اختاره شعب أراد أن يثبت ثورته ضد تسلط القوة على حياته ولكن من المشكوك أن وزارة الخارجية كانت تضم عددا من الأغنياء فى السلك الدبلوماسى أكثر مما كان فى عهده . إن الروح الأمريكية معارضة للتدرج الطبقى فى التنظيم الاجتماعى ؛ ولكن قلة من البلاد الحديثة أضفت قوة أو سلطانا بهذا القدر على الذين نجحوا فى ميدان الأعمال أو المحاماة .

وباستثناء الأيام الأولى من حياة نيوإنجلند لا نجد مثل هذا العدد من المطبوعات ضد الاتجاه الذى اتخذته الروح الأمريكية ؛ ففى الرواية والمقال والقصيدة يكاد أن تكون الشخصيات البارزة جميعا من اليساريين ، وفى الفلسفة الأمريكية نجد أبرز شخصياتها ، چون ديوى وموريس كوهين من التقدميين كما كانت أعظم شخصية فى العلوم الإجتماعية خلال نصف القرن الماضى . لقد حمل ثورشتاين فبلن حملة عنيفة واسعة وان كانت معقدة ضد العصر الذى عاش فيه . هذا من جهة ومن جهة أخرى

---

(١) كذلك ليس من المحتمل أن عدداً كبيراً منهم فكر فى العودة إلى حياة التدريس .

يجب أن نتذكر أن الاتجاه الأساسى للفقه والدين بالولايات المتحدة كان تأييد الروح الأمريكية التقليدية ودعمها. وحتى إذا كنا نجد فى الكتابات الدينية الأمريكية إتجاها نحو التعبير عن أفكار نبيلة فان سلوك الكنائس الفعلى على اختلافها نادراً ما حاول ترجمة تلك الأفكار إلى أفعال . لقد سعت الروح الأمريكية إلى أن تجعل من الولايات المتحدة ملجأ للمضطهدين فى البلاد الأخرى ؛ ولكن قوانين الهجرة الصادرة منذ العقد الثانى من القرن الحالى جعلت من ذلك التقليد ذكرى باهتة أشاعت خيبة الأمل فى فترة من أشد فترات الأزمنة الحديثة مرارة بطبيعة الحال كان هناك عدد من الأفراد ، ولا يقل ذلك انطباقا على المحكمة العليا ، ممن انطوت نفوسهم بدرجة عالية من المقدرة على ذلك التقليد الذى من أجله تأسست أمريكا ، وحين أعلن الرئيس روزفلت فى عام ١٩٤١ ذلك الإطار النبيل من الحريات الأربع كأمر ممكن أن نهدف إليه أظهر أن فى الحلم الأمريكى حقيقة حية .

ولكن ليس فى وسع أى مراقب نزيه أن يحلل سير الروح الأمريكية فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر بغير إبداء بعض التردد بشأن النتيجة التى ترتبت عليه . لم يقف الأمر عند حد نمو العداء المرير لتقدم الزنوج ، بل وأكثر من هذا استخدمت الطبقة الحاكمة فى الولايات المتحدة الروح الأمريكية التقليدية . لتحول دون تطبيق الغرض الذى استهدفته الحياة الأمريكية على الحقائق التى واجهتها. فالقارىء الذى يطالع كتاب آل ليند « Middletown in Transition » ١٩٣٧ والذى وازنا فيه بشكل فعال بين الصورة التى رسماها والآمال التى جاشت فى نفوس رجال مثل إمرسون وثورو ، والذى يطالع أيضا تأكيدات چيفرسون ولنكولن سوف يجد من الصعب أن يكتشف فى الصورة المعاصرة تحقيقا للروح التى سعت أمريكا إلى أن تتضمنها . كانت هناك هوة واسعة بين الحلم والحقيقة ؛ وكان هناك تعارض بين إيمان أمثال چيفرسون ولنكولن البسيط وبين الحقيقة العابسة التى توضحها دولة أمريكية يعتبر فيها الجنوب بالرغم من ازدياد التصنيع مأساة إقتصادية، وفيها يبدأ الشمال خارج الولايات الزراعية مثل ڤيرمونت ومين يقترب من مركز

أوربا . ولا يقل عن ذلك كله أن مما له مغزى أن أمريكا الغنية كانت على قدر من الإرتباط بعادات الأرستقراطية الأوربية بحيث فقدت قدراً غير يسير من بساطتها وقدراً أكبر من فراستها المباشرة والمتحمسة . وكما أظهرت الحرب العالمية الثانية بوضوح احتفظت الروح الأمريكية بكل ما فى حيويتها الأصلية من قوة ، ولكن كان أبعد من الوضوح أنها كانت توجه صوب الغايات التى جعلت من الولايات المتحدة مصدراً للأمل والراحة للفقراء والمظلومين . إلا أن ذلك كان التبرير الأسمى للمغامرة الأمريكية .

الفصل الثالث

النظم السياسية الأمريكية

النظم الإتحادية

— ١ —

إنها لقلة تلك النظم السياسية التى لم تتغير إلا قليلا من حيث الشكل كما هو الحال بالنسبة إلى الدستور الذى وضعه مؤتمر فيلادلفيا عام ١٧٨٧ . فما زالت إنتخابات الكونجرس والرآسة تجرى كل سنتين وأربع سنوات على التوالى ، فى السلم أو الحرب؛ وما تزال تمثل المهزلة المحبوكة عن المؤتمر الإنتخابى والعالم كله يعرف أنها فقدت أى معنى ؛ وما يزال الناخبون يولدون تحت راية الحزبين الجمهورى والديموقراطى وإن كان من الصعب التفرقة بينهما ، بل من غير المؤكد إعتبارهما أحزابا بالمعنى القومى أو الأيديولوچى . وما تزال كل ولاية تقدم « إبنها المفضل » إلى مؤتمر الحزب لاختيار المرشح للرآسة ، يحدوها أمل ضئيل فى أن يترتب على الصراع بين المداوات الأخرى أن يصبح له مغزى . ويتعرض كل نائب رئيس تقريباً للنسيان أو إعتباره أشبه بنكتة تلقى فى إحدى الصالات ؛ فإن كان ذا مغزى سياسى كالمستر هنرى ولاس فهناك الاحتمال بعدم تعيينه مرة أخرى . ويحظى مجلس الشيوخ والمحكمة العليا باحترام المواطنين وإن مرت فى حياة كل منهما لحظات بدافعها احتمال زوال قبضة الهيئتين عليه . وكان مجلس النواب دائما أقل الأنظمة الإتحادية نجاحا وما يزال محتفظا بهذه الصفة التى لا يحسد عليها . وهيئة الموظفين شبه الدائمين فى الحكومة الإتحادية ما تزال فى الغالب هيئة من الاداريين من الصف الثانى ، ممن ينفذون سياسة ليست لهم غير رغبة يسيرة فى تشكيلها ، أكثر منها هيئة تبنى المواد التى تقام على أساسها السياسة .

وأعظم تغيير طرأ على النظام الإتحادى نلقاه فى مغزى منصب رآسة الجمهورية . لا يقتصر الأمر على أن انتخاب عام ١٩٤٠ وضع حداً لتقليد الفترة الثانية ، بل الأهم من هذا بكثير الإزدياد المطرد فى قوة المبادأة من جانب الرئيس ، كما تتركز على أعماله أنظار الشعب بدرجة أصبحت عادية جداً بعد أن كان ذلك استثناء ، وتكاد أفكاره جميعا أن تصبح أنباء . إن الفارق بين برلمان صالح وآخر سىء فارق بين البرلمان الذى يتقبل زعامة الرئيس وذلك الذى يرفض موقف للبادأة الذى يراد فرضه . وفضلا عن ذلك وصلت أمريكا فى تطورها إلى مرحلة لم يعد فيها المواطنون يخاطرون بأن يعهدوا بتوجيه الأمور إلى رئيس مثل هاردنج ، كما لا تحتمل إنجلترا رئيس وزراء مثل اللورد جودريتش ، لأن أمريكا لم تعد تسمح بذلك اللون من السلبية فى البيت الأبيض مما كان سياسة هاردنج وكوليدج . ليس عبث السلبية فى الرئيس وليد الكساد العظيم والسياسة الجديدة المترتبة عليه ، فقد وضح منذ بداية القرن على الأقل أن صفة السياسة الإتحادية يعينها طابع الذى يتولى الرآسة .

لست أقصد أن الرئيس العظيم معناه برلمان عظيم ، بل يتوافر الدليل على أنه كلما كان الرئيس أكثر ظهوراً زاد الاحتمال — مع التسليم بتأثير تقسيم السلطات — أن يجد فى الكونجرس عداء وإن كانت له الأغلبية الرسمية . وتعليل ذلك أنه حين يكون للرئيس سياسة يتقدم بها يزداد اهتمام الرأى العام بالسياسة عمقا ، وحتى إذا اشتبك فى صراع مع الكونجرس ، كما حدث بالنسبة إلى إقتراح المستر روزفلت عن إصلاح المحاكم ، فإن مسرحية الحرب السياسية تثير اهتماما عاما على قدر كبير من الأهمية . وتلك غاية إدراكها أمر مرغوب فيه بدرجة عالية ، لأنه باستبعاد الجماعات الضاغطة فعنصر الضعف فى السياسة الإتحادية عجزها عن إثارة إهتمام الرأى العام فى غير أعوام الإنتخاب . إن الرئيس العظيم يلقن الشباب درسا ساميا ، ويركز عقولهم فى الأهداف الكبيرة ، ويعتبر وقاية ضد البلادة التافهة التى لا تجعل من الديموقراطية أكثر من مجموعة من الأشخاص . ولهذا فالمغزى الذى ينطوى عليه وجود رئيس عظيم لا يكمن فى التدابير التى يستطيع تنفيذها وإنما فى عظم مايثيره من إهتمام الرأى العام . إنه

يضفى على العملية الديموقراطية وضوحا وحقيقة تفتقر إليها إذا مانولى المنصب رئيس ضعيف .

والجدير بالملاحظة أن الرئيس وحده قادر على تحقيق هذه النتيجة . ويبدو على رجال وزارته ، ولو كانوا ذوى مقدرة رائعة ، العجز عن إثارة الإهتمام المستمر لدى الرأى العام مما تتطلبه الديموقراطية ، ويرجع هذا بالطبع إلى أن دائرة عمل الوزير الأمريكى محصورة نسبيا ، ولهذا فالأدنى إلى الإحتمال أن تثير أقواله وأفعاله إهتماما خاصا وليس عاما . أضف إلى ذلك أن كونه مستشاراً لرئيس الجمهورية ويعتمد على سلطة الأخير إعتماداً كليا نوعا معناه أنه لن يكن له مغزى إلا فى صلته بالرآسة ، كما أن صفة النظام الإتحادى فى أمريكا تميل إلى حصر نشاط الوزير فى وزارته تقريبا لأن الشخص المنتخب لا المعين هو الذى يميل إلى ذلك النوع من التعليقات السياسية العامة والتى اعتادها الإنجليز بفضل نظامهم البرلمانى . فالإنجليز لا يدهشون إذا ألقى المستر هربرت موريسون أو المستر انتونى إيدن ذلك الطراز من الخطب السياسية العامة مما تتوقعه من رئيس الوزراء بينما يعجب الجمهور الأمريكى لوأن المستر هـ ل. ستمسون وهو وزير للحربية ناقش علنا أساليب تنظيم الأمن الدولى فى عهد السلم إذ المفروض أن هذا من إختصاص وزير الخارجية أو من مسائل السياسة العامة التى تعد من جانبها التنفيذى مشكلة ينتظر من رئيس الجمهورية أن يعالجها .

والنتيجة أن كل وجود السياسى وبالتالى النشاط فى النطاق الإتحادى يرتد ثانية إلى الرئيس قد تكون المسألة بسيطة الأهمية أو حيوية مثل تقرير نظام الإعارة والتأجير أو بناء سد كولى ، ولـكن موقف الرئيس منها هو الذى يحدث التأثير الشامل على الرأى العام لأنه الوحيد الذى تلقى آراؤه الإهتمام ، ولـكن الواضح أن صفة ذلك الإهتمام تتوقف على مايقول . فاذا حدث أن تجنب رؤساء الجمهورية كل مشكلة تواجههم كما فى حالة بوكانان أو تركوا المسائل العادية تتراكم كما فعل كوليدج ، فمن الطبيعى أن يخفقوا فى إثارة إهتمام الجماهير بأهدافهم . قد يخلق الرئيس المتبلد الذهن ذلك الإهتمام بالعجز عن الإتفاق مع الـكونجرس ، وفى هذه الحالة تثير المسرحية

الناخبين ليشهدوا الصراع الناشب ، ولكن يندر هذا لأن مثل هذا الرئيس ينحصر غرضه الأساسى فى إنقضاء مدة رآسته بأقل قدر من الإزعاج .

ولا يستطيع أحدأن يستعرض سجلالتاريخ الأمريكى دون أن يساوره الإعتقاد بأن صفته تتوقف بدرجة متزايدة على الزعامة العظيمة ، ولا يسع الادعاء بامكان إدراكها إلا إذ ارتبطت بمنصب الرآسة . قد يشغل أفراد ممتازون مناصب الوزارةأو عضوية مجلس الشيوخ مثل ويبسترأو كلاى أو كلهون قبل الحربالأهلية أولافوليت أو بوراه أو نوريس بعدها ، غير أنهم لا يستطيعون وضع برنامج عظيم أو تنفيذه دون استمداد القوة من البيت الأبيض . قد يمسون نواحى هامة منالحياةالأمريكية بطريقة مهمة ، فتطور هيئة وادى التنيسى سيظل مرتبطا باسم السناتور نوريس ، ولكن إذا لم تكن القيادة مستمدة من منصب الرآسة فالأكثر احتمالا فى العادة أن تكون سلبية أكثر منها إيجابية ، بل وأكثرمن هذا يعوزها التناسق والاستمرار. إن أمام الرئيس ذى الأفكار فرصا سامية لا ينافسه فيها أحد طالما يشغل منصبه . فأنظار الشعب بأسره تتجه نحوه ، ومهما كان الصوت الذى لا يسمعه الشعب فمن المؤكد أن صوت الرئيس على الأقل سوف يسمع . ومجرد كونه رئيسا للجمهورية يؤدى إلى الافتراض بأنه سوف يبين الاتجاه الذى ينبغى أن يسير فيه الشعب . إن له سلطة لا يملكها أى شخص ينتخب بطريقة ديموقراطية لأن طبيعة منصبه ذاتها تدعو إلى المبادأة مما لا يقدر عليه سواه ، ولهذا يدور حظ الولايات المتحدةالسياسى حول الشخص الذى ينتخب لهذا المنصب . فاذا كان شديد الرغبة فى تنفيذ برنامجه فسوف يكون واثقا أن الرأى العام لن يناقش سوى هذا البرنامج . وحتى إنأخفق فى تحقيق أغراضه فمجرد أن النقاش يدور على نطاق واسع مؤداه أن السياسة واضحة وجذابة . ليس من الأمور العارضة أن الرؤساء الإيجابيين فى التاريخ الأمريكى هم الذين جاءوا دائما تقريبا برجال من ذوى العقول المفكرة إلى وشنطن .

حقيقة لم يكن الرؤساء الأمريكيون ذوى أهداف إيجابية يعملون على تحقيقها ، فالتنافس الحزبى جاء إلى المنصب بأغبياء لمجرد كونهم « أيسر منالا وأصلح » ممن

يسيبون الإثارة ، كما رفع الموت أو الاغتيـال رجالا اختارتهم مؤتمرات الأحزاب لا لسبب إلا أن أعضاءها كانوا يتعجلون العودة إلى دورهم . كذلك يجب ألا نغفل أن صفة الأنظمة الإتحادية فى الولايات المتحدة تبدأ بالافتراض أن الرئيس النشيط يجب صده . فمنذ أيام چورج وشنطن كان مبعث قلق مجلسى الـكونجرس محاولتهما، ما وسع الجهد ، منع الرئيس من زعامة لا ينافسه فيها أحد أو غير مقيدة . وإنها لحـكيمة ملاحظة كلفن كوليدج من أن هناك فى العادة ستة وتسعين رجلا يقيمون فى الطرف الآخر من طريق بنسلفانيا[1] لا يقف بهم الأمر عند حد الظن بقدرتهم على عمل معظم الأشياء مثل رئيس الجمهورية بل ويعتقدون إعتقاداً قويا بأن فى وسعهم أن يفعلوا ذلك الشيء المخصوص على نحو أفضل مما يعمل ؛ أو أنهم من جهة أخرى تواقون إلى منعه من عمل ذلك كلية وحتى إذا كان من المهارة بالقدر الذى يجعله يعالج مجلس الشيوخ حسب إرادته — وليس من السهل المبالغة فيما يتطلبه الأمر من مهارة — فان عليه أيضاً معالجة مجلس النواب ومراقبة ميول أعضاء المحـكمة العليا ببعض الحـــذر وأحياناً بعض الذين سبق له تعيينهم . وحينما يصح القول بأن الـكونجرس ، وهذه ظاهرة غريبة نوعا ، لم يخرج من صفوفه سوى رئيس جمهورية واحد فى القرن العشرين ، فقد ضم عدداً كبيرا من الأشخاص هدفهم الوحيد إحباط سياسته ، ولا يحتمل بقاء شخص فى البيت الأبيض لبضعة أسابيع دون أن يتعلم الـكثير عن عددهم ونفوذهم .

تعليل ذلك أن الإطار التاريخى الذى وضع فيه الدستور كان معناه أن الهيئة لتشريعية راقبت السلطة التنفيذية دائما بعين الحذر بل والعداء غالبا . فارتباط مجلس الشيوخ بالسياسة الخارجية والتعيين فى الوظائف العليا ، وثبات مـدة العضوية فى المجلسين، وإتمام قدر كبير من العمل فى الجلسات السرية للجان الـكونجرس، والقاعدة الباعثة على السخرية والتى بمقتضاها يعين كأعضاء فى اللجان الرئيسية وأحياناً فى مناصب الرؤساء الحيوية بها ، رجال مؤهلهم الوحيد طول عضويتهم بالهيئة التشريعية — كل

---

(١) يقصد المؤلف مجلس الشيوخ (المترجم) .

هذه الأمور تميل إلى حمل الرئيس القوى على تقبل الحلول الوسطى ، كما أنها مسئولة عن نوع من الرقابة التى تسبق الوضع والتى يجب على كل رئيس أخذها فى الاعتبار. ولا نكاد نبالغ فى القول إن رؤساء اللجان الرئيسية مثل لجنتى العلاقات الخارجية بمجلس الشيوخ والميزانية بمجلس النواب، وإلى عهد قريب جداً رئيس المجلس الأخير، إذا لم يكونوا ممن نافسوا الرئيس على المنصب فقد استطاعوا ممارسة نوع من الفيتو على سياسته ، كما كان الحال بالنسبة إلى السناتور ڤاندنبرج فى مسائل السياسة الخارجية منذ عام ١٩٤٦ . وحتى كوليدج فى أوج شعبيته تقبل الإذلال الناجم من رفض اللجنة القضائية بمجلس الشيوخ الموافقة على من عينه لمنصب النائب العام . وبالرغم من انتخاب هوفر للرئاسة بأغلبية ساحقة سنة ١٩٢٨ لم يستطع حمل الكونجرس على قبول فكرته عن التعريفة الجمركية . وأعيد انتخاب المستر روز فلت سنة ١٩٣٦ ولم يمض قليل حتى رفضت مقترحاته بشأن إعادة تنظيم المحاكم الاتحادية رفضا حاسما .

الواقع إلى حد ما أن الرئيس ووزراءه يواجهون شبه هيئة تنفيذية مكونة من رؤساء اللجان ، ليس هدفها ابتداع السياسة مباشرة بقدر ما هو الربط بين أغراض الرئيس وآراء الكونجرس . ما من رئيس يستطيع أن ينفذ سياسته كلها ، وحتى وشنطن تعلم ذلك . إن المشكلة التى تواجهه تنحصر فى تنظيمه لقواه بحيث يشق بعض طريقه لا فى مجرد الاحتفاظ بأنصاره وأكثر من ذلك فعليه إقناع الناخبين غير الحزبيين بأنه رئيس ناجح . وهذا الإقناع متعدد المعايير ، فهو يتوقف على حالة البلاد ولذلك ما من شىء كان يستطيع أن يعين انتخاب هوفر عام ١٩٣٢ ، وعلى قوة المرشح فى نيل التأييد الكامل القوى من جانب لجان الأحزاب فى الولايات الثمانية والأربعين إذ خسر القاضى هيوز المعركة سنة ١٩١٣ لإخفاقه فى كسب تأييد الحزب الجمهورى بكاليفورنيا. وتتوقف أيضاً على اعتقاد الناخبين غير الحزبيين «بصلاحيته». ولن يعتبر صالحا إذا كان كاثوليكيا أو يهودياً أو ملحدا ، أو كانت آراءه غير مألوفة عن المسائل الاقتصادية كالعملة ، أو من سلالة الجيل الأول المولود بأمريكا . وتظهر تجربة فرنكلين روزفلت إمكانية إعادة انتخابه بالرغم من المعارضة القوية من جانب الصحف ، وإن كان من المحتمل على الأقل أن يتغلب على تأثير الصحافة عن طريق

مهارته فى الإذاعة . وبالرغم من صحة القول بأن هتلر من العوامل التى أدت إلى إعادة انتخاب روزفلت للمرة الثالثة فمن المؤكد أن المستر ويلكى ظل منافسا خطيراً إلى أن استعان المستر روزفلت فى الأسابيع الأخيرة من أكتوبر بسحر شخصيته أمام المذياع .

والذى يمعن النظر فى تاريخ الرآسة يراها مرت بفترات ثلاث ، مع استبعاد حالات استثنائية تعزى إلى ظروف الحرب . وتمتد الأولى من قيام الجمهورية إلى ختام رآسة جاكسون الثانية ، وخلالها كان الرؤساء من الممتازين وتولى معظمهم المنصب مرتين، كما أدخلوا بعض الإيجابية فى التقليد الرآسى . والفترة الثانية من جاكسون إلى وودرو ولسن ، وفيها لا نجد رئيسا ذا سياسة إيجابية يتقدم بها مع استثناء لنكولن . ربما كان كليفلاند قوى الخلق إلا أن سجله خلال فترتى رآسته لا يتضمن ما يلفت النظر فيما عدا عداوته للتنظيم العمالى وتعلقه بعيار الذهب . وتميز تيودور روزفلت بشخصية رومانتيكية حسنة المظهر وبما يشبه العبقرية فى الدعاية ، ولكن مدة رآسته مليئة بالصخب والغضب دون أن يكون لها مغزى دائم . ولو توافرت لوودرو ولسن حرية الاختيار لما اختلف عن أى ديموقراطى من الطراز القديم بالجنوب ، ولكن ظروف زمنه اضطرته إلى أن يلعب دوراً إيجابياً سواء بصدد قانون Federal Reserve Act أو السياسة الخارجية . وبينما يصح القول أنه خلال فترة رد الفعل الناجم من نهاية الحرب الأوربية تبدو السنوات الممتدة من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٢ كأنها شبه بعث للفترة التى أعقبت الحرب الأهلية ، فمن المهم أن نلاحظ أن العداء لسلبية كوليدج وهوفر قام على الإدراك بأن منصب الرآسة يجب أن يكون نشيطا لا إيجابيا فى صفته .

ذلك الإدراك وصل إلى ذروته خلال العهد الأول للسياسة الجديدة ولا يتعدى معناه تقبل الرأى العام لفكرة أن عنصر المبادأة فى الرئيس جوهر الصرح الإتحادى. فاذا قيل إن ذلك التقبل وليد الكساد العظيم لا أى حدث دونه فالجواب فى نظرى بسيط لأن الكساد نفسه كان ثمرة محاولة من جانب ثلاثة من رؤساء الجمهورية للعودة إلى دور

السياسة السلبية . ومن جهة أخرة فناقدو السياسة الجديدة الرئيسيون لم يعارضوا أساليبها بقدر ما اختلفوا على الذين يتولون تنفيذها . ربما كره الجمهوريون السياسة الجديدة وأعمالها جميعا ولكنهم فى عامى ١٩٣٦، ١٩٤٤ على السواء طالبوا بالسلطة على أساس أنهم يستطيعون تحقيق مبادئها الأساسية على نحو أفضل . وبمجرد دخول الولايات المتحدة فى الحرب العالمية الثانية ما كان فى وسع شخص له أدنى قدر من الخيال ان يفترض ان الرئيس الأمريكى سوف يتنازل عن حقه فى المبادأة الطويلة الأمد دون أن يهوى بالنظام الاتحادى إلى حالة لا مهرب فيها من الاضطراب والتفكك. لقد وصلت فترة الدولة الإيجابية الى امريكا بصورة حاسمة كما فى أوربا وبوصولها لم يعد للسلبية مكان فى البيت الأبيض أكثر منه فى داونج ستريت أو الكرملين .

إن المراقب الأجنبي لا يجد إلا القليل مما يفوق الأحزاب الأمريكية غرابة ، فهي من ناحية لا تعد قومية في مداها إلا في أوقات الإنتخابات ، بينما تعتبر من ناحية أخرى تنظيمات محلية تلتف حول الأشخاص أكثر من التفافها حول الأفكار . بل إنها تكاد لا تمثل المصالح بالمعنى الذي يجعل في الإمكان التمييز بين أغراضها إذ من الصعب حقا أن نجد معايير لأفكار دائمة تعتبر جمهورية أو ديموقراطية . صحيح بالطبع أن موقف الديموقراطيين والجمهوريين من مشكلة الزنوج مختلف ولكنه موقف لا ينبعث من أي أساس أيديولوجي بقدر مايرجع إلى التوزيع الجغرافي ، أما في المسائل الأخرى جميعا فإن الأحزاب تتداخل من ناحية المذهب . يمكن القول بوجه عام أن الجمهوريين يستمدون قوتهم الأساسية من المصالح الصناعية بينما يستمدها الديموقراطيون من المصالح الزراعية ، ولكن مين وڤرمونت من أشد أنصار الحزب الجمهوري مع طغيان الزراعة عليهما ، وقد يكون إتجاه الرأسمالية المالية جمهوريا أكثر منه ديموقراطيا ولكن حدث من وقت لآخر أن اجتذب الديموقراطيون تأييد فريق من أغنى أفراد الأرستقراطية المالية . وباستبعاد التاريخ الإنتخابي ليس من السهل التمييز بين سياسة الأحزاب ويمكن أن يتغير الأشخاص في كل منها بغير عناء كبير . فالمستر هنري ا . ولاس وهو ابن وزير زراعة جمهوري أول من شغل ذلك المنصب في وزارة فرنكلين روزفلت ثم صار نائبه ، بينما كان وندل ويلكي المرشح الجمهوري في عام ١٩٤٠ من أشد مؤيدي المستر روزفلت عام ١٩٣٢ ، وكان المستر هارولد إكس وزير داخلية روزفلت بعد عام ١٩٣٣ جمهوريا تقدميا منذ عام ١٩١١ وشديد التحمس لروزفلت الأكبر في تلك الحملة الشهيرة .

هذا النوع من الاضطراب نتيجة طبيعية للنظام الحزبي في أمريكا ذلك أنه مامن حزب له زعيم دائم إذ طالما يشغل رئيس الجمهورية منصبه فان نفوذه يطغى على الحزب الذي عينه . وجرت العادة أن يلعب الرؤساء السابقون بل والمرشحون السابقون

للرآسة دوراً هاما فى حزبهم غير أن طبيعة ذلك الدور غير واضحة أبدا . فإذا قنع لاندون حاكم تكساس السابق والرئيس السابق هوفر أن يكونا جمهوريين نظاميين يؤيدان كل ما يقرره المؤتمر الوطنى لحزبهما ، فان البعيد عن الوضوح أن يقنع المستر ويلكى بذلك النوع من الإنتظام . وكان الشيخ السابق برتون هويلر المرشح الديموقراطى لمنصب نائب الرئيس ولكن عدداً قليلا من الجمهوريين بذل من الجهود فى محاربة الرئيس روزفلت أكثر منه . ومن الناحية الرسمية كان أمثال وايس نائب تكساس السابق أو بيرد عضو الشيوخ عن فرجينيا أعضاء فى الحزب الديموقراطى ولكن كان من المستحيل على الرئيس روزفلت الاعتماد على تأييدهما كما اعتمد على روبنسن عضو الشيوخ عن أركنساس أو واجنر عضو الشيوخ عن نيويورك. إن دوام المبدأ فى الحزب السياسى الأمريكى أقل منه فى حالة الحزب البريطانى ، ذلك أنه مجموعة من أنصار يتجمعون حول زعيم مؤقت يفرض عليهم نفوذه . ووحدة الحزبين الكبيرين تنشأ من المبادىء التى يطبقانها على المشكلات التى يواجهانها أكثر مما تنبعث من شخصية الزعيم الذى يختاره الحزب مؤقتا . وإذا حل محل الزعيم فى حالة الهزيمة غيره كما حل محل ويلكى سنة ١٩٤٠ وديوى سنة ١٩٤٤ فقد يتغير موقف الحزب نظراً لتغير نظرة الرئيس .

الواقع أن كون الأحزاب السياسية بالولايات المتحدة أحزاب قارة نادراً مايجعلها موحدة بالمعنى الأوربى الذى يدل عليه هذا اللفظ . إنها أقرب إلى مجموعة من المصالح منها إلى نظام من المبادىء . قد يكون تكوين الأداة الحزبية فى كل ولاية واحداً خلال فترة طويلة ولكن ليس معنى هذا أنها تعين الهدف القومى بنفس الطريقة أو أنها ستلقى رضاء الناخبين بالطرق ذاتها . إن هدفها الذى لايتغير هو الوصول إلى المنصب وما يضفيه من قوة . ويمكن أن نجد فى داخل أى من الحزبين الكبيرين كل لون من الرأى من أقصى اليسار إلى اليمين المتطرف . فقد ظل نوريس عضو الشيوخ عن نبراسكا جمهوريا طيلة الشطر الأوفى من حياته السياسية ولكن من الصعب أن نراه مشتركا مع زميليه لوذج أو مارك حنا وكلاهما جمهوريان أيضا من ناحية أى مبدأ

فى العمل . وآراء « إد كوثوت » سميث أو جورج لا تتفق فى شىء مع آراء كاتنج أو بلاك مع أنهم جميعا كانوا أعضاء فى الحزب الديموقراطى. والحق ، إن قارة بمثل هذا الإتساع تجعل من جميع الأحزاب تقريبا إتحاداً من مصالح يمكن التوفيق بينها على النحو الذى يحتمل أن يتفق مع الإحتفاظ بالمنصب السـياسى او الوصول اليه .

ولحياة الحزب الطابع الذى نتوقعه من ذلك التنوع الهائل فى حياة الشعب الأمريكى . ففى كل جزء من القارة يواءم الحزب نفسه مع الظروف التاريخية والإقتصادية القائمة ، فلا يستطيع الجمهورى أو الديموقراطى أن يهاجم الكنيسة الكاثوليكية أو جمهورية إرلندا الحرة فى نيويورك أو ماساشوستس أو أن يهاجم المذهب الأساسى فى كنتوكى أو تنيسى ، إذ على كل منهما أن يأخذ فى الاعتبار مجموعة من المصالح الخاصة من عنصرية ودينية واقتصادية نادراً ما يسهل تنظيمها فى طراز واحد . وذلك يعلل كيف أن انتخابا للرآسة يحمى جانب مرشح من طرف واحد بالبلاد بمرشح من طرف آخر ، كما أنه كذلك السبب فى أن من الصعب أن نعرف ما إذا كانت الشخصية البارزة أكثر نفعا أو أشد ضرراً بالنسبة الى مستقبل الحزب من المرشح الذى يحتمل أن يثير أقل قدر من الاستياء . صحيح بطبيعة الحال أنه لمدة نصف قرن فعلا كان على الديموقراطيين أن يتحملوا عبء هزيمة الجنوب فى الحرب الأهلية ، كما أن ثمت معنى حقيقى فى القول بأن الحرب العالمية الأولى كانت ضرورة لازمة لتطهير الحزب الجمهورى من الاعتقاد بأن له حقا فى الحكم الدائم بحيث يعتبر انتصار الديموقراطيين امراً غير طبيعى لسبب كامن فيهم . ومما يدل على استمرار ذلك الاعتقاد أن رجلا فى نزاهة اندرو د . هوايت رئيس جامعة كورنل واستقامته يرغم نفسه على التصويت لصالح جيمس ج . بلين مع علمه بفساد الأخير وعدم صدقه . إن الذى أعاد الميزان حقيقة كان الإدراك بأن الاقتصار على « نشر القميص الدامى » معناه التضحية بالزراعة والغرب لمصلحة الصناعة والمصالح المالية بالشرق . وكان التاريخ الحاسم حين رفض الجمهوريون ترشيح تيودور روزفلت عام ١٩١٢ اذ كان ذلك إيذاناً بأن الحزب الجمهورى —

متسلحاً بالبلاغة الوطنية ـ قد قنع أن يكون مجرد أداة فى يد كبار رجال الأعمال. إن راديكالية تيودور روزفلت المفترضة كانت فى الواقع أقرب الى المظهر منها الى الأعمال الواقعية ، ولكن اعتباره خطرا فى نظر تلك الأقلية الحاكمة فى مجلس الشيوخ التى لم تستطع اخفاء مناورات وول ستريت وستيت ستريت ، حرم الحزب الجمهورى من الادعاء بأن له نظرة قومية وهو الأمر الذى كان فى الاستطاعة بقدر اكبر من المهارة استغلاله لمدة سنوات عدة بعد ذلك .

إن الشىء الواضح الآن بصدد طابع الأحزاب السياسية فى المستوى الاتحادى ان الحرب العالمية الثانية سوف تضطرها الى اجراء تعديل قد يكون ابعد غوراً مما نلقاها على استعداد للاعتراف به . لقد القت السياسة الجديدة بعدد من التقاليد القديمة فى بوتقة الانصهار ولعل أقلها أهمية انه مهما كان الاحترام النظرى «للفردية الخشنة» اوعظم الاعتراض الشكلى على ازدياد القوة الاتحادية فإن الحزبين يعرفان ان الديموقراطية الأمريكية سوف تجد من الصعب عليها البقاء اذا ما حل كساد جديد على نطاق ما حدث عام ١٩٢٩ ، الأمر الذى معناه أنه لا يحتمل بدرجة كبيرة تحطيم اسس السياسة الجديدة دون ان يترتب على ذلك لا مجرد خسارة أصوات النقابات العمالية التى تزداد تنظيما باطراد بل واصوات الملايين من الرجال والنساء الذين يدركون أن فى قدرة الحكومة الاتحادية منع البطالة الشاملة . وإلى هذا الادراك يجب ان يضاف ما يتوقعه ملايين الأمريكيين من جزاء مناسب عن دورهم ـ وانه لدور عظيم ـ فى إحراز النصر على العدو فى الحرب العالمية الثانية ، وهذا ما لا يجسر أى حزب على أن يتخلف عن تحقيقه .

إن النظرة السطحية تجعل من الأمور البارزة لا عدم تقدم الاشتراكية أو الشيوعية فى الولايات المتحدة فحسب بل وبقاء نقابات العمال قائمة بنظام حزبى لم يوفر لها غير قدر يسير من القوة مما استطاعت زميلاتها الحصول عليه فى أوربا . فقد أخفقت بشكل يدعو إلى الحسرة جميع الجهود التى بذلت لتكوين حزب ثالث ذى قوة جماعية فى التصويت ، وتضاءلت قوة الحزب الاشتراكى منذ سنة ١٩٣٣ ،

ولم يبد الحزب الشيوعى أكثر من فرع غير رسمى من وزارة الخارجية السوفيتية، ولم يكن حزب لافوليت الأكبر والذى أحرز أربعة ملايين صوت فى انتخابات الرئاسة عام ١٩١٧ أكثر من الحركة التقدمية القديمة تلفظ أنفاسها الأخيرة وليس مولد قوة جديدة حقا. وبالرغم من أن أحزاب الفلاحين والعمال شهدت فترات من نجاح قصير الأمد فى داكوتا الشمالية ومينيسوتا فإن إنتصار اتها مجرد حادث عابر أكثر منها خلق جديد. ومرت بميلووكى فترة من الاشتراكية البلدية وإن لم تبلغ الدرجة التى وصلت إليها الالتزامات العادية الحكوميـــة فى منشستر أو جلاسجو. واختار الناخبون فى بريدج پورت بولاية كونيكتيكت عمدة إشتراكيا ذا آراء إصلاحية. ومن وقت لآخر حبذ بعض الفلاسفة البارزين مثل چون ديوى تكوين اللجان القومية كلجنة الثمانية والأربعين والتى ساورهم أمل قوى فى أن تصبح أكثر من صورة باهتة لاستياء عابر من الحزبين التاريخيين. ولكن لم تبلغ حركة فى قوتها واندفاعها ما بلغته الحركة التقدمية التى تزعمها تيودور روزفلت وإن كنا لا نجد فيها أكثر من وسيلة تمكن الأحزاب الأقدم عهداً من أن تأخذ فى الاعتبار مشكلات كانت تعمل على تجنبها. ومما يلفت النظر بصدد السنوات الاثنتى عشر الأخيرة أن الرئيس فرنكلين روزفلت حين استخدم أداة لم يكن لها سوى صلة يسيرة بالغايات التى استهدفها، قد خلق فى أمريكا دولة اتحادية إيجابية حتى ولو لم يكن يسعى عامداً إلى تحقيق فلسفة اجتماعية كانت تلك السياسة تعبيراً عنها. إن أعظم رجل يعتنق الفلسفة التجريبية عرفته السياسة الأمريكية كانت تسيّره قوى كبيرة وغير شخصية ندر أن توقف لفحصها. ومن المؤكد إلى حد ما أنه حين عين الحزب الديموقراطى فرانكلين روزفلت فى سنة ١٩٣٢ لم تساوره أدنى فكرة عن نتائج ذلك القرار. ولا يقل عن ذلك تأكيداً أن فرانكلين نفسه لم يكن لديه ما يزيد قليلا عن إحساس غامض بأنه ينبغى أن تستخدم قوة الدولة لمساعدة الطبقات السليبة من الإمتيازات إلا أن انتخابه يعين بدء فترة فى تاريخ الولايات المتحدة، من المؤكد أن تكون كالحرب الأهلية فى عمق تأثيرها على الأحزاب السياسية. إنه من تلك الحالات النادرة التى يحدث فيها أن دفع الأحداث يسير بالشخصية الرئيسية

إلى أبعد من النقطة التى كان ينوى الوصول إليها . ومن المؤكد أن نتيجة هذه الرحلة أنه سوف يتعين على أمريكا فى الجيل التالى إما أن تجعل صرحها الحزبى مطابقاً لدولة أكثر إيجابية مما عرفته أبداً ، سواء كان الجمهوريون أو الديموقراطيون فى الحكم ، وإما أن تسير سريعاً صوب نوع من دولة جماعية أمريكية سوف يثبت عدم اتفاقها مع تقاليد الديموقراطية السياسية بالولايات المتحدة . ومن المهم أن نتذكر أن تلك التقاليد تتغلغل فى أعماق التاريخ الأمريكى ولن يكون من السهل نبذها دون أن يترتب على محاولة من هذا القبيل ما قد يكون حاسما مثل الثورة الروسية .

ذلك أن العامل الذى سوف يغير كل الأساس الذى يقوم عليه النظام الحزبى فى أمريكا هو الصدفة المزدوجة من حيث أن انتهاء عصر الارتياد تصحبه الحاجة إلى تقبل مسئوليات الزعامة فى عالم يعتمد كل جزء منه على الآخر . ومهما كانت البلاغة الخطابية التى تسير تحت لوائها الأحزاب الأمريكية نحو التوفيق بين الولايات المتحدة وواجباتها الجديدة فأظن من المؤكد أنها ستكون إما مجتمعاً يحاول أن يطبق المثل الأعلى الديموقراطى أو مجتمعاً يحاول إنكاره كلية . لن تستطيع الولايات المتحدة البقاء كديموقراطية يحكمها الأغنياء كما لم يكن فى وسعها قبل الحرب الأهلية أن تحيا ونصفها عبد والنصف الآخر حر . لا داعى لأن ننكر أن فى كلا الحزبين الكبيرين قوى بالغة النفوذ سوف تبذل كل ما فى وسعها للحد من تحقيق الديموقراطية أو منعها ، وهذه قوى إن كانت فى طبيعتها النهائية اقتصادية فإنها تعبر عن نفسها الآن على صورة رد فعل دينى تارة أو عنصرى تارة أخرى أو أعمال تشبه قطع الطرق والبلطجة على نطاق واسع كما يحدث فى مواضع مثل جرسى سيتى لإفساد الإدارة والمحاكم . إلا أنه مما له مغزى أن دولة أمريكية تحاول الإبقاء على قوة ديموقراطية يتحكم فيها الأغنياء سوف ترى لزاماً عليها أن تختار بين الخفض الشديد فى مستوى المعيشة أو السير فى طريق الاستعمار الاقتصادى مما يكاد من المؤكد أن يوحد ضد أمريكا قوى يعجز مواطنوها عن التغلب عليها . ومن المحتمل قبل أن تقطع شوطا فى أى من الاتجاهين أن يتعرض الأساس الذى يقوم عليه نظامها الحزبى للتحدى

الناجح . لا ريب أن عملية التطور الحزبى بالولايات المتحدة خلال الجيـــل القادم سوف تتضمن رد فعل إلى جانب التقدم ، إلا أن فى الإمكان على ضوء الأدلة ألا نشعر أن القوى غير الشخصية بالعالم تعمل على تشكيل مصير أمريكا فى اتجاه ديموقراطى لا يستطيع أى حزب أن ينـكره أو أن يعيش بعده ، وهنا نلقى الأمل الحقيقى للحياة الديموقراطية .

يستمد الكونجرس فى الولايات المتحدة طابعه من ظروف نشأته ومن تأثره بالتاريخ الذى واجهه . يصدق هذا على أية جمعية تشريعية ولكن المشكلات الخاصة التى يثيرها الكونجرس تعزى إلى مظاهر فى سير عمل كل من مجلسيه وهى مظاهر خاصة بالبيئة الأمريكية . فمن الأمور الأساسية أنه مهما كان لونه الحزبى وعند مرحلة معينة فمذهب تقسيم السلطات يجعله إن لم يكن فى صراع مباشر مع عادات السلطة التنفيذية فانه على الأقل ينظر إليها بارتياب، إذ لما كان مفتقراً إلى التوجيه من جانب الأخيرة مما للوزارة البريطانية على مجلس العموم وكان أقرب إلى منافسة رئيس الجمهورية من أن يكون زميلا له فليست به حاجة كامنة إلى الكشف عن وحدة يرتضيها . وينعكس طابع الأحزاب السياسية الأمريكية على عادات الكونجرس من حيث كونها اتحادات من جماعات ذات مصالح منفصلة فليس من السهل باستثناء الأزمات الضخمة — أن نجد تأكيدا لمصلحة الشعب بكليته . فقليل من الأعضاء فى أى من المجلسين يحتمل أن يروا تلك المصلحة بالوضوح الذى يرون به مصلحة الفئات التى يخرجون من صفوفها ؛ وأغلبهم يدرك فى قلق أن أى نقص فى الحماس للطائفية قد يؤدى إلى الهزيمة فى عملية الإقتراع الحزبى الأولية . إن هناك كل الفارق بين الحياة المتواضعة التى يحياها محام فى مدينة صغيرة من أعماق الجنوب وبين الاتصال المثير بالأحداث الكبرى فى وشنطن . وهذه الأخيرة هى التى يحتمل أن يختارها أغلب أعضاء المجلسين .

ويعانى مجلس النواب من عناصر ضعف رئيسية ثلاثة ويبدو أنها نمت مع الزمن بدلا من أن تتضاءل . والأول وليد تلك العادة التى تتطلب أن يكون العضو من أهل الدائرة وإن نص الدستور فقط على أن يكون من أهل الولاية . وترتب عليها حرمان المجلس من خدمات نفر كبير من القادرين ، كما تميل إلى أن تبعث إلى وشنطن بالشخص الذى يعتبر « أكثر صلاحية » بدلا من الشخص المناسب ولما كان معنى الصلاحية ألا تكون للمرشح آراء متطرفة وأن يكون فى الإمكان

عدم إغضاب المصالح الكبيرة فى دائرته، لذلك نجد معظم الأعضاء من الطراز الوسط الذى لا يختلف كثيرا بعضه عن بعض والذى يحاول الاحتفاظ بمركزه عن طريق تقديم أكبر عدد من الخدمات المحلية. ومنذ بداية القرن العشرين فقط لم يرشح أحد اعضاء المجلسين للرآسة؛ ولكن جرت العادة أن يختار رئيس الجمهورية لوزرائه واحداً أو اثنين من ذوى الخبرة والنفوذ بالكونجرس، وهو اختيار ليس أساسه مايستطيع هؤلاء تقديمه إليه من المساعدة فى أعمال الوزارات التى يتولونها وإنما يرجع إلى العلم بأن علاقاتها الوثيقة فى الكونجرس سوف تمهد علاقة دائما ما تميل إلى الانحراف.

ومن النادر أن تثير مناقشات مجلس النواب اهتمام الشعب. ويجب القول بصراحة إنه يتخذ جميع الخطوات التى تحول بينه وبين النجاح فيما ينبغى أن يكون من أهم وظائفه، ذلك أن اتخاذ معظم قراراته الكبرى فى جلسات لجانه السرية معناه أن الجمهور نادراً ما يتابع الأسباب التى تستند إليها. وحتى المناقشات الكاملة تميل إلى أن تكون سلسلة من الخطب الشكلية التى تنظم آليا وفق جدول مقرر بحيث نجد المجلس مستعدا للسماح للعضو الذى تفوته فرصة . الكلام بطبع خطابه وإلحاقه بالمضبطة .

إن الشخص الماهر ممن يتذوق الشعر يستطيع أن يجمع ثروة لامثيل لها من الفكاهة الأمريكية باختيار موضوعات متنوعة فمن قصيدة حازت الجائزة بعد إلقائها فى مدرسة عليا محلية إلى خطاب فى تأبين أى شخص من الرئيس وشنطن إلى لاعب كرة ممتاز، مما يعد طبعه فى المضبطة أمراً قد يدخل السرور على أهل الدائرة حين يوزع النائب النسخ المجانية وهو متمتع بالإعفاء من أجرة البريد. ولا يوجد مجلس نواب كهذا يفتقر إلى أهل المقدرة والخبرة حقيقة ممن يكرسون أنفسهم للعمل فى لجانه، ولكن ليس من مجلس آخر يستفيد من مقدرة أمثالهم وخبرتهم إلى الحد الأقصى. ومن النادر حقا أن يكون المجلس غير مستعد لمساعدة الأعضاء السابقين مثل رايس نائب تكساس أو يوچين كوكس نائب جورجيا عن طريق استخدام سلطته فى إجراء التحقيق من أجل غايات كانت وسائل تحقيقها موضع الأسى من جانب كثير من الأمريكيين النزهاء ذوى المكانة العاليـــة. إن كل مجلس نواب يضطلع بعمل

كثير ولكن ما من مجلس آخر فيما عدا فترات الأزمات الجسيمة – يهىء فى إجراءاته التأكيد بأنه يؤدى العمل السليم أو أن هذا العمل سوف يتم على الوجه السليم . وقاعة المجلس فسيحة سيئة التنظيم بحيث لاتكون المناقشة قوية أو عميقة أو تستطيع فى غير المناسبات الهامة أن تشغل أهتمام أكثر من بضعة أعضاء .

ولدى العضو مركزان للعمليات يمكن أن يكون فيهما فعالا. فاذا كان ذا أهمية فى حزبه فقد يأمل أن يصبح له نفوذ فى اللجان التى يختار لعضويتها . وفى اللجان الكبيرة مثل الإعتمادات المالية والقوات المسلحة فإن عضو الكونجرس المهم ليس بالشخص الذى يمكن تجاهله . ولكل عضو بالمجلس مكتب يضم سكرتارية صغيرة على نفقة الدولة، وفيه يقابل الجماعات الضاغطة التى تقوم بمناوراتها فى أروقة وشنطن . وثمت معنى حقيقى للقول بأن هذه الجماعات برغم عدم تماسكها الظاهرى نوع من برلمان وراء الكونجرس لايجب التقليل من سلطانه ؛ وفى وسعها أن تفعل الكثير للعضو وبخاصة الحديث أو عديم الأهمية . فتساعده فى إعداد خطبه ، وتنظم له حملة دعائية عندما يعود إلى بلده أو فى ولايته ، وتهىء له مقابلة الأشخاص من ذوى الأهمية وبخاصة فى المناسبات الهامة . ولما كان للمناورين فى العادة أوثق الصلات بوكالات الصحافة الكبرى وتلك الهيئة البارزة من المراسلين الخاصين الذين تستبقيهم صحف العواصم فى وشنطن، فأن فى وسع تلك الجماعة إذا كان ممن يعاونها أن تعمل شيئا لرفع شأنه وجعله شخصية لها أهميتها فى نظر الشعب إذا كان ذلك مستطاعا . وعلى الأقل تستطيع فى حالة تعاونه معها أن تجعل أهل دائرته يشعرون أن ممثلهم فى المجلس أكثر قيمة من ذلك الصبى الذى عرفوه ناجحا . وإذا نال تأييد المناور الصالح فى الوقت المناسب فقد يكون ذلك عاملا حاسما فى حياته السياسية .

وبعبارة موجزة أخفق مجلس النواب على نحو جسيم فى أداء الوظائف التى كان ينتظر منه القيام بها ، أو الوظائف التى اضطلع بها فعلا وبدرجة طيبة حين ترأس المناقشات أمثال هنرى كلاى . وهو يخفق فى إثارة إهتمام ذلك الفريق المعنى بالسياسة من السكان لا بسبب افتقاره إلى القوة ولكن لأنه لم ينظم أبداً على النحو الذى

بجعله يستخدم تلك القوة لتحقيق غايات كبرى. إنه يحتل العناوين الكبيرة فى الصحف بسبب العداء الذى يثيره لا الأعمال الخلاقة التى هو مسئول عنها .وجدير بالملاحظة أن أبرز أعضائه خلال الجيل الماضى ندر أن شعر الشعب عموما بالاحترام لهم . لقد كان صوت جيمس م . بك عاليا فى المجلس ولكن لا يستطيع أحد الزعم بأنه صوت له أى مغزى أو أهمية . وأشك إن كان عدد أكبر من الناس أحترم هاملتن فش كلاعب كرة سابق فى هارفارد أكثر مما أحترموه كمشرع . وقد تتذكر بروس بارتون كمؤلف ذلك البحث الفريد فى تفسير حياة المسيح والذى يبدو كأنما اعتبره الرئيس الدائم لشركة الإعلان الأهلية أكثر مما تتذكره كعضو كونجرس ذى مركز عال . وحين بعثت ولاية كونيكتيكت بكليربوث لوسى إلى المجلس فإن نتيجة عملها كانت أقل مغزى فى السياسة من كونها حادثا جديداً فى حياتها كشخصية فى عالم المسرح الأمريكى ، ويجوز الظن أنه لولا أن زوجها كان مالكا كبيراً لإحدى المجلات لما كان لها تأثير يزيد عن تأثير الآنسة جيسى سمنر بولاية إلينوا والتى تساويها على الأقل فى البرود وإن لم تلق ذلك التأييد الذى كان من حظ الأولى .

من الناحية التشريعية لمجلس الشيوخ الأهمية وإليه تتجه أنظار الجمهور الأمريكي، وهذا امتياز تكمن بعض أسبابه فى الوظائف التى يضطلع بها . فمشاركته رئيس الجمهورية فى سلطة عقد المعاهدات ـ إذ لا بد من أغلبية الثلثين كى تصبح المعاهدة قانوناً ـــ ووجوب إقراره التعيينات الرئيسية من سياسية وقضائية ودبلوماسية وإدارية مما يجعله مجلسا لا بد وأن يثير الاهتمام العام . ويضاف إلى ذلك أن صغر حجمه ، إذ يضم ستة وتسعين عضواً[1] ، يكفى لضمان التنوع فى وجهات النظر دون حرمانه من روح الصلة الوثيقة التى نلقاها فى مجلس العموم بين الجبهتين الرئيسيتين، وطول مدة العضوية يهيء الفرصة أمام العضو الذى تتوافر له القدرة للظهور كشخص فى وسعه استثارة اهتمام الشعب . ونظرا لأنه بعد سنة ١٩١٧ أصبحت الولاية كلها تنتخب العضو فقد ترتب على ذلك لا مجرد اهتمام الناس بما يعمله بل صار فى وسعه التفكير على نطاق أوسع من العضو العادى بمجلس النواب .

صحيح بغير شك أن من الشيوخ من يصعب تفسير اختيارهم ، بل تبريره . فلا يمكن إنكار أن العضوين عن ديلاوير لم يمثلا الناخبين بوجه عام بقدر ما كانا يمثلان شركة دى بوست ، كما تعين على ممثلى مونتانا الوصول إلى حل وسط مع مصالح شركات النحاس الكبرى فيها . وهناك شيوخ من بنسلفانيا كان ينبغى الزج بهم فى السجن بدلا من إرسالهم إلى وشنطن ، كما كانت صالة موسيقية المكان المناسب لشيوخ من كنتوكى وإلينوا . ومما يبدو داعياً إلى السخرية فى نظر المراقب الأجنبى أن يتساوى عدد ممثلى كل من نيويورك ونيفادا وسكان الأخيرة جزء من مائة من سكان نيويورك. والحق،إن أغلبية المجلس ينتخبها كما أوضح الأستاذ لندساى روجرس فى بحثه الرائع[2] أقل من خمس الشعب الأمريكى . وللجبهة الزراعية قوة لا تتناسب

(١) أصبحت الولايات المتحدة الآن مكونة من خمسين ولاية . وحسبه الدستور يمثل كل منها عضوان (المترجم)

(٢) The American Senate (New York. Knopi 1926) P.92.

إطلاقا مع وزنها العددى بالنسبة إلى مجموع السكان . وحماس المجلس للسلطة بمعيار سنوات الخدمة غالبا ما يجعل أشخاصا يصعب ألا نحتقرهم يحصلون على مراكز لا يستأهلونها بسبب خلقهم أو ذكائهم . ولاشك أنه صحيح أن بعضا من أهم التجارب فى الحياة الأمريكية — كالحل الوسط بشأن ميسورى عام ١٨٢٠ مثلا — تم بفضل شيوخ عن ولايات تمثل أقلية بين الناخبين ، بل من المعقول أن نؤكد كما فعل الرئيس كوليدج أن مجلس الشيوخ بوجه عام مقتنع بأنه أفضل من الرئيس . إن الأدلة توضح أن رأى المجلس فى لنكولن بعد اغتياله كان خيراً منه قبل ذلك الحادث .

وبالرغم مما فى المجلس من عناصر الضعف فما يزال جمعية حققت نجاحا رائعا . ومن المؤكد أنه يضم فى أى وقت نفراً من أهل القدرة والخلق البارزين . فاذا كانت أوهيو بعثت بهاردنج فانها بعثت بجون شيرمان أيضا ، واذا أرسلت جورجيا « إد كوتون » سميث فقد اختارت نبراسكا جورج نوريس الذى يمثل فى السياسة الأمريكية دور جون برايت فى السياسة الإنجليزية ، وكذلك انتخبت الباما هوجو بلاك . واذا كان فى تكوين المجلس ميل واضح نحو التسوية بين القدم والحكمة وبخاصة فى سنوات ما بين الحربين ، فان انتخاب أمثال ليستر هل وكلود پبير يوضح أن الاتجاه قابل للتصحيح . ولا يعجز من يدرس التاريخ الأمريكى عن ملاحظة أنه غالبا ما يكون بين الشخصيات القلائل البارزة خلاله عضو شيوخ قد يكون دانيال ويبستر أو لا فوليت الأكبر أو جون س كالهون أو وليم ا . بوراه . ونادراً ما تمر فترة رآسة لا نلقى أثناءها من الشيوخ من يقرب الجالس فى البيت الأبيض فى النفوذ والسلطان . ومن الصعب ألا نستخلص أن التحول الى طريقة الإنتخاب الشعبى حسب التعديل السابع عشر ، وإن ترتب عليه إختيار أشخاص غريبين ، سار شوطا بعيدا نحو تحطيم تلك الصفة التى تجعل منه نادياً للرجل الغنى . من المؤكد أن وصول تأثير كبار رجال الأعمال أصبح اليوم أشد صعوبة منه فى مستهل القرن . ومن المؤكد كذلك أن الانتخاب الشعبى كان معناه أن العضوية أقل شبها بكثير من كونها عضوية لمدى الحياة مما كان عليه الحال حين كانت الهيئات التشريعية بالولايات تنتخب الأعضاء

وبوصفه جمعية تناقش كبريات المسائل فان له بالرغم من أخطائه كلها ميزة ضخمة من حيث قدرته على استثارة الشعب الأمريكي. لا ريب أن الأخطاء جسيمة؛ فرفض إقفال باب المناقشة الا بسبب الاستحالة المادية مما يجعل فى وسع أقلية أن تهدم قاعدة الأغلبية ، أمر لم يعد له معنى . ومبدأ « مجاملة مجلس الشيوخ » معناه أن على الرئيس التساهل بشأن التعيينات فى الولاية التى ينتمى إليها العضو الذى من حزبه لتيسير عمل أداته الانتخابية هناك على حساب الكفاية واللياقة . والمحاولة الناجحة أحيانا لمنع سلطة الرئيس فى العزل ، والتدخل المتعمد فى الشئون المالية لا حرصا على الكفاية وإنما لحماية المصالح الثابتة التى يعتمد عليها الشيوخ فى الغالب ، والموقف المستهتر والقائم على اعتبارات مماثلة إزاء التعريفة الجمركية ، واستخدام سلطة التحقيق لا فى الحالات الواجبة وإنما كذلك على أمل عرقلة سياسة الرئيس — نقول أنه بالرغم من كل هذه الأخطاء الجسيمة ما يزال المجلس بلا استثناء أعظم مجلس ثان فى العالم نجاحا ؛ بل يمكن اعتباره حقاً مجلسا أولا نظراً لأنه بالرغم من أن التشريع المالى يجب أن ينشأ فى مجلس النواب ، فالسلطة النهائية تظل فى مجلس الشيوخ ولا يحد منها سوى حق الإعتراض الذى يملكه رئيس الجمهورية .

وأشد وجوه قوة المجلس إثارة يقع بطبيعة الحال فى مجال السياسة الخارجية . إن الملاحظة الشهيرة التى أبداها جون هاى لهنرى أدامز قائلا « لقد أخبرتك مرات عدة إنى لم أعتقد أن معاهدة مهمة أخرى سوف تمر فى مجلس الشيوخ » ، كانت أساس مناقشات لا نهاية لها وبخاصة منذ أن نسف السناتور لودج معاهدة فرساى . إن ضرورة الحصول على أغلبية الثلثين لإقرار معاهدة معناها أن عضوا عنيداً واحدا قد يهدم عملا استغرق شهوراً . ولعله يصح القول إنه منذ الحرب العالمية الأولى لم تتعرض ناحية من سلطات المجلس لمثل هذا النقد المر والاستياء العنيف ، والحجة فى ذلك أن النتيجة تنحصر فى إقناع عدد قليل من الاعضاء بمحاولة إجبار الرئيس وبخاصة إذا كان من الحزب المعارض على النزول على حكمهم بدلا من التمسك برأيه حتى ولو كانت المفاوضة بشأن المعاهدات من الاعمال التنفيذية كليـــة كما أصر جيفرسون .

ومنذ هزيمة خطط الرئيس ويلسن فى عام ١٩١٩ خصص المقبون على سلطة عقد المعاهدات ، وفى خارج المجلس نفسه ، اهتماما طويلا وحماسيا لمنع تكرار تلك الورطة الشهيرة . فأحيانا اقترح البعض الاكتفاء بالأغلبية العادية ، كما قال آخرون أنه لما كان المجلسان يشتركان فى إعلان الحرب فكذلك يجب أن يجتمعا لإقرار السلم . ويقترح فريق ثالث حماية سياسة الرئيس فى هذا الشأن بأن تنظم له « لجنة السياسة الخارجية » تضمن أن ما يقبله بالإتفاق معها سوف يمر بسهولة فى مجلس الشيوخ . ويذكرنا النقاد بالغضب الذى ينتاب الساسة الأجانب الذين يحسون الحسرة بعد مفاوضات طويلة مع الهيئة التنفيذية إذ يجدون مجلس الشيوخ يصر على إدخال تعديلات على الإتفاق الذى تم الوصول إليه أو يرفضه كلية .

يجب أن أقول بصراحة أن معظم النقد وليد سوء الفهم . فاذا كان الإختبار أساسه الوقت فالفترة السابقة على التنفيذ لاتتجاوز الشهرين إلا قليلا . وإن كان أساسه الجوهر فسوف نرى من التحليل أن معظم التعديلات تحصل على منافع إضافية للشعب الأمريكى . لاريب أن رفض معاهدة فرساى كان مأساة للعالم ولكن التاريخ الإنتخابى فيما بعد أوضح أنه أستبق ولو لأسباب مختلفة ، حكم الشعب الأمريكى عليها . والرد على غضب الساسة الأجانب يسير بكل تأكيد لأنه حينما يتفاوضون مع الولايات المتحدة فعليهم أو ينبغى لهم أن يكونوا على دراية بالظروف التى يكون على أساسها التصديق مستطاعا .

وليس هذا كل شىء . إن الرئيس الذى يلم بعمله سوف تكون أمامه أتم فرصة لإجراء المشاورات الرسمية وغيرها قبل إعداد المعاهدة للعرض على مجلس الشيوخ ؛ كما أن هناك مجالا واسعا يستطيع فيها تحقيق أغراضه عن طريق عقد الإتفاقات التنفيذية التى تقل عن مرتبة المعاهدات الفعلية . فتبادل المدمرات الخمسين مع بريطانيا سنة ١٩٤٠ فى نفس الوقت الذى تنازلت فيه الأخيرة عن القواعد كما فى بحر الكاريبى مثل طيب على هذا النوع من التفاهم . إن من يفحص سلطة التاج البريطانى فى عقد المعاهدات كما تدل عليها معاهدة هور — لافال سنة ١٩٣٥ أو اتفاق ميونخ سنة ١٩٣٨

سوف يضطر إلى الإستنتاج بأن وجود قيد حقيقى على السلطة التنفيذية يستأهل التأييد . فالحكومة البريطانية التى توقع معاهدة بتلك الأهمية البالغة كمعاهدة فرساى وتسمح بيوم واحد للمناقشة مع إدراك مجلس العموم أن التعديل أو الرفض معناه حل المجلس حكومة تعاقب فعلا أى لون من المعارضة . إنى أعلم ان دوافع السناتور لودج على موقفه سنة ١٩١٩ كانت دنيئة وغير جديرة بالاحترام ولكن الحكم على سلطة مجلس الشيوخ فى هذا الميدان يجب ألا يقوم على مثال واحد مهما كانت أهميته. إن البريطانيين الذين يتذكرون كيف وقع اللورد سالسبورى معاهدة مع ألمانيا سنة ٩٨٩٨ للضغط على البرتغال كى تتنازل عن أنجولا لألمانيا دون كلمة تقال فى البرلمان ، أو الإتفاق مع ألمانيا الهتلرية فى سنة ١٩٣٥ حول تحديد القوة البحرية من وراء ظهر البرلمان ، أو المناقشة — العقيمة فعلا — بين السير فولتهات والمستر روبرت هدسن فى صيف سنة ١٩٣٩ . هذه كلها مفاوضات لم يسمع بها البرلمان إطلاقا أو سمع بها عن طريق تسرب الخبر عرضا كما حدث فى حالة إتفاقية هور - لافال؛ أقول إن البريطانيين سوف يجدون من المعقول أن الحجة قوية فى صالح تنظيم لخص تشريعى دقيق للقرارات التى تتخذها السلطة التنفيذية .

صحيح بلا ريب أن فى سرية التفاوض حكمة ، ولكن صحيح بكل تأكيد أيضا أن نتائجه لا ينبغى أن تكون علنية فحسب ، وإنما يجب عرضها على مناقشة ليست مجرد إجراء شكلى يتم فى ظل سيف الحل مما نراه فى بريطانيا . فاذا كان الأمر كذلك فمجلس الشيوخ الأمريكى يحمى مصالح شعب الولايات المتحدة بطريقة وإلى درجة لم تعرفهما بريطانيا أبداً . وبينما أميل إلى الرأى الذى يعتبر أغلبية الثلثين وقاية تفوق الحد ضد خطأ السلطة التنفيذية فانه يبدو فى نظرى من الخير أن يكون الرئيس على إدراك بأنه ليس سيد السياسة الخارجية الوحيد . وأزداد تأييداً لهذا الرأى حين أتذكر الأساليب التى عمد إليها رؤساء الجمهورية فى الثلاثين أو الأربعين عاما الأخيرة لتحقيق نتائج كانوا جد متأكدين أن مجلس الشيوخ وربما الشعب لن يوافقا عليها . فسياسة تيودور روزفلت فى كولومبيا ، وودرو ولسن فى المكسيك ، وكلفن كوليدج

فى نيكاراجوا ، وفرنكلين روزفلت فى الحرب الأهلية بأسبانيا وطريقة معالجته موضوع شمالى إفريقية فى فترة دارلان — بيروتون جيرو ؛ كل هذه الأمثلة وبدون الرجوع بعيداً فى التاريخ الأمريكى توحى بأن حاجة السلطة التنفيذية إلى إرضاء المجلس حماية قيمة ضد دبلوماسية تخفى سياسة القوة كلية أو تحت شعار رقيق من البلاغة . وجدير بالتذكر هنا أنه ندر وجود سياسى إنجليزى فى السنوات الثلاثين الأخيرة لم يحث بقوة على أن من المرغوب فيه تكوين لجنة من مجلس العموم للشئون الخارجية ، وجدير بالملاحظة بنوع خاص أن أنجح وزراء خارجيتنا فى الأزمنة الحديثة وهو المستر هندرسن قرر عرض جميع المعاهدات على مجلس العموم للتصديق عليها . لم يطلب الرجل أغلبية خاصة ولكنه أدرك على الأقل حكمة تصديق الهيئة التشريعية على عمل السلطة التنفيذية ، وذلك هو المبدأ الأساسى الذى تقوم عليه قوة مجلس الشيوخ الأمريكى .

ومجلس الشيوخ لا يقتصر على المناقشة ولكنه يقوم بتحقيقات ضخمة . ومع التسليم بمبدأ الفصل بين السلطات فإن لأداء هذه الوظيفة قيمة عالية . فكل من يتمعن الطريقة التى تعمقت بها لجنة المجلس فى بحث عادات المستر هارى دوجرتى أو فضيحة Teapot Dome أو أساليب وول ستريت قبل أزمة ١٩٢٩ لا يستطيع على ما أظن الشك فى أن هذه الوظيفة حيوية . قد تكون كثيرة الكلفة بشكل لا يصدق ، وقد تستمر إلى غير نهاية ، وهناك بلا ريب حالات يتعرض فيها بعض الأفراد لظلم بالغ ، بل يجوز أن نعترف بأن المجلس يستخدم هذا النظام من وقت إلى آخر لخدمة أغراض حزبية أو لاستغلال حقد شخصى ؛ ولكن تظل هذه الطريقة الضمان الأساسى ضد الخيانة أو الإدارة العاجزة . وفضلا عن هذا فالنظام الذى حمل وزراء ثلاثة على الاستقالة سنة ١٩٢٤ وأدى إلى حالة سجن وحالتى انتحار له أن يدعى لنفسه قيمة عامة كبيرة .

وهى قيمة يزيد منها أن أعضاء الوزارة غير مسئولين بصورة جماعية ، كما أنهم ليسوا على إتصال مستمر بالكونجرس . ومهما اغضبت طريقة التحقيق الرؤساء ووزراءهم فانها الأسلوب الفعال لتقدير صفة جهودهم الإدارية كما أنه حيث يمس

التحقيق مسألة لها أهميتها ـ كالفحص الدقيق الذى تولاه بلاك سنة ١٩٣٣ فى عادات وول ستريت أثناء كساد سنة ١٩٢٩ ـ فإنه لا يثير إهتماما واسع المدى فحسب بل ويمهد السبيل إلى تشريع مرغوب فيه . قد يشك قلائل فى قيمة لجنة الأوراق المالية والنقد ولكن كان من العسير إنشاؤها لولا أن سبقتها عملية تشريح وول ستريت التى قامت بها لجنة المصارف والعملة . والطريقة التى نحن بصددها تضم شيئا من قيمة اللجنة الملكية فى أنجلترا إلى جانب التنوير الذى يتيحه نظام الأسئلة فى مجلس العموم ؛ وهى أعلى من الأولى من حيث أن الوزير ليس فى المركز الذى يمكنه من ملئها بتلك التوافه البارزة كما أنها تعادل الثانية على الأقل من ناحية استخدام الخبراء كمستشارين مثل القاضى بيكورا فى التحقيق الخاص بوول ستريت مما يحتمل معه وصول التحقيق إلى أعماق المسألة. . لقد كان شارل ميتشل معدوداً من الأعمدة الكبيرة فى عالم المالية الأمريكية إلى أن عرض بيكورا عاداته للنور . وحتى مؤسسة قوية مثل بيت مورجان خرجت من التحقيق وقد هبط شأنها بحيث يصعب أن نشعر أنها أفاقت من الضربة .

الحقيقة الرئيسية أن مجلس الشيوخ بالولايات المتحدة الأداة الدستورية الوحيدة التى تزود الجمهور بالمواد التى يبنى عليها حكما فعالا على سياسة رئيس الجمهورية ، ويحدث هذا سواء يسعى الرئيس إلى تحديد إتجاه إمريكا كما كان شأن ولسن أو كل من آل روزفلت ، أو يتجنب مسئولية الزعامة مثل هاردنج وكوليدج . واستطاع المجلس أن ينتزع إهتمام الناس بصورة مستمرة فعلا منذ مولد الجمهورية . ولولا اضطلاعه بمثل هذه المهمة لتركزت السلطة الفعالة فى الرئيس إن كان قويا أو حدث إتجاه نحو البيروقراطية فى حالة ضعفه . وبينما من الصحيح بطبيعة الحال أن الرئيس ذا الفاعلية فى وسعه أنتزاع إهتمام لا ينافسه فيه نظام آخر ، كذلك يصح القول بأن المجلس قادر على فرض الإهتمام بكل وجه من وجوه نشاطه . إنه سيد مجلس النواب بل ويستطيع حمله على التسليم فى شئون كالمالية والتعريفة الجمركية . وإذا كان من المبالغة القول بأنه سيد الرئيس إلا أن من المعقول التدليل على أن أى رئيس لا يجسر على تجاهل اتجاه رأى الشيوخ .

هذا المركز ينبعث فى رأيى من عاملين ، أو لهما أن الشيخ يبقى فى منصبه وقتا يكفى كى تؤثر شخصيته فى الشعب ، وثانيهما أن الحرية المدهشة فى المناقشة تثير رأيا عاما لاتلقاه فى حالة مجلس النواب،ذلك أنه حين تبدأ المناقشة فى الأخير فأنها لاتعدو كونها نتيجة حجة تسنى لها الوصول إلى قرار فى اللجان . وبينما يصح القول بأن الصحافة لا يحتمل أن تولى مناقشات مجلس النواب اهتماما كبيراً فأنها تكاد تلتزم بمناقشة كل مايدور فى المجلس الآخر . والمناقشة فى مجلس النواب شكلية وراكدة بينما هى حية وديناميكية في مجلس الشيوخ؛ فالأخير يجعل السياسة مثيرة بسبب صلته بالسياسة الخارجية والتعيينات السياسية الكبرى، وإذا كان يضم مثل جميع الجمعيات التشريعية عدداً كبيرا من الأغبياء ففيه دائما نفر من الساسة الذين يعرفون كيف يثيرون الاهتمام بالمسائل التى تعنيهم .

ويتضح ذلك بمجرد النظر إلى تاريخه . إن مناقشات كالتى دارت بين ويبستر وهاين أثارت إنتباه الشعب كله . وشخصيات من طراز كالهون وبو راه ولا فوليت الأكبر دبت الحيوية فى الأفكار بحيث كان من المستحيل تجاهل مغزاها. لا مراء أن المجلس أساء استخدام قوته أحيانا ، فموقف لودج من الرئيس ولسن واضح أنه وليد الضغينة الشخصية لا الخلاف الفكرى، ولكن الامر المهم أنه حين تنشأ مسألةهامة فى الولايات المتحدة فلا بد من وضعها عاجلا أو آجلا فى نطاق نشاط مجلس الشيوخ. قد يتصرف خطأ أو بعيداً عن الحكمة أو بسخافة لا يمكن تصديقها،ولكن المهم أن عليه أن يعمل وأن البلد كله يراقب عمله إنه الهيئة الوحيدة فى النظام الاتحادى والتى لايشعر الاعضاء فيها بقيود أو ضغط. إن النائب يمر دون أن تلحظه جمهرة الناس إلا إذا كان شخصية قوية ، أما الشيخ فشخص له قيمته لمجرد كونه كذلك. والأول الذى يقضى عامين فى وشنطن مضطرا الى التفكير فى اعادة انتخابه منذ لحظة وصوله الى العاصمة بيما يتوافر للشيخ الوقت والنشاط ليصبح شخصية تكاد لا تقل عن رئيس الجمهورية وأكبر من الوزير عادة .

من المؤكد أنه شاهد الرؤساء يأتون ويخرجون ، ونادراً ما يشعر بأية مسئولية أمام الشخص الذى يبدو كعبء مؤقت ملقى على عاتقه . قد يحترم رئيسا حين

تتعرض الرعاية للاضطراب وبمجرد زوال هذه الفترة فإنه يشعر غالبا أنه قريب من المستوى الرآسى . وهو على ثقة من أن كل ما ينطق به يكاد أن يكون نبأ له أهميته القومية . والطريق إلى البيت الأبيض فى متناول يده حينما يشاء . وهو مصدر النقد الفعال للسلطة التنفيذية ، ويستطيع فى العادة أن يدخل التعديلات حتى يستقر رأيه عليها اللهم إلا فى حالات الطوارئ[٤] .

ومجلس الشيوخ عرضة لنقد شديد بطبيعة الحال . فقلة من الجمعيات التشريعية تبدد مثل هذا الوقت الكثير ، وأقل منها من جعلت المناورات البرلمانية فنا بمثل هذا الإتقان . وهو غير مسئول أمام السلطة التنفيذية ويعلم تماما متى يحكم عليه الناخبون. إنه هيئة شغوفة بالعمل كوحدة حيث يتعلق الأمر بالتعيينات ، و « مجاملة المجلس » من اسمى الأساليب التى يثبت بها قوته ضد سلطة رئيس الجمهورية . من المستحيل الدفاع عن هذه الفكرة لأنها ليست سوى وسيلة تمكن شيخا من حزب الرئيس من تقوية قبضته على الناخبين فى الولاية التى ينتمى إليها . وسواء أكان المنصب قضائيا او إداريا فالواضح إلى حد كبير ان الشيخ اكثر اهتماما بمكافأة أصدقائه منه بكفايتهم للمنصب الذى يختارون له .

وبصرف النظر عن كل ما يمكن قوله ضد هذا المجلس فما يزال من أبرز النجاحات التى حققها النظام السياسى الأمريكى ، وله الميزة الهائلة من حيث قدرته على إثارة اهتمام المواطن العادى ، كما أن له فضيلته الخاصة باعتباره مطمعا لايستطيع إلا الأقلون مقاومة إغرائه . لا ريب أن المجلس ضم بعض الاشرار ، وأنه كان على استعداد فى مناسبات كثيرة لأن يسيء استعمال سلطته ، كما يعانى ولو بدرجة أقل منذ صدور التعديل السابع عشر من شدة التمسك بامتيازاته الجماعية . ومرت به فترات كان همه الاساسى هدم سياسة الرئيس أكثر من رعاية رفاهية شعب الولايات المتحدة . وتضاؤل النظر إليه كالطريق المؤدى الى البيت الأبيض يجعله شديد الرغبة فى أن تكون له سياسته بصدد أغلب المسائل مما يؤدى الى الخلاف مع الرئيس . وقليل من الأعضاء يرضون كما فعل روبنسن ممثل اركنساس بأن يعرف عنهم علنا انهم رجال

الرئيس ، وبه ميل جماعى أحيانا للتصرف بحيث يؤكد استقلاله وذلك دون احتمال المسئولية . وإذا كان توسيع هيئة وادى التنيسى قد حدث بسبب اعتراض ماك كيلار على رئيسها المستر داقيد ليتنتال يتضح أنه جمعية تدفع ثمنا عاليا وتجعل البلاد تدفعه ايضا بسبب افتقارها الى التوجيه من جانب السلطة التنفيذية . وبعبارة موجزة نقول إن المجلس رغبة فى إرضاء أعضائه مهما كان الثمن ، سواء أكانوا من المسنين أمثال المرحوم زيد سموت أم من الشبان الخطرين كالمرحوم هيوى لونج .

وبالرغم من ذلك حقق المجلس نجاحا ظاهراً ولعله أهم قيد على استبداد قد يفرضه رئيس طموح بسهولة . وإذا ضم أحيانا نفراً من ذوى النظرة المحلية الضيقة إلا أنه يتسامى على تلك النزعة التى تتغلغل فى أرجاء مجلس النواب . وإذا ضايق معظم رؤساء الجمهورية ووزراءهم فمن دواعى الدهشة أن يلقى التأييد الشعبى فى هذا . ومستوى المناقشات التى تدور فيه رفيع ، وصفة تحقيقاته تتساوى تماما مع اللجان المختارة فى مجلس العموم . كذلك يجب ألا ننسى إحترامه لأقلياته وحتى الأفراد الذين يختلفون عن الاتجاه الرئيسى لأفكاره اختلافا عميقا . ولو اكتفينا بأحداث الجيل الماضى فهناك الكثير مما يجب قوله لصالح هيئة جعلت من أمثال لا فوليت الأكبر وجورج نوريس شخصيات لها أهميتها القومية . إنه يحترم الاستقلال ويتيح أوسع الفرص للتعبير عن ذاته ، وإذ يفعل ذلك يضفى حقيقة واضحة على الديموقراطية السياسية فى الولايات المتحدة بما لا يقدر عليه نظام آخر .

إن وزارة الرئيس لا يعرفها الدستور بهذه الصفة ومن الصعب أن نشعر أنها أحرزت نجاحاً ظاهراً فى التاريخ الأمريكى. وإذا كانت تجتذب أفذاذاً مثل چيفرسون وهاملتن فنادراً ما كانت فريقاً فعالا ، وخضوعها الرسمى للرئيس معناه أنها لم تكن هيئة ترسم السياسة بصورة مستمرة حقيقة . قد يستشيرها أو لا يفعل ، وقد يشكلها أو لا يشكلها ممن لهم منزلة قومية . والمظهر الدائم الوحيد لها أنه يجب أولا أن تضم واحداً على الأقل من أعضاء الكونجرس السابقين مما يساعد الرئيس فى علاقاته بتلك الهيئة ، وجرت العادة أن يشغل منصب مدير عام البريد إخصائى الحزب فى الرعاية ، كما لا يزال من الحقائق الهامة أنه بالرغم من إطراد تصنيف هيئة الموظفين العموميين فالمنتصرون يتوقعون الحصول على الأسلاب (ويحصلون عليها) .

وليست الوزارة الأمريكية هيئة ذات مسئولية جماعية مما تعرفه الوزارة البريطانية . إنها مجموعة من رؤساء إدارات ينفذون أوامر الرئيس ؛ وهم مسئولون أمامه ويقيلهم دون تعريض مركزه لأى خطر . وليس بينهم و بينه علاقة كالتى قامت بين اللورد چون رسل واللورد بالمرستون سنة ١٨٥١ أو بين أسكويث ولويد چورچ فى سنة ١٩١٦ أو بين تشمبرلن وتشرشل فى أوائل صيف عام ١٩٤٠ . لقد أراد جاريسون وزير حربية الرئيس ولسن فى عام ١٩١٦ القيام باستعدادات حربية كبيرة فلما رفض الأخير استقال وخلفه المستر نيوتن د . بيكر الذى لم يمض قليل حتى بدأ استعدادات أوسع نطاقا مما اقترح سلفه . وأدخل الرئيس روزفلت فى وزارته عام ١٩٣٣ إثنين من الجمهوريين التقدميين وهما هنرى ا . ولاس وهارولد إكس ؛ ويقال إن الأخير وهو محام من شيكاغو لم يعرفه الرئيس إلى أن زار هايد بارك ليحث روزفلت على تعيين شريكه دونالد ريتشبرج فى المنصب الذى عرض عليه نفسه وقبله .

وطبيعى أن تتضمن وزارة الرئيس مظاهر معينة من الشعب الأمريكى ؛ فيجب أن تضم وزراء من الشرق والغرب ، وإذا كان فيها عضو من الشمال فمن المعتاد موازنته

---

(١) إن ضآلة شأن الوزارة أمر طبيعى لأن رئيس الجمهورية يختاره الشعب ويسبغ عليه الدستور سلطات واسعة : وقد ثبتت أفضلية النظام الرآسى للولايات المتحدة (المترجم) .

بآخر من الجنوب . وحتى الوقت الذى عين فيه روزفلت الآنسة فرانسيس بيركنس وزيرة للعمل كان من المعتاد أن يشغل المنصب أحد موظفى النقابات ممن يحتل منصباً عالياً فى الاتحاد الأمريكى للعمل. ومعظم رؤساء الجمهورية ، على الأقل منذ الحرب الأهلية ، وجهوا بعض الاهتمام إلى تكوين الوزارة الدينى بحيث تضم ممثلين للكنائس الكاثوليكية والنظامية والأسقفية . وجرت العادة أن تظل الوزارة سنوات طويلة وأن يشغل وزارة الخزانة شخص مقبول من المصالح المصرفية الهامة . والجدير بالملاحظة أن منصب الوزارة منذ الحرب الأهلية خلق (أو هدم) شهرة الذين اختارهم الرئيس . فقبل ذلك الحادث كان معظم الوزراء مثل كلاى وكالهون ممن كان فى وسعهم الوصول إلى البيت الأبيض ، أو مثل چيفرسون وماديسون ممن وصلوا إليه . وخلال الفترة الثانية من تاريخ الجمهورية لم يبلغ ذلك المركز السامى سوى تافت وهوفر ، واختيارهما تفسره ظروف خاصة بكل منهما .

قد يكون عضو الوزارة الأمريكية رجلا له أهميته ولكن ليس ثمت ما يجذبه إليها لأنه لا يستطيع وضع سياسة بقدر من الاستقلال الحقيقى إذ عليه أولا أن يقبل رغبات الرئيس وهو خادمه . ومن جهة أخرى لما كان مبدأ فصل السلطات يستبعده من الكونجرس فيجب عليه قبل أن يأمل تنفيذ آرائه أن يقنع بها رؤساء اللجان المناسبة بالمجلسين وليس الرئيس وحده . وفضلا عن ذلك كله فلا يحتمل أن يتجاوز ذوو الخبرة الوثيقة بالسياسة قبل تولى المنصب إثنين أو ثلاثة من الوزراء . فهم بخلاف الأغلبية الساحقة من أعضاء الوزارة البريطانية ليسوا ممن جعلوا السياسة مهنتهم . لقد ولى المستر رمزى مكدونلد المنصب لأول مرة حين أصبح رئيساً للوزراء عام ١٩٢٤ ولكنه كان قبل ذلك من الشخصيات البرلمانية البارزة . واختير لورد هالدين وزيراً للحربية لأول مرة فى سنة ١٩٣٦ وكان قبل ذلك عضواً بمجلس العموم لمدة عشرين عاما . والنجاح الباهر الذى أحرزه هندرسن كوزير للخارجية فيما بين ١٩٢٩، ١٩٣١ لم يقم على مجرد سنوات عدة من الخبرة البرلمانية بما فى ذلك المنصب الوزارى، إذ كان إلى جانب ذلك ولمدة عشرين عاما شخصية هامة فى مؤتمر الدولية الثانية .

هذا النوع من التلمذة نادر في عضو الوزارة الأمريكي . فقد تولى السناتور چون شيرمان وزارة الخزانة والمستر بلين وزارة الخارجية ، بينما توجه المستر إكس مباشرة إلى وشنطن من مكتبه كمحام في شيكاغو كما ذهب نيوتن د . بيكر من مكتب المحامي والسياسة البلدية في كليڤلاند. وانتقل المستر هوڤر من هندسة التعدين في الصين إلى هيئة إغاثة المجاعة في بلجيكا ومن هناك إلى وزارة التجارة في عهد الرئيسين هاردنج وكوليدج دون أن تكون لديه معرفة كبيرة بالكونجرس . وعين المستر أندرو ميلون وزيراً للخزانة لمجرد غناه الفائق وذلك في عهد رئيس كان يفترض أن الثراء فضل من الله . وأصبح مورجنتو الإبن وزيراً للخزانة في عهد روزفلت لا بسبب تخصص في المالية أو احتراف السياسة وإنما بحكم جواره للرئيس في Dutchess Country بنيويورك وشدة حماسته للسياسة الجديدة. وسبق للآنسة بركنس اكتساب خبرة حين وليت منصب مدير شئون العمل بنيويورك حين كان روزفلت حاكما لها .

ويمكن القول إن المستر هنري ولاس شهد قدراً من السياسة عن كثب إذ كان رئيس تحرير صحيفة للفلاحين وابن وزير زراعة جمهوري. ولكن إذا راجعنا سجل نصف القرن الماضي واستبعدنا إثنتين أو ثلاثا من الشخصيات في كل وزارة كان أصحابها من رجال الكونجرس فلن نلق بين الوزراء خبرة في الإدارة من المرتبة الأولى وعلى نطاق كبير . والحق ، ليس من الصعب أن نفسر اختياراً خاصاً على غير أساس الصداقة الشخصية بين الرئيس ومن يختاره للمنصب الوزاري .

إن الوزارة هيئة من أشخاص يديرون شئون وزاراتهم ويقدمون النصيحة للرئيس الذي ليس بحاجة إلى الأخذ بها أوحتى طلبها ؛ وكل من يطالع مذكرات وزراء مثل جيديون ويلز في عهد لنكولن أو فرنكلين لين أو روبرت لانسنج في عهد ولسون سوف يجد على الفور أن صلتهم برسم السياسة كانت دائماً غير واضحة ، فلم يعرفوا ما قرر الرئيس أن يفعله أو من أراد تعيينه؛ وقد يلاحظون بسهولة أن لأحد الشيوخ المهمين علاقة أوثق مما لأحد منهم . وأكثر من هذا ، فقد يكون بمجلس الشيوخ ذلك الفريق من « صانعي الملوك » مثل مارك حنا ، ولكن قد يكون أمثالهم خارج

المجلس مثل الكولونيل هاوس فى عهد الرئيس ويلسون . وقد يكون رجال مثل هارى هوبكنس أقرب اتصالا بالرئيس من مستشاريه الرسميين . ومنـــذ عهد « وزارة المطبخ » فى أيام أندرو چاكسون كان هناك القليل من الرؤساء لم يطلبوا النصح من أشخاص لم يشغلوا منصباً رسمياً أبداً . فقد كان للرئيس فرنكلين روزفلت فى « هيئة الأذكياء » التى شكلها مجموعة من المستشارين لم يشغل أى منهم منصباً وزارياً ، بل لم يكن فيهم من يحتمل تعيينه بالوزارة . بل وليس من المؤكد أن يمنح الرئيس ثقته التامة لوزيره ؛ ومن المحقق أن تأثير آموس كندال على أندرو چاكسون كان أعظم من تأثير أى وزير ، ومرت فترات كان لريموند مولى وسمنر ويلز نفوذ على روزفلت أقوى من رؤسائهم الرسميين حتى ولو لم يكن الآولون ممن يحضرون الاجتماعات الوزارية .

قد يكون الوزير الأمريكى شخصاً له أهميته البارزة كالمستر إليهوروت ، بل وقد يرشح للرآسة بفضل خبرته الوزارية مثل المستر تافت أو هوفر ؛ ولكن بوجه عام فإن هذا المغزى الذى يكتسبه يتوقف على الإطار الذى يضعه فيه الرئيس ، وفى النتيجة قد لا يكون له أهمية على الإطلاق . ومن المؤكد أن لعضو الشيوخ ذى الخبرة الطويلة أهمية تفوق أهمية أى وزير إلا إذا كان من الأفذاذ . ومما له مغزى أن يزج بالمستر فول Fall وزير داخلية هاردنج فى السجن وأن ذلك كان المصير الذى ينبغى أن يلقاه هارى دوجرتى دون أن يكون لذلك تأثير على زملائهما . والاستنتاج واضح وهو أن الوزارة لا تناقش إلا ما يريد الرئيس منها أن تناقشه ، وحيث لا توجد مناقشة فالمفروض أنه لا تكون هناك مسئولية ؛ إذ مما يلفت النظر على الأقل أن يدبر المستر فول مؤامرته الإجرامية فى الفضيحة المعروفة بأسم Teapot Dome Scandal دون أن يؤثر ذلك فى سمعة المستر هوفر أو المستر شارل إيفانز هيوز بأى حال .

والحق أن الوزير الأمريكى أشبه بالوكيل الدائم فى إنجلترا منه بالوزير البريطانى مع فارق يتخلص فى أنه يلقى خطباً وأن عليه وظائف ذات صفة رسمية يؤديها .

وإذا لم يكن قادراً على تأييد حججه فليس له سبيل للتأثير فى الرئيس أو الكونجرس، كما لا يحتمل أن يؤثر خروجه فى أى منهما . إن خطبه تنشر بلا شك ولكن قد يكون وضعه أعظم فى الخارج منه فى داخل البلاد ؛ وقد يجد لمرؤسيه نفوذاً أكبر فى البيت الأبيض وفى هذه الحالة إما أن يضمن لنفسه نفوذاً فى الكونجرس يجب أن يأخذه الرئيس فى الاعتبار وإما أن يستقيل . فالواضح مثلا أنه مرت فترة طويلة تمتع فيها المستر سمنر ويلز بنفوذ على الرئيس أكثر مما لوزير الخارجية كوردل هل ، ومن الواضح أيضاً أنه حين أصر الأخير على الاعتراض فان نفوذه فى الكونجرس أرغم روزفلت على الافتراق عن سمنر ويلز إذ لم يكن فى وسعه أن يفقد نفوذ الوزير وبخاصة إذ كان من النادر أن يأمل الرئيس تنفيذ سياسته بعد سنة ١٩٤٠ .

وعلى ذلك تبدو الوزارة الأمريكية فى نظر المراقب الأجنبى أقل النظم الإتحادية نجاحاً ، فلا يمكنها أن تكون أكثر مما يريده لها رئيس الجمهورية ونادراً ما يحتمل أن يجعل الرئيس منها هيئة مهمة وحتى إذا فعل فإن فصل السلطات معناه أن تلك الأهمية تتوقف على حسن نية المجلسين ، وحتى الوزير البارز قد يجد أن حياته تسير فى طريق الموت بغير رحمة إذ ليس من ضمان بأن فترة توليه المنصب ستكون أكثر من فترة راحة فى حياته مهما كان عمله مهماً . ومنذ أن أصبح من غير المحتمل، على الأقل منذ الحرب الأهلية ، أن يكون عضو الوزارة رئيساً للجمهورية أو حتى عضوا فى أى من المجلسين والأمر الأخير أقل إحتمالا فيكاد المنصب الوزارى ألا يكون أكثر من عمل مؤقت لا يؤدى إلى أية نهاية بصفة خاصة ، فللرئيس وحده الأهمية ولقراراته القيمة ولرأيه الغلبة على رأى زملائه الإجماعى . إنه بغير حاجة إلى استشارتهم بل قد يقرر عدم إستشارتهم ، وقد يعتمد على مستشارين ليس لهم مركز رسمى فى حزبه وانما يفعل ذلك بسبب صلة شخصية يقدرها . وعلى ذلك بينما يكون الوزير شخصية لها أهميتها فإنه لن يضمن أن يظل كذلك إذ يتوقف الأمر فى الغالب على الرئيس وبدرجة أقل على علاقاته بالكونجرس . وقد يجد أن عليه الاستقالة لأسباب سياسية أو شخصية .

وقد يعمل مع رئيس جمهورية شديد الاخلاص والرغبة فى طلب النصح ، أو مع رئيس ليس لديه أى شعور بالإخلاص ولا يهتم كثيراً بنصيحته . إن الوزير فى الولايات المتحدة يقامر حين يقبل المنصب ، ولن يستطيع الأمل فى أن يكون على علم بما يمكن أن يعمله إلا بعد أن يتحسس رأى الرئيس والكونجرس .

وفى الأزمنة الحديثة لم يعتمد رئيس الجمهورية على وزارته فقط ، فقد كان له مستشارون بعضهم من ذوى المناصب الرسمية مثل دين أتشيسون وأدولف بيرل والمستر ت . ج كوركوران ، والبعض الآخر لم يكن لهم أى مركز رسمى مثل الكولونيل هاوس ونورمان داڤيس والأستاذ (والقاضى حاليا) فرنكفورتر والمستر لويس د . برانديز (والقاضى برانديز فيما بعد). وكان معظمهم يستشارون فى موضوعات ذات أهمية بالغة ويكاد لا يكون من الإفراط فى المبالغة القول بأن عدداً قليلا من الوزراء كان لهم نفوذ بذلك القدر . ومن المؤكد أن محاضر المجلس فى عهد ولسون تبين أن هاوس كان يلى الرئيس نفسه فى التأثير على الشئون العامة . وفى أوائل عهد « السياسة الجديدة » ربما كان لحوالى ستة من الشبان تأثير فى تشكيل قرارات الرئيس أكثر مما كان لأعضاء الوزارة مجتمعين .

ومن جهة أخرى من المهم أن نلاحظ مظهرا واحداً لهذا النصح الخارج عن النطاق الوزارى . فسواء كان المستشار فى المستوى الذى عمل فيه الكولونيل هاوس أو فى مستوى نفوذ المستر كوركوران ، فسلطته توقفت على مقدرته فى الاحتفاظ بصداقة الرئيس ، إذ بمجرد أن قرر ويلسون أن هاوس تجاوز السلطة التى عهد بها إليه لم يعد له أى نفوذ ، وحدث الأمر ذاته مع كوركوران . والحق إن هؤلاء المستشارين من غير الوزراء لم يعيشوا بعد إختلافهم فى الرأى مع الرئيس إلا نادراً ، فقد كاد يستخدمهم لا بداء آراء يريدها فإذا عارضوها فندر أن يمنحهم ثقته . وحتى بالنسبة إلى الكولونيل هاوس وهو أشهر مثل لهذا اللون فى التاريخ الأمريكى كان شديد الحرص على أن يعرف ما يجول بخاطر المستر ويلسن قبل أن يقدم مشورته ، وحيث جرأ على مخالفته فقد كان ذلك بصدد المسائل الصغيرة لا المبادىء الكبرى ،

ويصدق هذا على شخصيات أقل من هاوس ، فإما أنها كانت تنقب عن معلومات يحتاج إليها الرئيس أو كانت تعمل نيابة عنه فى دائرة يسعى إلى التأثير عليها . ونقول بصفة عامة أن فائدتهم له كانت تنتهى إذا وجدوا أنهم لا يستطيعون التوفيق بين آرائهم وآرائه ، ذلك أنه من الأمور الحيوية دائما أن تتركز القوة التنفيذية فى رئيس الجمهورية والذين لايقبلون قراراته يتعين عليهم أن ينبذوا الأمل فى التأثير على عقله. إن نسبة الوفيات بين الرؤساء أثناء توليهم المنصب عالية ومن هنا فلمنصب نائب الرئيس مغزى لا يمكن إغفاله ، بالرغم من أنه لا يتضمن من المعنى أكثر من تلك الوظيفة شبه الرسمية من حيث رآسة مجلس الشيوخ . ولا ريب أن من الصحيح أن معظم نواب الرئيس ، لم يزيدوا عن كونهم موضع شفقة وهم لايصبحون ذوى أهمية إلا فى حالة موت الرئيس ولكن من الصحيح أيضاً أن بعضهم تحولوا من أشخاص أختيروا من باب الإشفاق إلى رجال ذوى خلق قوى وعزم ، ويصدق هذا على تايلر وأندرو جونسون وتيودور روزفلت وعلى كالفن كوليدج بطريقته الخاصة . من الغريب قلة الاهتمام بالمنصب وأشد غرابة أن لا يشرك الرؤساء ، عدا قلة منهم ، أولئك الذين يحتمل أن يخلفوهم ، فى المهام التى قد يطلب إليهم أن يضطلعوا بها . حقيقة سعى الرئيس هاردنج إلى أن يجعل لنائبه كوليدج إتصال يسير بعمل الوزارة ولكن سرعان ما أدرك الأخير أنه إنما يبدد وقته . وطلب فرنكلين روزفلت من نائبه هنرى ا . ولاس القيام ببعض المهام فى المجالين الداخلى والدولى إلا أنه بوجه عام لم يزد نائب الرئيس عن طيف يظهر على أفق السياسة الأمريكية . وليس من المبالغة فى الحقيقة القول بأن تعيين نائب الرئيس إجراء يراد به خدمة غرض جغرافى بحيث يمكن أن ينال المرشح من أهل الشرق أصواتاً من الغرب والعكس ، أو أنه كما فى الاختيار الشهير لتيودور روزفلت أسلوب تلجأ إليه أداة الحزب أملا منها فى وضع حد لحياة طامع فى الرآسة تبدو أخلاقه أو مبادؤه فى نظر الأعضاء ايجابية بقدر لا تجعل منه شخصاً صالحا .

والنتيجة غريبة ألا وهى أن الشخص الذى ليست له إلا فرصة ضئيلة جدا ليكون رئيساً للجمهورية نادراً ما يعرفه الجمهور وحيث يعرف فانه يكون فى العادة موضعا

للسخرية . وغالبا ما يكون إختياره أمراً عارضاً بحيث يصعب إقناع المندوبين فى المؤتمر بالبقاء أثناء اجراء عملية إختياره ، وحيث يتم الإختيار بارادة المرشح للرياسة كما انتخب المستر هنرى ا . ولاس من قبل المستر روزفلت فى عام ١٩٤٠ فانه فى هذه الحالة يكتسب أهمية أكثر من استحقاقه . ويبدو أن وجهة الرأى العامة إنه إذا كان ينبغى أن يُرى نائب الرئيس فعلى الأقل ينبغى ألا يسمع صوته ؛ ولعل من الأمور الطريفة فى التاريخ الأمريكى ما ثار من الدهشة بل والغضب حين اكتشف أن المستر ولاس لم تكن له آراء قوية فحسب بل وإنه كان على استعداد لإبدائها بقوة . والحق إن الاحتمال كبير بأن المستر روزفلت استطاع الإبقاء على الوحدة فى صفوف المؤتمر الديموقراطى المنعقد فى عام ١٩٤٤ عن طريق التضحية بولاس على مذبح سادة المدينة . إذ بالرغم من أن المستر ترومان كان أمينا فقد كان على الأقل « نظاميا » ودخل ميدان السياسة بوصفه مرشح عميد كنساس سيتى . وعلى ذلك فباختياره الذى وازنه اختيار الحزب الجمهورى بريكر حاكما لولاية أوهيو ، تجدد الأمل فى أن يهوى نائب الرئيس إلى زاوية النسيان التى اعتبرهـا الأمريكيون مكانه الصحيح ، وهو أمر يدعو إلى العجب .

أقول إنه أمر يدعو إلى العجب لأنه من الواضح أن مهنة الرئيس ليست من المسائل التى يمكن تعلمها بين يوم وليلة ، وهذا هو الحال بصفة خاصة كلما تدخل الولايات المتحدة كما هو محتوم فى عصر الدولة الإيجابية . وسواء كان العصر التالى من تاريخها ديموقراطيا أو جمهوريا فمن الواضح تماما أنهـا لن تعود إلى سياسة « الحرية الاقتصادية » ، ذلك أن تغييرات معينة فى عصر السياسة الجديدة أصبحت جزءاً من التقليد الأمريكى . فما من حكومة إتحادية سوف تحاول أن تغير أكثر من تفصيلات أداة لجنة الأوراق المالية والبورصة ، ولن تأمـل الانسحاب من الالتزامات الدولية التى تسعى إلى منع العدوان ، ولن تجسر على حدوث بطالة شاملة كما حدث أيام الكساد العظيم إلا إذا تعمدت الأخذ بسياسة فاشية . إنى هنا أتعمد تحديد نطاق النشاط الاتحادى إلى الحد الأدنى الذى يتضمنه موقف الولايات المتحدة

وسأحاول فى فصول تالية أن أبين أن سياسات وشنطن أيا كان الحزب الحاكم لابد وأن تتخطى هذا الحد الأدنى . وإذا صحت هذه الفكرة عن الحد الأدنى فيبدو لى من الواضح أن طراز نائب الرئيس الذى سوف تتطلبه الولايات المتحدة سيكون مثل هنرى ولاس أكثر من توماس ر . مارشال مثلا ؛ ذلك أنه بالرغم من صحة التعبير الذى أطلقه المستر مارشال حين عرف حاجة أمريكا بأنها « سيجار يساوى خمس سنتات » فمن الواضح أنه لو كان قد اضطر إلى تولى الرآسة فى فترة وودرو ولسون لما كان صالحا مطلقا لأداء المهام التى تواجهه . وليس على المرء إلا أن يتصور المستر مارشال يعالج مشكلات فرساى حتى يدرك كم من الخطر أن نتخيل المستر ثروتل بوتوم رئيسا لجمهورية الولايات المتحدة .

وبغض النظر عن تأثير الحرب العالمية الثانية فان أعظم تغيير فى الحكومة الإتحادية نلقاه فى ازدياد عدد وظائفها . فقد كان حوالى ٦٠٠٠ فى عام ١٨١٦ ، وارتفع قليلا عن ٤٩٠٠٠ سنة ١٨٦١ ، وأصبح ٥٦٢٠٠٠ سنة ١٩٢١ ، ٩٢٠٠٠٠ فى يونية عام ١٩٣٩ . وبينما صنف لامتحان المسابقة ١٣٨٠٠ وظيفة فى سنة ١٨٨٤ ارتفع الرقم إلى ٦٢٣٠٠٠ تقريبا عام ١٩٣٩ . وبينما أدى الامتحان ٣٥٤٢ مرشحا سنة ١٨٨٤ نجح منهم ٥٧٫٧ ٪ أدى الامتحان ٥٥٦٫٥٧٣ سنة ١٩٣٩ نجح منهم ٥٤٫٧ فى المائة . وبينما عين ٢٨٩ سنة ١٨٨٤ نجح منهم ٥٧٫٧ فى المائة ، أمتحن ٥٥٦٫٥٧٣ سنة ١٩٣٩ . وتعزى الزيادة من جهة إلى نمو الولايات المتحدة ذاتها ، ولكن العامل الأكبر فى هذا التوسع كان اضطلاع الحكومة الإتحادية بوظائف لم يحلم مؤسسو الجمهورية فى عام ١٧٨٧ أنها سوف تكون من المشروعات العامة .

وثمت أوجه شبه واختلاف بين هيئة الوظفين العموميين فى أمريكا ومثيلتها فى بريطانيا . ونجد الشبه فى أن الأغلبية الساحقة من الوظائف فى البلدين تتوقف على الامتحان ولكن بينما يقوم النظام البريطانى على امتحان المسابقة يقوم الأمريكى على إختبار المؤهلات . ويظهر التميز الحقيقى فى قمة الهرم الإدارى . ففى النظام البريطانى ندر جداً أن يدخل الموظفون الأساسيون إلا عن طريق امتحان المسابقة الدقيق ، مع استثناء وقت الحرب : ونقول بوجه عام إنه قد تكونت وسيلة تطابق إلى حد ما نظام البلاد التعليمى ، وأدت النسبة الساحقة من كبار الموظفين امتحانا يتناسب مع امتحانات الجامعة وبخاصة أكسفورد وكمبردج . والموظف البريطانى فى الطبقة الإدارية — وهى أعلى طبقة — يتوقع فى ظل الظروف العادية أن يبدأ عملا يستمر طيلة حياته . أنه يلتحق بالخدمة فيما بين الثانية والعشرين والرابعة والعشرين من العمر ويعتزل الخدمة فى سن الستين . فقد يلتحق بوزارة التعليم كناظر مدرسة صغير ويترك الخدمة وكيلا دائماً لوزارة التجارة . والغرض من الامتحان الذى يتقدم له إختبار ذكائه العام

وليست له علاقة بالعمل الذى قد يتولاه فيما بعد . ولقد كان سير روبرت مورانت أشهر موظف بريطانى فى الأزمنة الحديثة ؛ فحصل على المرتبة الأولى فى امتحان اللاهوت من أكسفورد ثم أصبح مدرساً لولى عهد سيام إلى أن حدثت ثورة فى ذلك البلد أدت إلى استقالته وعودته إلى الوطن . وبعد ذلك عين فى وزارة التعليم ويعتبر مسئولا إلى حد كبير عن قانون التعليم لعام ١٩٠٢ . وحين بدأ المستر لويد چورج نظام التأمين الصحى عام ١٩١١ كان السير روبرت مساعده الأساسى . وفى الفترة ١٩١٨/١٩١٩ كان مسئولا عن تحويل لجنة الحكومة المحلية إلى وزارةالصحة الحالية . وفيما عدا أن سير روبرت التحق بالخدمة بالتعيين لا الامتحان فقد كانت حياته صورة صادقة للموظف الواسع الخيال فى بريطانيا العظمى والذى له دراية بالتيارات الرئيسية فى العصر والذى أكسبه تعليمه خبرة فى معرفة آراء الوزراء الذين اشتغل معهم .

والاختلاف عن المستويات العليا من موظفى الحكومة الأمريكية واضح جداً ، إذ يندر أن يظلوا موظفين طيلة حياتهم العملية . إنهم يميلون إلى البدء معوزارة خاصة ثم يفترقون عنها إذا ما تولت غيرها ، وهم لا ينتقلون من وزارة إلى أخرى إلا قليلا . وباستثناء ثلاث حالات فان رئيس الجمهورية بعد استشارة مجلس الشيوخ وبموافقته ، يعين جميع وكلاء الوزاراتومساعديهم . لا ريب أنه غالبا ما يأخذرأى الوزراء الذين سوف يتعاون معهم أولئك الموظفين ، ولكنه ليس بحاجة إلى ذلك كما أنه غالبا ما لا يفعل ذلك . وعليه أن يتذكر الحاجة إلى مكافأة الذين ساعدوا حزبه فى إحراز النصر وعاونوه فى انتصارهالشخصى . ويجب ألا ينسى أهمية الطائفية فى مجتمع إتحادى ، وقد يحسن به أن يتذكر أن تعيينا حكيما قد يهدىء عنصراً معاديا فى حزبه . وعادة فكبير الكتاب هو الموظف الذى يلى الوكيل المساعد ؛ والمثل الذى يوضح مثل هذا الموظف المستر و . ه . رينولدس الذى عمل مساعداً إدارياً لرئيس الجمهورية من عام ١٩٣٩ إلى ١٩٤٣ . إن المستر رينولدس لم يحصل إلا على التعليم الأولىقبل أن يشتغل عاملا فىمزرعة ، وبعدذلك ذهب إلى ميتشيجان

حيث تلقى تعليما فى الأعمال التجارية كتمهيد للالتحاق بخدمة الحكومة . وفى سنة ١٩٠٦ أصبح كاتبا فى مصلحة البريد بأجر سنوى قدره تسعمائة دولار ، وفى عام ١٩١٢ انتقل إلى مكتب الكفاية كباحث وبعد ذلك صار مساعدا لرئيس المكتب . وفى سنة ١٩١٣ صار مديرا للجنة التصفيف وبعد فترة وجيزة من الخبرة كمساعد لمدير الميزانية عاد إلى مكتب الكفاية . وألغيت هذه الهيئة فى مارس سنة ١٩٣٣ فانتقل المستر رينولدس إلى وظيفة مدير المستخدمين فى مصلحة الائتمان الزراعى . وحين أصبح المستر مورجنتو رئيس تلك المصلحة وكيلا لوزارة الخزانة أخذ المستر رينولدس مساعداً له،وكان الطريق الذى تصل منه جميع المسائل إلى المسترمورجنتو طيلة بقائه فى وزارة الخزانة .

وكان للموظفين الآخرين من هذه المرتبة نفس الحياة الوظيفية . فالوكيل المساعد لوزارة الداخلية كان قبل التحاقه بخدمة الحكومة موظفا فى مصرف وفى السكة الحديدية ثم فى إحدى دور النشر . والمستر بول هـ . آپلباى ، المساعد التنفيذى لوزير الزراعة من عام ١٩٣٣ إلى ١٩٤٠ اشتغل فى مزرعة فواكه بعد تخرجه من الكلية ، ثم أصبح موظفاً فى أحد المحلات التجارية الكبرى فى تاكونا ومنها انتقل إلى احدى صحف Lowa وبعد ذلك استطاع شراء بعض المجلات الأسبوعية فى فرجينيا وبذلك اتصل بالمستر هنرى ا . ولاس واشتغل معه فى وزارة الزراعة . وكانت مهمة المستر آپلباى الأساسية التأكد من أن الموضوعات التى تعرض على رئيسه للبت فيها قد درست على الوجه الصحيح ، وكان يقوم بما يصح تسميته بوظفة العلاقات العامة بالنسبة الى المستر ولاس . ومثل آخر للطراز ذاته نلقاه فى المستر ستيوارت الذى اشتغل كاتبا فى شركة تأمين وبنك ثم نال إجازه الحقوق وزاول المحاماة فى كنساس سيتى . وفى سنة ١٨٩٠ اشتغل فى ادارة البريد بعد أن اجتاز امتحان المسابقة ، وفى سنة ١٩١٥ عين مساعدا خاصا للنائب العام وخصص لإدارة البريد حيث ظل بها حتى وفاته سنة ١٩٢٩ .

وكل من هذين المثالين لرجل جعل من نفسه على وجه العموم شخصاً لا غنى عنه

للوزير وقام بما يشبه عمل وكيل وزارة بريطانى . ويبدو الفارق باستثناء الوزير ، فى أن قلائل من كبار الموظفين ، عدا من اشتغل منهم فى البريد . ظلوا فى مراكزهم أكثر من ثلاث سنوات ، وقليل من يبقى أكثر من أربع أو خمس سنوات، باستثناء الإخصائيين . ويرجع هذا من جهة الى أن الأحزاب مضطرة الى الإستجابة الى المطالب الطائفية ، ولكنى أرى أن السبب يرتد إلى أن الموظف الذى يرتفع إلى أحد المناصب الثلاثة أو الأربعة الرئيسية تتوافر أمامه الفرص فى ميدان الأعمال وهى الفرص التى لو عرضت لزميله فى بريطانيا لما قبلها إلا فى النادر .

وجدير بالملاحظة أنه حيث يطبق نظام الجدارة فى الوظائف العامة الأمريكية ، فإن سن التعيين فى المناصب الرئيسية تقل حوالى عشر سنوات عما يحدث حين تتدخل الاعتبارات السياسية . وجدير بالملاحظة أيضاً أن أغلبية المكاتب العلمية مثل الجمعية الجيولوجية ومكتب المستويات ومؤسسة سميث ومصلحة السواحل والمساحة الجغرافية، وإن كانت مرتباتها أقل حسب المستويات السائدة كلها تقريبا فقد كانت غنية بشكل يثير الدهشة بالأعمال العلمية . ومما له أهمية خاصة أنه حين أراد ولاس فى سنة ١٩٣٣ أن يعين رئيساً لمكتب التنبؤات الجوية عمل بنصيحة لجنة من العلماء أحدهم من الحائزين على جائزة نوبل واثنان كانت لهما شهرتهما الممتازة بالخدمات التى أدوها للعلوم التى تخصصوا فيها . كذلك يجب ألا نغفل ملاحظة اختيار إلوود ميد كرئيس لأدارة استصلاح الأراضى فى الوقت الذى بدأت فيه الولايات المتحدة بناء سد بولدر . ولقد كانت الخدمات العلمية والتكنولوچية فى الحكومة الاتحادية موفقة دائما فى الذين اجتذبتهم من الرجال والنساء .

إن بين نظام الوظائف العامة فى الولايات المتحدة وبين الأساليب البريطانية تناقضات تكاد تذهل فى ضخامتها ، والتباين كبير إذا كان الإمتحان سبيل الالتحاق فأيا كان مستوى الوظيفة فالبريطانيون يحاولون اختبار الذكاء العام للمرشح بينما يسعى الأمريكيون إلى نظام يجعل الإمتحان ذا صلة مباشرة بالوظيفة ، ومن هذه الناحية لا أرى للطريقة الأمريكية صلاحية حقيقية بعد المرحلة التى تبدأ عندها الدراسة الجامعية. هذا ويعترف

الأمريكيون أنه يندر أن تكون الوظائف من نصيب المتقدمين إلى الإمتحان الخاص بها . فالذى نجده عادة فى وشنطن وزير حوله فريق اختاره بنفسه بينما يؤدى الأعمال الروتينية أفرادمتوسطو العمر ندر أن توافرت لهم الخبرةفى استخدام خيالهم أوالحاجة إلى إتخاذ قرارات هامة . لهذه الطريقة مزاياها بغير شك إذا كان للوزير وجماعته سياسة كبرى لديهم الاستعداد للكفاح من أجلها مهما كانت التكاليف ، ولكن حين نفحص تاريخها وليكن منذ الحرب الأهلية فنجاحها كان نادراً ومتقطعا.

ويجب أن نتذكر أنه بينما يأتى الأسلوبُ البريطانى إلى هويتهول بعدد بالغ من الوظفين من الطبقة الأولى فانه يتقاضى ثمنا مزدوجا عن مقدرتهم ، فيميل أولا إلى خلق تقليد مصلحى لا يتحول عنه إلا وزير فذ حقا ولا يحمله على هذا التحول سوى موظف ممتاز فعلا . ولما كان أى خطأ قد تترتب عليها بسهولة نتائج هامة بالنسبة إلى الحكومةلهذا نجد الموظف عازفا عن العمل وشديد الرغبةفى اتباع الأساليب المألوفة ليس فى وسع المراقب النزيه أن ينكرماللوظائف العامةفى بريطانيا من مزايا فىالدرجة الأولى من الأهمية ، كاستقامتها ونزاهتها وادراكها لواجباتها كلها وقدرتها — فىظل ظروف تاريخها — على أن تكون فرقة سياسية بالغة الروعة ؛ غير أن هذه الفضائل ذاتها ينجم عنها انتفاء الجرأة والخيال فضلا عن ميل إلى إقناع الوزير بما يكمن فيها من عدم رغبة فى التغيير الواسع النطاق . إن الموظف البريطانى يميل دائما إلى استلهام الماضى أكثر من المستقبل ، ويعالج المشكلات بطريقة الجنتلمان ، وتصرفاته تتضمن تلك الفلسفة التى أجاد المستر سدنى وب تسميتها « حتمية التدرج » ؛ فهو يأمل أن يكون الغد كاليوم ، ويرى مماينتافى مع الشهامة ألا يصدق شخصا ولو كان أدولف هتلر ، ويعزف عن فحص أسس الفلسفةالإجتماعية التى يطبقها بناء على طلب الوزراء الذين يعمل معهم . إنه جزء من طبقة اجتماعية عليا فى المجتمع البريطانى نادراًما تنظر إلى الطبقات الحية التىدونها مرتبة كما يصعب عليها الاعتقادبأن للاخيرةعمق أفكارها وعواطفها . ونظراً لتدربها سنوات طوال على عادات الاحترام الباعث على السخرية فليس من المؤكد أنها ترى أن ثمت أشياء لها أهمية حقا فيما عدا التفصيلات الدقيقة كما تعتبر أحداث الغد وحدها جديرة بالاهتمام . من صفوفها تخرج النبغاء من كتاب

المقالات والقصص والشعر والتاريخ والخبراء فى اللغة اللاتينية بالعصور الوسطى وفى مختلف أنواع النبيذ البرجندى . وبالرغم من كل تلك المزايا من المهم أن نلاحظ أنه فيما يتعلق بالأفكار الإجتماعية فإن جيريمى بنتام نظراته أوسع مدى وأبعد غوراً من أية جماعة من الموظفين منذ عهده .

وإلى عهد قريب جداً كانت طائفة الموظفين العموميين بأمريكا نظاما يبعث على الخيبة . لقد برز من صفوفها بين الحين والآخر أفراد ممتازون مثل جون باست الحجة فى القانون الدولى أو إدورد ميد الذى أدى عملا عظيما فى استصلاح الأراضى البور . إلا أنه باستبعاد الوظائف الرئيسية فلست أظن فى الإمكان القول بأن الوظائف الإتحادية من ناحية رجالها الدائمين تتناسب مع المشكلات التى تواجهها . ولما كان معظمهم وهم من التحقوا بها نتيجة إمتحان المسابقة ، اقتصروا على العمل الروتينى لهذا ندر أن اعتبرها أهل المقدرة والنشاط المجال الدائم لحياة عملية . إن القاعدة العامة أن يشغل الموظف المنصب العالى كنوع من الجزاء السياسى أو بسبب كفاءة معيارها خلاف إمتحان المسابقة . وبينما لا يمكن الادعاء بأن نظام الأسلاب اختفى حقيقة فأننا نلاحظ خارج إدارة البريد ووزارتى الخزانة والخارجية أن مدى الجزاء الذى يتوافر للحزب الحاكم يكاد لا يزيد عما لدى رئيس الوزراء فى بريطانيا العظمى ؛ وكما قال الأستاذ بروجان بحق « إن نظام الأسلاب بأسره اليوم ليس إلا ظلا لإسم عظيم ، وهيئة الموظفين فى الولايات المتحدة تشبه فى مظاهرها الأساسية الهيئات المماثلة فى معظم البلدان[1] » .

ذلك التعميم يصلح أيضا لإخفاء حقيقة ذات أهمية كبرى ؛ فبينما الأغلبية الساحقة من صغار الموظفين الإتحاديين يظلون فى الخدمة طيلة حياتهم مثل زملائهم فى لندن أو باريس فان رسم السياسة العليا ليس فى أيديهم بخلاف الأخيرين . وبينما لا توجد وزارة لا تضم موظفا دائماً قد يكون له نفوذ أو مثل المستر هارى سلاترى له قوة حقيقية

---

(١) D.W. Brogan : The American Political System, (London Hamilton, 1943) p. 203.

وفعالة فأن انتاج الرؤساء أعظم بكثير مما نلقاه فى معظم البلاد الأخرى . ويزداد الميل الى أن يكون الوكلاء والوكلاء المساعدون ممن يعينهم رئيس الجمهورية ويبقون فى مراكزهم طوال فترة الرآسة أو خلال الشطر الأكبر منها . والنتيجةأن كل وزير يميل الى أن يحيط به مايسميه الفرنسيون « المكتب الخاص »أى جماعة من موظفين يشاركون رؤساءهم السياسيين المبادىء التى يسير عليها العمل كما يزودونهم بالفاعلية. هذه الخبرة الإدارية بالنسبة اليهم لا تعدو كونها فترة استراحة وهى فترةهامة بلاشك فى حياتهم العملية الأساسية . قد يكونون من أساتذة الجامعات أو المحامين أو رجال البنوك بل ورجال الأعمال . وجوهر مركزهم أنهم يشتغلون فى أعلى مستويات السياسة ويعتبرونه ذا صبغة مؤقتة تماما ؛ بل قد يلتحقون بوزارة لفترة ليستأنفوا بعدها مهنتهم الأصلية كما فعل المستر دين أتشيسون ، وربما يقبلون العودة ثانية إلى الحياة الرسمية. ليس ثمت شبه أو هناك شبه قليل بين طابع وظيفتهم وتلك الخدمات التى يتميز بها الوكيل الدائم فى وزارة بريطانية ، فيما عدا حالات استثنائية نادرة . إنهم يقبلون المنصب الذى يعرض عليهم لأنهم يوافقون على الإتجاه الذى يسير فيه رئيس الجمهورية أو الوزير والذين يرون أن السياسة ينبغى أن تسير فيه . لاريب أن عليهم أن يعتمدوا كثيراً على موظفين اعتادوا معالجة الأوراق وتوجيهها عبر الصخور التى لا حصر لها والتى تضعها كل جماعة بوشنطن فى طريق الموظف الكبير .ولكن الموظف الدائم روتينى بينما مهمة الموظف الذى يعينه رئيس الجمهورية الابتكار ، وقد يرى الأخير أن الابتكار يتضمن ما يتراوح بين اعداد خطاب لرئيس الجمهورية وبين إعداد مشروع قانون ومساعدة رؤساء اللجنة المختصة فى كل من المجلسين على إقراره فى الكونجرس . إنهم لا يعنون بالادارة فقط بل عليهم كذلك حماية الوزير ورئيس الجمهورية من العداء المحتمل من جانب الصحفيين والجماعات القوية التى تضغط فى وشنطن . حين عمل المستر كوركوران والمستر بنيامين كوهين فى وزارة الداخلية أثناء رآسة فرنكلين روزفلت الثانية كان من الصعب ألا نفهم أنهم أشبه بالخادم التى تؤدى كل أنواع العمل. فكانا يعدان مشروعات خطبه، ويرسمان الخطوط الرئيسية لمشروعات القوانين ، ويقومان بالمناورات بين أعضاء المجلسين وفى صفوف الهيئات

التى تحاول التأثير على هؤلاء الاعضاء . وليس من المبالغة القول بأنهما كان عين الرئيس وأذنه فيمدانه بالمواد التى يبنى سياساته على أساسها . كان الإثنان من رجال المحاماة وليست لهما خبرة سابقة بالإدارة . والشيء المهم فى عملهما هو الإدراك بأنهما كانا يحتفظان بقيمتها طالما كان من المحتمل — حسب رأى الرئيس — أن يساعداه فى تحقيق النتائج التى يرغب فيها . فاذا تحقق الهدف رأيناهما يعتزلان المنصب بنفس الطريقة التى اتبعها المستر سمنرويلز حين عجز عن الاتفاق مع المستر كوردل هل . كانت قيمتها محصورة فى مقدرتهما على سياسة لا شك أنهما اشتركا فى وضعها ، ولكن هذه القيمة زالت فى اللحظة التى اختلفا فيها مع السياسة التى كان من عملهما الموافقة عليها .

وثمت معنى آخر تختلف فيه الوظيفة العامة الأمريكية إختلافا كبيراً عنها فى بريطانيا العظمى . وإذا صح القول بأنه من وقت لآخر شغل المناصب الدبلوماسية الهامة رجال لهم امتيازهم السياسى مثل اللورد داربى واللورد لوثيان واللورد هاليفاكس دون أن يتوافر لهم تدريب رسمى ، فالقاعده العامة أن هذه المناصب يشغلها رجال من السلك السياسى . ومنذ سنة ١٩١٦ كان الإلتحاق بالسلك السياسى ، مع موافقة وزير الخارجية ، يتوقف على نفس الإمتحان الذى يؤديه المرشح العادى للوظيفة العامة مع فارق وحيد هام يتلخص فى توجيه اهتمام خاص إلى الإلمام باللغات الأجنبية . أما الحال فى أمريكا فيختلف بشكل ظاهر . فاذا صح أن الوظائف الأقل مرتبة يشغلها رجال يتخذونها حياة دائمة لهم فان المناصب التى من الأهمية الأولى مثل لندن وباريس وبرلين وموسكو نوع من المكافأة عادة لأفراد عاونوا الرئيس فى الوصول إلى البيت الأبيض بتقديم المال لحملته الإنتخابية أو بغير ذلك من الوسائل .

ومن السفراء الأمريكيين فى لندن منذ سنة ١٩٢٠ نذكر الكولونيل هارفى والمستر هوتون وميلون ويوسف ب. كنيدى وچون وينانت والمستر و . ا. هاريمان . ومن هؤلاء جميعاً يمكن إعتبار المستر هوتون دبلوماسيا محترفا بخلاف الباقين ؛ فهارفى صاحب صحيفة ، وداوس مصرفى من شيكاغو ، وميلون أحد أغنى ثلاثة أو أربعة فى أيامه ، وكنيدى مضارب ناجح فى بورصة الأوراق المالية . وبالرغم من أن المستر

وينانت توافرت له خبرة إدارية طويلة حيث أنتخب حاكماً لولاية نيوهامبشير وعين مديرا لمكتب العمل الدولى فإنه لم يتخصص من قبل فى الشئون الدولية . وأرسل روزفلت إلى برلين أستاذاً للتاريخ بجامعة شيكاغو ، وإلى موسكو محاميا من أصحاب الملايين ، وفى بداية عهده إختار لسفارة باريس رئيس أحد المتاجر الكبرى فى نيو يورك ثم عين مكانه أحد أغنياء فيلادلفيا، وبعث إلى أسبانيا بأحد أغنياء نيو يورك ثم بعد ذلك بكاثوليكى متحمس كان أستاذاً للتاريخ فى جامعة كولومبيا . وعين لدى الفاتيكان شخصية بارزة فى شركة صلب الولايات المتحدة ، وإختار المستر نورمان داقيس نوعا من الدبلوماسى المتجول وهو محام ممتاز بنيو يورك وليس من المبالغة القول بأنه التقط معرفته بالشئون الدولية أثناء تجواله .

والذى يلفت النظر بشأن هذ الأسلوب أنه بالرغم من أنه كان بينهم من أخفق بلا شك فقد كانوا بوجه عام على الأقل ذوى قيمة بالنسبة إليهم كما كان الدبلوماسيون المحترفون والمدربون بالنسبة إلى وزير الخارجية فى بريطانيا العظمى . فالذى يوازن مثلا بين «يوميات» السفير وود Wood وبين «إخفاق مهمة» للمستر نيڤيل هندرسون سوف يجد من الصعب جداً ألا يستخلص أن الأول كان أعمق وأصدق فهماً لطبيعة النازية مما نلقاه فى الصفحات العقيمة التى سطرها الخبير البريطانى وقليل من يستطيع مطالعة « مهمة إلى موسكو » للمستر يوسف ا . دافيز دون الإعتقاد بأنه فهم الإتحاد السوفيتى بصورة أكمل وأسرع من أى سفير بريطانى عين هناك قبل ٢٢ يونيه سنة ١٩٤١ . صحيح أن اللورد لوثيان حقق نجاحا خلال الفترة القصيرة التى قضاها سفيراً فى وشنطن ، ولكن صحيح بالمثل على الأقل أن وينانت حقق نجاحا ساحقا كسفير للولايات المتحدة فى لندن . وإذا أراد المرء أن يشير إلى الذين أخفقوا من الدبلوماسيين الأجانب لوجد أن أغلبهم من المحترفين مثل المستر روبرت مورفى الذى بعث به روزفلت إلى باريس .

ما تفسير هذا التناقض ؟ فى ظنى ليس من السهل البت فى الأمر . فمن جهة لاشك أن الدائرة التى يستمد منها السلك الدبلوماسى البريطانى رجاله صغيرة نوعا ، وليس من

غير سبب أن وزارة الخارجية ظلت مملكة « الطبقة الممتازة » . إلا أنه إلى جانب هذا يجب أن نذكر أن نسبة بالغة القدر من أفراد السلك السياسى الأمريكى — مع إستبعاد السفراء — من أصحاب الدخل الموروث الذين يماثلون أقرانهم فى بريطانيا. وأظن أن السبب طابع رئيس الجمهورية ، فإن كان ذا صفة حقيقية ، فكرية أو أخلاقية ، فأنه يميل إلى إجتذاب رجال على شاكلته إلى الوظائف التى تحت تصرفه . إن رجالا كجيفرسون وجون كوينسى أدامز وجالاتن وشارل فرنسيس أدامز يقبلون بطبيعة الحال العمل تحت لواء زعيم عظيم ، كما أن أمثال الكولونيل چورچ هارفى أو المستر أندرو و. ميلون صورة للرئيس الذى يمثلونه . صحيح أن الكثيرين من رؤساء الجمهورية المتأزين اختاروا لوزارة الخارجية والسفارات بالخارج رجالا يصعب أن يشعر المرء بغير الإحتقار لهم ولكن تفسير معظم هذه الحالات حاجة الرئيس إلى مكافأة أحد أنصاره على مساعدة قدمها إليه. وقليل على ما أتخيل يفترضون أن الرئيس ولسون إختار المستر وليم چننجز بريان للخارجية عن رغبة شديدة فى الإستفادة من خبرته الدبلوماسية ، وإن رأى الرئيس فى المستر والترهاينز بيچ تعبر عنه تلك المجموعة الهائلة من الرسائل الواردة من لندن والتى وجدت على مكتب الرئيس . إن الأمريكى العادى الذى يصل إلى منصب عال فى خدمة بلده بالخارج قد تكون خبرته بالحياة أوسع من خبرة زميله ببريطانيا وإن لم يكن هذا هو الشأن بغير شك إذا قارنا وزراء الخارجية فى البلدين . والتعميم الثانى الذى أجازف به أن الفرد العادى فى السلك السياسى ببريطانيا العظمى يقصر علاقاته على عدد أصغر من الأشخاص سواء داخل البلد أو خارجها ، وذلك بالقياس إلى الدبلوماسى الأمريكى . وقد حدث أن أول الملحقين العماليين عين فى لندن ووشنطن خلال الحرب العالمية الثانية ، وأشك إذا كان فى بريطانيا ستة أفراد ألموا بشتى نواحى الحركة العمالية بالدقة التى تجلت فى الشخص الذى عينه الرئيس روزفلت . وليس من الظلم القول بأن الممثل البريطانى الذى مهمته دراسة الحركة العمالية الأمريكية كان يعرف عن عاداتها أكثر مما تتيحه الصورة المحدودة فى وشنطن .

من الصعب جداً عقد موازنة عادلة بين هيئة الموظفين العامين الأمريكية ومثيلتها في الدول الكبرى الأخرى . فإلى مثل الوقت الذى ولى فيه تيودور روزفلت الرآسة ندر أن قبل الرجل الممتاز إتخاذ الوظيفة الحكومية مهنة دائمة له نظراً لعظم الفرص في المجالات الأخرى . ومنذ أيام ذلك الرئيس بدأ ببطء أولا ثم بسرعة نوعا بعد دخول وودرو ولسون البيت الأبيض إزدياد الإهتمام بالإدارة الإتحادية . وكان ذلك من جهة نتيجة ازدياد إتساع نطاق قوة الحكومة الإتحادية . وليس من المبالغة القول بأنه بعد سنة ١٩٠٠ لم يعد للولايات ذلك النفوذ أو السلطان مما كان لها في القرن التاسع عشر ، وأصبحت ببطء أولا وبعد الحرب العالمية الأولى بسرعة نوعا تعتمد على مساعدة حكومة الإتحاد . وإنى لأجسر على الشك فيما إذا كان الموظف الأمريكى قد توافر له عموما ذلك الحماس للإتقان وعدم الخطأ مما يميز البريطانيين من ذوى المناصب الهامة لمدى نصف قرن . وكذلك فإنى على يقين نوعا أنه يفتقر إلى الثقافة الرقيقة التى استفاد منها الموظف الفرنسى الكبير فى عمله . وإذا وازنا بينه وبين مثيله الألمانى فمن المحتمل أنه يفتقر إلى ما تميز به الأخير من الدقة ، ولكنه يختلف عن هؤلاء جميعاً إذ لا يعرقل عمله ما يخضعون له من السلطان ونفوذ الطبقة التى ينتمون إليها ؛ كما كان فى وسعه إبداء الجسارة والكفاية على نطاق قل أن نجده إلا فى صفوف الممتازين من الموظفين الأوربيين ولعل السبب فى ذلك أنه لم يكن يتوقع البقاء فى وشنطن وكان يفترض أن المنصب الذى سوف يشغله حين تنتهى خدمته فى الحكومة سوف يعينه عمله كموظف اتحادى. وأظن السبب كذلك راجع إلى أنه باستثناء رئيس الجمهورية كان من النادر أن نجد لدى الموظفين الأمريكيين الرئيسيين عادة الإحترام التى نلقاها من جانب أغلبية الوكلاء الدائمين نحو وزرائهم فى بريطانيا . وقدر غير يسير من الإختلاف يعزى إلى تأثير إنقسام السلطات . فالموظف البريطانى البارز الذى يرتكب خطأ جسيما يعرف أن النتيجة لن تسفر عن هدم وزيره فحسب بل وقد تودى بالوزارة التى منها هذا الوزير . أما الموظف الأمريكى ذو الأهمية فلا تساوره أمثال هذه المخاوف ، فما دام الوزير على علاقات طيبة برئيس الجمهورية وهو نفسه على علاقات طيبة مع الوزير فلن يخشى النقد أو التحقيق إلا قليلا ، وهذا ينجم عنه

أنه يستغل منصبه فى كل ماهو جدير به . وكل من يقارن مثلا عمل المستر فيلكس فرتسكفورتر كرئيس للجنة سياسات العمل أثناء الحرب ثم كسكرتير للجنة رئيس الجمهورية للوساطة خلال الحرب العالمية الأولى سوف يميل إلى الشك فيما إذا كان هناك من يستطيع أن يبدى مثل هذا العزم باستثناء سير روبرت مورانت ببريطانيا. والواضح أن اللورد فانسيتارت والذى لا يعتبر الحياء أبرز صفاته ، ألفى نفسه مقيــداً بقاعدة الصمت التى يلتزمها الموظفون البريطانيون ولذلك لم يحاول إبداء الخلافات التى قامت بينه وبين اللورد هاليفاكس أو المستر نيفيل تشمبرلن بصدد مسائل حيوية تتعلق بالسياسة الخارجية إلى أن إستقال من وزارة الخارجية واتخذ من مجلس اللوردات منبرا يبــدى من فوقه آراءه . وحين حان ذلك الوقت كان قد أصبح سياسيا متقدما فى السن لا يزداد تأثيره عما لو بعث بخطابات الى رئيس تحرير جريدة التيمس .

وعظم التأثير الوظيفى بسرعة كبيرة منذ ولى فرنــكلين روزفلت الرآسة عام ١٩٣٣ . لست أقصد أن النتيجة كلها كانت خيراً ، فلا يسهل على المراقب الأجنبي أن يفهم كيف أعتمد وزير الخزانة فى عهد السياسة الجديدة على إثنين من الإقتصاديين كانت هذه السياسة وأعمالها موضع سخطهما . وليس من السهل أن نفهم كيف أن الـكثيرين من كبار موظفى الخارجية أيدوا فرانــكو فى أسبانيا وموسولينى فى إيطاليا وأبدوا مثل هذا العطف الغريب نحو الماريشال بيتان وحكومة فيشى ، أو نفهم السبب فى تلك الرقابة على الأنباء والـكتب مما حرم الجيش الأمريكى فى الخارج من المعلومات الجوهرية التى كان لا بد لهم منها ليصوتوا بحكمة فى إنتخاب عام ١٩٤٤ . إن مــــدى المتناقضات فى السياسة الأمريكية أكبر مما يسهل تفسيره . فليست هناك رقابة من جانب الخزانة بحيث تجعل الأولوية للمضمون المالى للاقتراحات ، وليس من أساس تبنى عليه الوزارة وحدة تنفيذية إما لأن أعضاءها لم يشتركوا طويلا فى العمل أو لأن كبار الموظفين ليس بينهم تقليــد مشترك منبثق من خبرة مماثلة . وليس ثمت مذهب من المسئولية المشتركة بما يــكفل إتجاها واضحا فى السياسة ، وليس علينا ألا أن نطالع يوميات جيديون ولز وزير بحرية لنــكولن أو مذكرات روبرت لانسنج وزير خارجية

ولسون فتلاحظ كيف تعتمد وحدة الإدارة على توجيه الرئيس وهذه لا يحتمل أن تحقق إذا لم يكن الأخير قد إستقر رأيه .

وثمت نتيجتين يصل إليهما المراقب الأجنبي حين يتمعن تاريخ هيئة الموظفين في أمريكا ، أولاهما أن السياسات الكبرى هي التي تجتذب الموظفين الكبار إلى وشنطن وأن هذه يرسمها كبار رؤساء الجمهورية . وثانيتهما عظم الإحتمال بأزدياد الدور الذي سوف يلعبه الموظفون الإتحاديون في رسم السياسة والسبب إطراد إتساع نطاق السلطة الإتحادية مما يجعل الخدمة في واشنطن موضع إقبال وأكثر مغزى عن ذي قبل . إن قلة من الناس ممن توافر لديها الخيال والشعور بالروح العامة كانت تتردد في الإختيار إذا عرض عليها رآسة هيئة وادي التنيسي أو رآسة شركة الطباق الأمريكية .

والحق ، قليل من يحتمل أن يتخذ من الوظائف الإتحادية الرئيسية عملا طيلة حياتهم ، ذلك أنهم يعتبرونها مجرد فترة إستراحة وان كانت لها أهميتها . والسبب مستمد من طابع الحياةالأمريكية حيثالسياسة والحياة السياسية مما يعنى به المواطنون بصورة مؤقتة .

هذا هو السبب في أنهم لا يعرفون ماذا يعملون برؤساء الجمهورية السابقين . ولم يستطع سوى قلة من الوزراء أن تخدم أكثر من رئيس واحد أو عملت على الإستفادة من خبرة موظفيها أكثر من فترة رآسة واحدة . وقد يكون السبب صغر المرتبات نسبيا فضلا عن جاذبية العمل في ميادين القانون والبنوك والصناعة وذلك في مجتمع يعتبر فيه تجميع ثروة كبيرة مصدراً للنفوذ القوى . إن رجالا مثل كارنيجى وفريك وروكفلر وآستور وجولد لم يكونوا في حاجة إلى مناصب تكفل لهم النفوذ لأن هذا توفره لهم ثرواتهم . من المفهوم أن يقبل المنصب الحكومى شخص صغير نسبيا أو رجل مسن في فترة أزمة حقيقية كالحرب مثلا ؛ بل ويمكن أن نفهم كيف يقبل رجال من طراز چون هاى أو هاملتن فيش معاونة الرئيس في الأوقات العادية . إلا أننا نلاحظ بوجه عام أن السياسى الذى يرغب في حياة داخل نطاق الشئون

الإتحادية يفكر أولا فى مجلس الشيوخ وإذا طال به الإنتظار ففى مجلس النواب؛ إذ فيهما يصبح رجلا له أفكاره . وكلما طالت مدة عضويته بالكونجرس زادت شخصيته أهمية ومغزى . أما الوزير فى عهد رئيس عظيم فلن يزد عن كونه صدى لصوت سيده فإن أبى ذلك الوضع فقد المنصب . وإذا خدم رئيسا ضعيفا فقد يجد أن الكونجرس هو الذى يضع السياسة وأنه يفتقر إلى السلطة . وكلما هبطنا سلم المناصب زادوضوحا أن الرئيس هو كل شىء أو أن مركز القوة الفعالة فى الكونجرس. والنتيجة أنه من الطبيعى للأمريكى أن ينظر إلى الكونجرس لا على أنه مصدر خبرة تساعده فيما بعد بل على أنه وسيلة لتطبيق مبادىء يعتنقها . إن معظم كبار الموظفين يشعرون بالدهشة حين يختارون لمناصبهم ، وتزداد دهشتهم حين يكتشفون أن مناصبهم تمكنهم من تنفيذ مجموعة متماسكة من أفكار يؤمنون بها . إن وشنطن المكان الذى يمرون فيه إلى ميادين أخرى وأهميتها تنحصر فى مدى ما تسهم به فى حياتهم حين يتركون الخدمة الإتحادية .

ما من بلد يشغل فيه رجل القانون مركزا يقرب ولو من بعيد من مركزه فى السياسة الأمريكية . فالاحترام الذى تحظى به المحاكم الاتحادية وبخاصة المحكمة العليا يكاد يعادل تأثيرها على حيــــاة الولايات المتحدة . وإذا كان من المبالغة أن التاريخ الأمريكى يمكن كتابته على ضوء قرارات الحكومة الاتحادية فليس من المبالغة القول بأنه يكون ناقصا بغير الفحص الدقيق لها ، باستثناء رآسة الجمهورية ، وليس من منصب تحوطه الحماية الكبيرة أكثر من منصب قاضى المحكمة العليـا . وإذا صح وجود قضاة من طراز ردىء فى أنواع المحاكم الاتحادية الثلاثة فقــد استطاعت أن تجتذب من لا يقلون كفاءة عمن وصلوا إلى رآسة الجمهورية ، وكم قبل الكثيرون من الوزراء والشيوخ عضوية المحكمة العليا بدلا من مراكزهم . وبغير مغالاة فان تأثيرها منذ عهد مارشال فى الجيل الأول من تاريخها إلى أيام ڤنسون فى العصر الحالى يفوق تأثير أى نظام أمريكى آخر .

ويتــكون النظام من درجات يتعلق الجانب الأساسى من عملها بالقانون الخاص ، فقضاتها ينظرون القضايا المتعلقة بالعدالة أو القانون العام أو بتعاقد أو ضرر أو وصية مثلما يفعل زملاؤهم فى انجلترا ، واذا كان هناك اختلاف فمرده إلى أن الدستور الأمريكى مكتوب . وباستبعاد الأسلوب المعقد الذى ينص عليه الدستور لإجراء التعديلات فليس من سلطة خاصة أو تنفيذية أو تشريعية تتخطى المحكمة وذلك منذ القرار العظيم الذى أصدره مارشال فى قضية Mc. Culloch v. Maryland[1] والذى جعل المحكمة المصدر الفعال لتفسير الدستور . قــد تتعلق المسألة بقرار لهيئة مثل لجنة الخدمات العامة فى نيويورك ، أو قانون تصدره فى حماس الهيئة التشريعية باحدى الولايات أو الكونجرس ، أو سياسة إحدى نقابات العمال أو رابطات رجال الأعمال ، أو إصرار

(١) 4 Wheat 316 (1819)

شخص أدين على أنه لم تتح له محاكمة عادلة وفقا للدستور كما حدث فى قضية فرانك الشهيرة ، أو محاولة طالب زنجى إرغام سلطات الجامعة على قبوله بمدرسة الحقوق أسوة بالطلاب البيض ، أو إصرار أبناء تلك الشعبة الخاصة Jehova's Witnesses على أن حرمانهم من المدارس العامة بحجة أنهم يرفضون تحية العلم الأمريكى أمر يحرمه الدستور ، أو أن مطالبة أمريكى من مواليد روسيا أهل نيويورك فى سنة ١٩١٩ « برفع الأيدى عن الاتحاد السوفيتى » لا يمكن اعتبارها خرقا لقانون التجسس الصادر سنة ١٩١٨[١]. وقد يعرض على المحكمة مسمى كولومبيا لتحريم تشغيل الأطفال . وقد ترى الهيئة التشريعية فى ولاية نيويورك أن لها الحق فى تحريم صنع الخبز ليلا[٢]. وقد ترى كلية قديمة مثل دارتموث على لسان ويبستر العبقرى أنه بمجرد أن قدمت نبوها مبشير منحة فالعقد لا يمكن إبطاله . وقد يطلب المحامى الممتاز شويت من المحكمة أن تعلن أن محاولة فرض ضريبة على الدخول لا تخالف المساواة فى توزيع عبء الضرائب وفقا للدستور فحسب بل وينطوى عليها خطر فرض المبادىء المرعبة التى تنادى بها الديموقراطية الاشتراكية على شعب الولايات المتحدة وهو الخطر الذى سعى الآباء المؤسسون فى سنة ١٧٨٧ إلى إقامة سد دائم ضده . فى هذه الأمثلة وكثير غيرها فالمحكمة تبدى الرأى بأغلبية عضو واحد بشأن المعنى الذى يقصده الدستور فى وقت معلوم ؛ وهذا القرار لا يخضع إلا لسلطة التعديل التى نص عليها الدستور .

والذى نستخلصه أن سلطة المراجعة القضائية تجعل من المحكمة العليا فى الحقيقة مجلسا تشريعيا ثالثا ولكنه مجلس يتوقف كما لاحظ القاضى ميلر على إرادة وموافقة السلطة التنفيذية إذا أراد أن يكون قراره نافذاً . ليس المقصود أن المحكمة هيئة ضعيفة ، بل بالعكس فطالما لا تثير الرأى العام فإنها تحدد بصورة سلبية وإيجابية الإطار الذى تعمل فى داخله الولايات والحكومة الاتحادية ؛ ولكنها لا تفعل ذلك بمحض إرادتها إذ يجب أن تطلب ذلك منها هيئة خارجية سواء أكانت شخصا طبيعيا أم عاما.

---

(١) Abrams v. United States

(٢) Lochner v. New York, 198 U. S. 45 (1905)

إن احترام مبدأ المراجعة القضائية من العمق بحيث لانلقى له مثيلا فى أى مجتمع حديث ونتيجة ذلك التسليم بسلطان المحكمة على جميع الأشخاص والمؤسسات . وإذا حدث شك فى هذا كما كان بشأن قضية Dred Scott قبل الحرب الأهلية أو خلال الجيل الممتد من انتخاب ماكنلى إلى انتخاب فرنكلين روزفلت للمرة الثانية ، فمن المشروع أن نفترض أن المحكمة فقدت تأييد ذلك الجمهور الذى تستند إليه ، وفى هذه الحالة يحدث تغيير فى الفروض التى تنبنى عليها سياستها أو فى عضويتها مما يؤدى إلى تغيير تلك الفروض .

ومما يلاحظ أن قضاة المحاكم الاتحادية والمحكمة العليا على وجه الخصوص الذين خلفوا طابعهم على الحياة الأمريكية إشتهروا بحكمتهم السياسية أكثر من درايتهم بالقانون . فجون مارشال لم يكن فى مستوى كوك أو مانسفيلد فى الاستعداد الفنى ، ولكن عظمته ترجع إلى أن عقله كان من القوة بحيث يرى ما تتطلبه الجمهورية ، وخلقه بالمتانة بحيث يدرك أن ما تحتاج إليه الجمهورية يجب أن تحصل عليه من المحكمة . وكانت لهولمز وكاردوزو دراية بالقانون لاينافسهما فيها أى عضو بمحاكم القانون العام المعاصرة ، ولكن الذى شيد عظمتهما ذلك الامتزاج بين القوة والرقة مما عبرا به عما أدركا أن عصرهما فى حاجة إليه . إن أكبر خلفاء مارشال ، أى القاضى برانديز ، ترجع عظمته إلى أن أحكامه كانت التعبير التام عن فلسفة قانونية حاول أن يجعلها تتناسب مع عصره .

وقوة المراجعة القضائية كبيرة جدا ولكن ممارستها لا تتم بصورة آلية إذ يدخل فى ذلك جميع العادات والأفكار والخبرات التى تجعل كل قاض ينظر إليها من وجهة نظره ، بمعنى أن ما يسفر عنه البحث القانونى لا يمكن فصله منطقيا عن جميع القوى الفعالة فى المجتمع الأمريكى . وعلى ذلك فالمحاكم عبارة عما عمله فيها رؤساء الجمهورية بموافقة أغلبية مجلس الشيوخ فى حالة كل قاض على حدة ، ولما كانت المحاكم يصنعها الرؤساء فإن الأخيرين تصنعهم القوى الانتخابية التى تنصر أحد الحزبين الديموقراطى والجمهورى من حين لآخر .

غير أن سلسلة السببية لا تقف عند هذا الحد . فكل محكمة يشكلها إلى حد ما المحامون الذين يترافعون أمامها ، وهؤلاء تشكلهم القوى التى يواجهونها . فالمحامى فى نيويورك والذى كان أبوه مزارعا من أيوا Iowa والذى تأثر كثيرا بدراساته فى مدرسة القانون بجامعة هارفارد فى أيام آمس وثاير ، لايحتمل أن يحاول التأثير فى المحكمة العليا بنفس طريقة المستر چيمس م . بك البليغة أو مثل وليم و . جوترى بجامعة كولومبيا والذى كان فى الوقت نفسه كاثوليكيا متحمسا ومن أنصار الاتجاه المحافظ على طريقة نيكولاس موراى بتلر . وكل من يتمعن مثــلا شرح الأستاذ جوترى لوثيقة « العهد الأعظم » Magna Carta سوف يدرك بغير صعوبة كيف أنه حتى محام ممتاز مثله ينظر إلى قانون صدر فى القرن الثالث عشر بعقل وروح فيلسوف فى القرن الثامن عشر ممن يعتنق مذهب الحقوق الطبيعية وبذلك يعمى عن جميع الأبحاث التى تمت حوالى ذلك الوقت حين صور الأسقف ستبس Stubbs فى أوج العصر الفكتورى الجو الفكرى للأبحاث الدستورية المتصلة بالعصور الوسطى . ولا يستطيع أحد أن يفحص عقل القاضى بيكام كما يوضحه رأيه فى قضية Lochner v. New York، أو يلاحظ السنوات الطويلة التى أعلن خلالها القاضى فيلد أن المحكمة « تمنع التغيرات الخطيرة فى المجتمع الطيب » دون أن يستنتج أن محاولتهما إحلال فلسفاتهما الإجتماعية الخاصة محل الهيئات التشريعية التى حاولا تحطيم قوانينها كان معناها الخلط بين وظيفة كل من القاضى والمشرع . وبصراحة من المستحيل على المحكمة أن تنقسم بشأن الأمور الحيوية فى السياسة والاقتصاد بأغلبية ٥ ضد ٤ أو ٦ ضد ٣ دون أن تشيع القلق فى نفس من يدرس مذهب المراجعة القضائية بشأن تعقيداتها وحدودها كما جرى عليــه الحال مثلا مع رجال كشويت أو چون ج . چونسون الشهير أو فى أيامنا هذه مع القاضى چون و . داڤيز أو القاضى رينولدز . وحين تنقسم المحكمة كما فى قضية Jehova's Witnesses إلى ثمانية ضد واحد ثم تعود لتسمع اعتذار عضوين لأنهما صوتا مع الأغلبية فى المرة الأولى فمن المعقول أن نستنتج أن المراجعة القضائية وثيقة الصلة بالشخصيات القضائية وأن الكثير يدخل فى تشكيل الأخيرين مما لم يشر إليه مارشال فى قضية Marbury v. Madison .

والذى أغفله مارشال أن مذهب المراجعة القضائية مزيج من عدة أشياء . ففى وسع المحكمة أن تقرر قانونا يعتبر — حسب عبارة هولمز — « خرقا لنص الدستور » . هذه الحالات نادرة عموما وإذا حدثت كما فى قضية Ex parte Milligan وهى من أعقاب الحرب الأهلية أو قضية Abrams v. United States وهى من نتائج حرب ١٩١٤ — ١٨ فإن الأوان يكون قد فات لتصحيح الضرر أو يميل القضاة إلى الموافقة عليه لأنهم يشاركون نفس الرأى الذى حدا بالسلطة التنفيذية إلى ذلك التصرف . وقد تكون المراجعة وسيلة لدعم سيادة الدستور الاتحادى حين يكون ذلك واجبا ، أو لمنع أية سلطة بالولايات من خرق مبادئ يجب على الأمريكيين جميعا التزامها . ويمثل الحالة الأولى حماية سلطة عقد المعاهدات بوصفها ذات طبيعة اتحادية أما تعريف الثانية فأصعب بكثير لعدم الاتفاق حول تلك المبادئ الواجبة الاحترام . قد يرى المراقب الأجنبى أن قوانين Jim Crow بالجنوب خرق واضح لتلك المبادئ ولكن حين كتب بلاك الحكم فى قضية مدرسة الحقوق بسانت لويس تدفق سيل من التعليق الحماسى على شجاعته نظرا لكونه من الجنوب .

غير أن أهمية مذهب المراجعة القضائية ترتد إلى أنه خلال قرن ونصف جعل فى إمكان المحكمة منع قوة الأغلبية فى الكونجرس أو فى الهيئة التشريعية بأية ولاية من إزعاج حقوق الملكية .

ومن المهم أن نتذكر أن مذاهب المحكمة اتخذت شكلها الغالب فى عصر الدولة السلبية ، فليس من الصدفة صدور « إعلان الإستقلال » وكتاب « ثروة الأمم » فى نفس السنة ، أو أن تلك المذاهب انبثقت من أمريكا الآخذة فى التوسع خلال عصر الفردية أى خلال فترة النظام البسيط القائم على الحرية الطبيعية حين ساد الاعتقاد بأنه كلما قل تدخل الدولة فى حقوق الملكية عظم تحقيق الرخاء الاجتماعى . من غير المحتمل أن رجال الأعمال الذين حددوا إلى حد كبير طابع الحضارة الأمريكية بعد ١٧٨٧ وبخاصة بعد ١٨٦٠ أحسوا أن فلسفة لوك السياسية والحقوق الطبيعية سوف تزودهم بنظرية قانونية هم بحاجة إليها لحماية امتيازاتهم من عدوان الأغلبية .

ولكن مما له مغزى كبير أنه من العمل الذى قام به الآباء المؤسسون استطاعت المحكمة أن تستنتج ضرورة أداء الديون بعملة سليمة ، وقدسية العقود ، والتمييز بين التشريع الذى يؤثر بطريق مباشر فى التجارة بين الولايات والتشريع الذى تأثيره غير مباشر ، وعدم مشروعية ضريبة الدخل ، وتحريم القوانين التى سعت إلى تحديد شروط العمل الأجير. ومما له أهمية أعظم أن أوسع كتب القانون الدستورى الأمريكى انتشاراً فى القرن التاسع عشر مثل « القيود الدستورية » تأليف ب . م كولى قامت على نظرية تفترض استهجان التدخل الحكومى . وحين تلجأ المحكمة إلى « العملية الواجبة » لتحطيم كل تشريع يمس الحقوق الثابتة للملكية فان فكرة الحرية تصبح وثيقة الصلة بفكرة عن الملكية فى عقول القضاة ترى أن التشريع الذى يمسها عمل بطبيعته فيه عدوان على الحرية .

والحق إن عنوان « الإنسان إزاء الدولة » والذى اختاره هربرت سبنسر يلخص الفلسفة القانونية للدستور الأمريكى خلال قرن وربع ، وبهذا المعنى كانت تفكر الأغلبية الساحقة من القضاة ومن المحامين الذين دافعوا حينذاك عن المصالح الثابتة الكبرى ، وهذا يفسر قول القاضى هولمز للمحكمة إن « التعديل الرابع عشر ليس تقنينا للاحصائيات الاجتماعية لهربرت سبنسر » كما أنه إلى حين معارضته لم يفترض غير عدد قليل من القضاة إن للتعديل غرضا آخر . إن الشىء الذى سعوا إليه كان الحيلولة دون محاولة لتحويل الديموقراطية السياسية فى الولايات المتحدة إلى ديموقراطية اجتماعية ، واى مجهود من هذا القبيل كما فى حالة الحركة الشعبية يبدو فى نظر المحكمة والدفاع ضربة موجهة إلى أساس الرخاء الأمريكى والذى أنشىء الدستور لمنعها .

وكان الجو الفكرى مناسبا لهذه النظرية إلى وقت قيام الحركة التقدمية والذى فيه أبدى القاضى هولمز اعتراضه التاريخى على قرار الأغلبية فى قضية لوخنر . وبعد قيام تلك الحركة زادت صعوبة الاحتفاظ بالرأى القائل إن الدولة السلبية تحقق أهداف التقليد الأمريكى التاريخية . هنا وصلت المحكمة إلى مرحلة صار فيها معنى « الاجراء الواجب للقانون » ما قد تراه أغلبية المحكمة معقولا فى وقت معلوم

ولكن أساس « المعقولية » لم يكن فكرة فى الإمكان تقريرها وفق أية معايير قانونية بسيطة وموضوعية وذلك واضح من أن ما بدا « غير معقول » لأغلبية قضاة المحكمة العليا بدا فى ضوء مختلف فى نظر الأقلية ، ولم يكن هناك دائما اتفاق بين الأغلبية حول الأسباب التى بنى عليها قرارهم . وحين راحت المحكمة خلال الفترة الأولى من «السياسة الجديدة» تحارب بحماس وقوة سياسات الرئيس كان من الواضح كثيرا أنها أصبحت غير صالحة بالكلية للتحكم فى العملية الحكومية بأية صورة فعالة، وأن المصالح الغنية وحدها تستطيع الافادة من القيود التى تريد المحكمة فرضها بسبب عدم إطراد حركتها و بطئها وكثرة تكلفتها .عند هذه المرحلة كانت النتيجة «المعقولة» الوحيدة حول « المعقولية » أن المحكمة العليا أصلح مكان لتقرير حكمة التشريع .

ظل للقضاة نفوذهم مدى قرن ونصف واتضح من أسلوبهم استحالة التوفيق بين الوظيفة القضائية والقوة على حل مشكلات الحكومة الحديثة . فإذا سلمنا بذلك وجب أن تكون قاعدة الأغلبية التى عمل القضاة على تقييدها المصدر الأخير للسلطة . والسبب الرئيسى الذى كان يدفعهم إلى محاولة ذلك التقييد ـ وإن عملوا بمهارة على إخفائه ـ نظرية تتعلق بما فيه خير الولايات المتحدة الاقتصادى ، كما أتضح أنهم يتصرفون على أساس الافتراض بتماثل الرفاهية الاقتصادية مع حماية مصالح رجال الأعمال. قد تصلح تلك النظرية للعصر الذى عاش فيه مارك توين أو الأيام الذهبية حين كان كلفن كوليدج يراقب باعجاب كامل المستر ميلون يرد ضرائب الدخل والشركات . ولكنها لا يمكن أن تصلح لفترة مثل الكساد العظيم أو كما حدث أيام فرنكلين روزفلت حين كان بعث الأمل فى نفوس الجماهير يتوقف على تقبل تدابير السياسة الجديدة التى استنكرها رجال الأعمال بغضب شديد . إن الدولة الايجابية لا يمكن أن تعتمد على إجراء معقد مثل ذلك الربط بين المراجعة القضائية والاسلوب الأمريكى فى تعديل الدستور؛ وعلى الذين شكلوها أن ينظروا فى اتجاه مختلف عن ذلك .

فى أى اتجاه يجب البحث عمن يرسم السياسة ؟ بمجرد التسليم بعدم احتمال تحول النظام الأمريكى من الطابع الرآسى إلى الأسلوب البرلمانى فإن الحكمة تقضى بأن تبقى القيادة الفعالة فى البيت الأبيض وحده . لقد أوردت الأسباب التى تجعل من المراجعة القضائية أداة غير صالحة بالكلية لوضع السياسة فى دولة إيجابية ، ولا يحتمل أن ينهض بهذا الدور أى من مجلسى الكونجرس . فطريقة انتخاب مجلس النواب تجعل نظرته إقليمية ، ولن يتعلم إلا القليلون فن سن القانون فى منصب قد لا يدوم أكثر من عامين . إن دعوى مجلس الشيوخ فى هذا الصدد أقوى لأن معظم رجاله يمثلون منطقة كبيرة تجعل فى الإمكان التسامى على تلك النزعة الإقليمية الفائقة ، كما أن فترة الست سنوات والتى كثيراً ما تتجدد تمكن الأعضاء من تكوين نظرة مترابطة عن المشكلات الأمريكية .

والحجتان غير مقنعتين بالرغم من قوتهما إذ ليس فى وسع مجلس الشيوخ ممارسة الإدارة الفعالة . قد يناقش ويحقق ويبرز المشكلات أمام البلاد ولكنه يفتقر إلى أساس القوة الذى يتأتى من مصدر يختاره الشعب بأسره . وطريقة انتخابه تجعله أقل تمثيلا للشعب ، وعلاقاته الداخلية تجعله أصلح للحكم على السياسة منه على ابتكارها ، وبوصفه هيئة فيه هذه العلاقات وثيقة لن يأمل العمل على النحو التنفيذى بغير أن يعهد بوضع السياسة إلى لجنة من أعضائه . وبمجرد خلق هذه اللجنة يصبح قالباً يفرض عليه طابع الحكومة البرلمانية الأمر الذى يضطره إلى تغيير ماهية كل من رآسة الجمهورية ومجلس النواب ، ومثل هذا التغيير ينطوى على معان ضخمة تجعله يقرب من ثورة دستورية قد يترتب عليها تحكم شيوخ يمثلون أقلية من السكان فى أغلبية من الناخبين . أما أن هناك قيوداً فرضت على سلطان الأغلبية فأمر ظهر بوضوح فى أعقاب الحرب الأهلية ، وليس من المبالغة القول إن القيود

قد تسعى الأقلية فرضها تجعل من المستحيل الأمل فى الحكم الدستورى أو الديموقراطى من جراء رقابة الأقلية .

ومن المستحيل أن تجعل الوزارة الجهاز الرئيسى لوضع السياسة إذ ليس وراءها سلطة انتخابية ، كما أنها تستمد وحدة اتجاهها من الرئيس نفسه ، وهذه الوحدة هى الوظيفة التى استطاع رئيس الجمهورية أداءها بنجاح حين نتمعن تاريخ الوزارة الأمريكية بدقة ، إذ يندر حقا أن تظل الوزارة بغير تغيير حتى خلال فترة رآسة واحدة كى لا يتكون لديها إحساس حقيقى بالمسئولية المشتركة . ويندر كذلك أن يشترك أعضاؤها فى الأفكار أو حتى فى عادات العقل . فبعضهم من الساسة المحترفين الذين يفكرون أساسا فى مستقبل حزبهم أو كما كان شأن سالمون ب. تشيز فى مستقبلهم . والبعض يعينهم الرئيس ، أو يشغلون المنصب بسبب صلتهم بمصلحة دينية أو اقتصادية أو جغرافية يأمل الرئيس أن يؤثر عليها ، كما يكافئ البعض على ما قدموا من خدمات أثناء معركة الرآسة . وكثيراً ما يكون الوزراء من منافسين يبغى الرئيس تهدئتهم من باب الاستفادة أو المجاملة . المهم أن الوزارة الأمريكية لا يمكن أن تتحول إلى فريق مترابط إلا عن طريق الرئيس . وعليه يتوقف مركزها كجهاز للحكم . والشىء الذى لم تعمله خلال التاريخ الأمريكى أن تتصرف كوحدة ضد رئيسها لسبب بسيط ألا وهو أن الرئيس وحده هو الذى يستطيع أن يخلق منها ذلك النوع من الوحدة الذى يستطيع تنظيم السياسة وتنفيذها بنجاح .

والنتيجة المنطقية لهذا كله أن الزعامة السياسية — فى المستوى الاتحادى — يجب أن تكمن فى رئيس الجمهورية وإن صعب أن نجعلها ذات فاعلية وذلك لأسباب عدة . ففى غير أوقات الأزمات الجسيمة هناك عداء كامن بين الرئيس والكونجرس. إن من يدرس تاريخ الرآسة يلقاها تنقسم إلى ثلاث فترات ، ففى الأولى لم يقرر بعد كيف يستغل موهبته وهذا هو شهر العسل حين يكون نفوذه فى أعلى الدرجات . وفى المرحلة الوسطى لاتفعل الأحزاب أكثر من توزيع المراكز على أساس توازن

القوى فى المجتمع الأمريكى . ثم تبدأ الفترة الثالثة حيث يجرى الاستعداد لانتخاب الرآسة التالى .

يتضمن هذا التحليل معنى له تأثير هام على قدرة الرئيس فى أن يكون زعيما كبيراً ، فاختيار المرشح يخضع غالباً لعامل توازن القوى الاجتماعية ، ومن ذلك أن الفرد سميث لم يكن « صالحاً » سنة ١٩٣٢ لأن الجنوب لن يظل على ولائه للديموقراطيين إذا طلب منه تأييد مرشح كاثوليكى. ولم يكن وندل ولكى صالحاً فى سنة ١٩٤٤ لأن الساسة المسيطرين على جهاز الحزب الجمهورى لم يكونوا واثقين من المراكز التى ستعطى لهم فى حالة انتخابه . والرغبة فى عدم الإغضاب تفسر هزيمة أمثال كالهون وكلاى أمام رجال من الدرجة الثانية ، وهذا المبدأ يمهد السبيل أمام الذين يسيرون فى الطريق المألوف دون محاولة بلوغ هدفهم بطريقتهم الخاصة وهذا واضح فيما تمتع به كليفلاند وما كنلى من سمعة الذين توافر لديهم الاستعداد لعمل الأشياء المنتظرة بالأساليب المنتظرة بالرغم من افتقارها إلى الصفات الحقيقية للزعامة. وبذلك تجتذب الرئاسة الروتينيين إلى أن يصبح وجود الروتين خطراً وهنا تأتى الصدفة برئيس تشيع جهوده فى التغلب على الأزمة الخوف فى نفوس قادة الحزب. وبمجرد أن يبدأ التغلب على الأزمة يبدأ التعب من التجديدات المخالفة للقواعد المرعية والاستعداد داخل الحزب للعودة إلى الطرق المألوفة ، بل إنهم ليحملون الناخبين على الاعتقاد بأن من الأسلم أن يدخل البيت الأبيض من يتبع الأسلوب المعتاد ولا يقامر بالتجديد .

ولا شىء يوضح ذلك أكثر من تأثير فرنكلين روزفلت على النظام الحزبى الأمريكى . إن تمكنه من تحطيم التقليد الذى يمنع انتخاب رئيس للمرة الثالثة عمل رائع وإن كان ذلك الحادث ساعدت عليه الوحدة التى تتطلبها الحرب العالمية الثانية . ولكن تظل الحقيقة أن تقليدا عجز عن التغلب عليه جرانت وتيودور روزفلت وولسن وكوليدج لم يعد فى سنة ١٩٤٠ من الفروض الثابتة . وكذلك — وللمرة الأولى أيضاً — نجد حزباً كبيراً يقوده رجل واحد أكثر من عقد من

الزمان . ولكن الواقع أن زعامته كان ثمنها أكبر مما بدا للنظرة السطحية ففترة رئاسته الثانية افتقرت إلى الحماسة الشديدة التى ميزت الأولى كما طغت الحرب على الثالثة بحيث ليس من المبالغة أنه ضحى بمعظم مبادىء السياسة الجديدة حتى يضمن وحدة الشعب فى المجهود الحربى . وبينما استطاع سنة ١٩٤٠ الإصرار على اختيار أبرز التقدميين هنرى ولاس نائبا له ، نراه يضحى به سنة ١٩٤٤ بناء على مطالب أداة الحزب . لاشك أنه كان يستطيع الإصرار على إعادة تعيين الرجل ولكن من الصعب ألا نشعر أنه حتى مع وجود الحرب كان من الصعب انتخابه للمرة الرابعة ولذلك آثر أن يترك الاختيار لمؤتمر الحزب .

وأكثر من هذا فإن كل من يفحص هيئة الوزارة كما نظمها روزفلت لأغراض الحرب يجد أنها تتميز بظواهر ثلاث . الأولى أن التقدميين أخذوا ينزوون بالتدريج . ففى ١٩٤٤ لم يعد ولاس يلعب الدور النشيط الذى طلب منه بعد بيرل هاربور . وتخلص كبار رجال الأعمال من أمثال ليون هندرسن مدير مكتب ادارة الأثمان ممن تعودوا انتقاد عاداتهم ، وثورمان آرنولد الذى اشتبك أثناء توليه منصب النائب العام فى هجوم عنيف على التكتل فى الصناعة الأمريكية ثم انزوى عضواً فى احدى محاكم الاستئناف وخلفه برج الذى قصر هجماته على الألفاظ دون رفع القضايا وإن تضمنت الأولى التهديد باتخاذ الإجراءات بعد الحرب . وكان مستشارو الرئيس الأساسيون فى الشئون الداخلية من الديموقراطيين المحافظين ، كما عهد بتوجيه المالية والصناعات لأغراض الحرب الى رجال كانوا موضع ثقة دوائر الأعمال الكبيرة . وظلت الآنسة بركنس وزيرة للعمل وهى من النقابيين المشهورين ، كما كان لسيدنى هيلمان وظائف مهمة فى العلاقات الصناعية ، ولكن لم يكن لهما النفوذ أو السمعة مما تمتعا به خلال عهد السياسة الجديدة .

هناك أمران حيويان يوحيان بأن الحرب لم تستطع عودة السياسة الأمريكية من تلك الإثارة الخلاقة التى ولدها اختيار رئيس اقتضته ظروف أزمة ، إلى الروتين العادى الذى يحرص النظام الحزبى على الإبقاء عليه ، وذلك بالرغم من أن احتمال

تعيين رئيس للمرة الرابعة قد يبدو للنظرة السطحية إجراء ثوريا . وأول الأمرين أن الجمهوريين سنة ١٩٤٤ رشحوا توماس ديوى للرآسة ولسنا نخطىء إذ نعده نسخة من هوفر وتنحصر مزاياه فى أنه ليس فرنكلين روزفلت وأنه بخلاف منافسه الجمهورى الآخر وندل ويلكى لن يخيب آمال أداة الحزب فى حالة انتخابه . وثانيهما أن روزفلت أيدته بحماس أدوات الحزب الديموقراطى فى المدن الكبيرة ولكنه بهذا التأييد عطل فى الواقع التقدم فى المسائل الاجتماعية مما كانت السياسة الجديدة رمزا له ، لأن « سيد » المدينة boss لايهتم « بالشخص المنسى » وإنما تعنيه القوة التى يضفيها امتلاك الأغلبية ، والقوة معناها الوظائف والعقود والامتيازات ، فالسيد ورجاله توابع لدوائر الأعمال الكبيرة ووكلاؤها فى الشئون البلدية والحصول على تأييدهم معناه تعيين الحد الذى لا يعتزم الرئيس تجاوزه . ومحالفتهم تأكيد غير مباشر للمصالح القائمة بأن عصر الابتكار قد انتهى ليحل محله الروتين الذى لا يخشاه رجال الأعمال .

كلما دققنا فى فحص هذه الحجة عظم ما توضحه من نتيجة عامة وأخرى خاصة . فمع التسليم بالحاجة إلى القيادة الخلاقة فى الدولة الإيجابية وأن هذه القيادة لا يمكن أن يتولاها غير الرئيس ، فالنتيجة المنطقية أن الجهاز التنظيمى للنظام الإتحادى يزيد من صعوبة المهمة إذ وراء الفروض التى ينبنى عليها هذا الجهاز اعتقاد بصلاحية الدولة السلبية وشك عام فى السلطة بتقسيمها وفرض نظام من القيود وعناصر التوازن بما يحول دون ممارستها بقوة من جانب رئيس الهيئة التنفيذية . ولكى يحصل الرئيس على السلطة التى يحتاج إليها فإنه يعتمد على تأييد الرأى العام أو عن طريق زعامته المؤقتة لحزبه أو من مهارته فى استخدام أسلوب الرعاية ؛ وفى فترة الأزمة تراه يزداد اعتمادا على قوة الرأى العام. أما إذا لم تكن هناك أزمة فالاحتمال أن يلجأ إلى أسلوب الرعاية . إلا أن عليه ألا ينسى أن زعامته مرحلة زائلة فى تاريخ الولايات المتحدة وأن عليه أن يستخدم كل ما يتوافر له من كفاية ومقدرة للاحتفاظ بها .

ولقد توقع توكفيل هذه النتيجة الخاصة فقال إنه بمجرد أن يرغب الرئيس فى تجديد رآسته فإنه يضحى بقدر كبير من استقلاله حتى يظفر بالتأييد ، وبدلا من أنه

يحكم لصالح الدولة كما يقتضيه واجبه نراه يرعى الأغلبية ويتملق أسوأ أهوائها .
إلا أنه من وجهة نظر الأغراض العادية فإن ما يصفه توكفيل هنا « بالأغلبية » ليس معناه في الحقيقة شيئا من هذا القبيل وإنما هو المصالح الثابتة في الحزب والتي في وسعها إعادة تعيينه . فحينما رغب تيودور روزفلت أن ينتخب للمرة الثالثة لم يلجأ إلى لافوليت الأكبر وإنما لجأ إلى جورج بركنز أحد الشركاء في بيت مورجان . لقد واجهت السيدة إليانور روزفلت مادعاه الأستاذ ميردال « الورطة الأمريكية » بشجاعة يقصر عنها الثناء ، إلا أنه في السنوات الإثنى عشرة منذ ١٩٣٢ لم ينس الرئيس أبدا أهمية الجنوب للحزب الديموقراطي ، مهما كانت آراؤه الشخصية في مشكلة الزنوج .
وأظن أن الاستنتاج السليم من كل هذه التجربة أن زعامة الرئيس تتوقف على قوته في الاحتفاظ فعلا باستقلاله . ولكنه بمجرد أن يبدى الرغبة في إعادة تعيينه فعليه على حد عبارة توكفيل « أن يتملق أهواء » تلك المصالح في حزبه والتي قد تحول دون تحقيق بغيته ، فضلا عن تلك العناصر من الشعب والتي لقوتها أهمية .

على هذا الأساس ومع التسليم بأن الشعب الأمريكي أسلم مصيره إلى نظام الحكم الرآسي أرى أن تحديد مدة الرآسة بست أو سبع سنوات غير قابلة للتجديد بنص الدستور قد تجعل الزعامة أكثر فاعلية واستقلالا ؛ إذ يستطيع الرئيس أن يرسم سياسة واسعة المدى ، ويقل اهتمامه بتهدئة الناقدين والمصالح الثابتة ، ويستخدم سلطته في التعيين دون التقيد بالمبدأ المعروف عن « مجاملة الشيوخ » وبذلك يتقى خطر الدسائس الداخلية في وزارته مما عاناه لنكولن من تشيز ، ويصبح في وسعه أن يضع أمام الناخبين سياسة تكون مسئوليته عنها واضحة ومباشرة ، ويتحرر من الجماعات التي تحاول الضغط عليه ، وبالتهديد أحيانا ، حتى يسير في اتجاه معين ترضاه ، ويتخلص من العبء الذي يتحمله الآن في محاولة تهدئة المصالح المنوعة في المجلسين ، وتتوافر له الوسائل للوقوف في وجه دعاوى الإقليمية ومطالبها مما لا يقدر عليه الآن . وطول فترة الرآسة يتيح له فرصة التفكير الطويل الأجل ، والإستعانة بالمواطنين الأكفاء إذ يعلمون أن مناصبهم ليست معرضة للخطر كما أعتادوا النظر إليها ؛ كما أنه لن يعانى من الظاهرة الموجودة الآن حيث يخصص العامان الأولان من الرآسة في

الاستعداد لإنتخابات الكونجرس التي تقع وسط الفترة كما يخصص قدر غير يسير من العامين الأخيرين لتنظيم إعادة ترشيح الحزب له إذا رغب فى ذلك . ولا يقل أهمية عن ذلك بالنسبة إلى مجال السياسة الدولية أنه إذا تحقق هذا الاصلاح فسوف يكون لدى الرئيس الوقت لتعبئة رأى عام تنفيذى لتأييده إذا كان على حق . وجدير بالذكر أنه باستبعاد تجربة فرنكلين روزفلت الفريدة فان فترة رآسة لمدة سبع سنوات تتيح للرئيس فرصة كافية لإبراز شخصيته وكفايته . وإذا قيل إن أربع سنوات تعتبر فترة طويلة إذا وضح بسرعة أن الرئيس غير صالح للمنصب فالرد على ذلك أن من المحتمل أن تكون الأحزاب أكثر تدقيقا فى اختيار المرشح ، كما أن فترة بهذا الطول سوف تجعل اختيار المرشحين لمنصب نائب رئيس الجمهورية أمراً له أهمية بدلا أن يكون اختياراً آليا كما هو الحال الآن ، ففى نصف الحالات تقريبا التي مرت منذ الحرب الأهلية خلف الرؤساء الراحلين رجال كان اختيارهم مقامرة بحتة . وإذا صح أن المقامرة نجم عنها أن ولى الرآسة ابراهام لنكولن وفرنكلين روزفلت فليس من جواب شاف على ملاحظة باجوت الشهيرة من أن الكسب فى يانصيب ليس بحجة للدفاع عن نظام اليانصيب .

قد يقال إن السنوات الطوال التي قضاها روزفلت فى المنصب تدل على أن من الغباء أن نضع حداً مقررا لفترة رئيس عظيم أمكن العثور عليه . ولكن إذا سمح لأجنبى بابداء الرأى فانى أقول إنه بالرغم من أن روزفلت من أولئك الرؤساء من الطراز الأول ، فان انتخابه للمرة الثالثة يعزى إلى هتلر وبدرجة أقل إلى موسولينى منه إلى التصميم الإيجابى من جانب الشعب الأمريكى . وأجازف كذلك بالقول إنه لولا الحرب وما انطوت عليه من أخطار ومعان لكان الكثير من سياسة روزفلت الداخلية بل والدولية أشد جرأة ولما ضحى بالكثير من الرجال ممن كان نجاحهم أمراً لا يحتمل النقاش .

لست أنكر سخافة الذين استبد بهم الغضب بشأن الفترة الثالثة . أما أن رؤساء الجمهورية حتى سنة ١٩٤٠ لم يسمح لهم أبدا بفترة ثالثة فصدفة تاريخية تكاد تعزى

كلية إلى اعتلال صحة وشنطن وما اعتراه من التعب والضيق خلال الشهور الأخيرة من رآسته الثانية . وعلى أى مراقب أن يتذكر أن فترتى رآسة وشنطن يجب أن يضاف إليهما السنوات السبع من المجهود العنيف حين كان القائد العام للجيوش الأمريكية أثناء حرب الاستقلال . لقد كان وشنطن رئيسا لجمهورية غلبت عليها الزراعة وسكانها أقل من ثلاثة ملايين ولم تظهر فيها بعد فكرة الدولة الإيجابية . أما فرنكلين روزفلت فكان رئيس مجتمع تغلب عليه الصناعة ويضم مائة وأربعين مليونا تقريبا أصبحت مصالحهم إيجابية وتمتد إلى قارات العالم الخمس . إن الموازنة بين أعبائهما مسألة تنتمى إلى خيال الشاعر أكثر منها إلى التقدير الرقيق من جانب العالم السياسى .

لامفر فى العقد التالى من أن تلعب الولايات المتحدة دوراً قياديا فى السلطة الدولية التى تعمل على تجنيب العالم نكبة حرب ثالثة . ومن المحتمل أن يتحول اتحاد الجامعة الأمريكية الذى قد يزدادقوةبانضمام كندا إلى تنظيم إقليمى من الأمريكتين لهوظائف تشريعية وتنفيذية . إلا أنه لا بد من أمرين كى تصبح هذه الزعامة فى النطاق الدولى فعالة ، أولهما تعديل سلطة مجلس الشيوخ بصدد المعاهدات ، وثانيهما أن من المشكوك فيه أن تتناسب زعامة أمريكا مع قوتها إذا كانت للرئيس والمجلس وجهات نظر حزبية مختلفة كما حدث فى الأيام الأخيرة المرة من رآسة ولسن . وذلك أنه إذا كان للسلطة العالمية أن تضطلع بوظيفتها فى يسر فلا بد لها من سرعة التصرف وبخاصة فى محاولة منع العدوان والسرعة ليست من فضائل مجلس الشيوخ . كذلك لن تضطلع بهذه الوظيفة إذا ظلت قراراتها تحت رحمة تقلبات الرأى فى المجلس . وكلما عظمت قوتها واطردت أهمية وكالات الإشراف الإقتصادى التابعة لها زادت صعوبة التصرف طالما لاترتبط الولايات المتحدة باتفاق إلا بعد تصديق الشيوخ .

وإذن فعلاقة المجلس بها يجب أن تختلف عن علاقة القرن الثامن عشر التى مازال مصراً على الإحتفاظ بها،ويجب الأخذ برأى چيفرسون من أنالمفاوضات الدبلوماسية « تنفيذية تماماً » . يجب أن يكون ممثل الولايات المتحدة فى أية منظمة دولية مسئولا أمام رئيس الجمهورية ومقيداً بسياسته،وهنا فتعديلسلطة المجلسبما يتلاءم معظروف العصر من الأهمية بالدرجة الأولى . ففى مثل عالم اليوم حيث يبادر المعتدى إلى العمل فور اعلان الحرب كما فعلت ألمانيا مع بولندة سنة ١٩٣٩ ومع الأراضى الواطئة سنة ١٩٤٠ وكما فعلت اليابان فى بيرل هاربور دون الإشارة إلى مثل هذا الإعلان يصبح تدخل السلطة العالمية مسألة ساعات ولايكون هناك وقت للفحص من جانب لجنة العلاقات الخارجية بالمجلس ثم اقرار رأيها بأغلبية الثلثين . إن المهم فى العقوبات سرعة تطبيقها .

ولهذا أرى تعديل الدستور الأمريكى بحيث يسمح للرئيس وحده بالزام البلاد بالاجراء الذى تتخذه سلطة عالمية ضد من يهدد بالعدوان أو يقدم عليه . وليس من خوف جدى من أن يسىء استخدام هذه السلطة إذ لو فعل — إذا كان الخطأ جسيما — فالعلاج أن يتهم ويحاكم . يمكن القول إن هتلر ما كان يشن الحرب لو عرف سنة ١٩٣٩ أن الهجوم على بولنده سيعبىء ضده العالم كله عدا دول المحور وصغار المحايدين القادرين على تجنب الصراع . إن العقوبات التى تنتظر حتى يستقر رأى هيئة تشريعية لا يحتمل أن تحقق الغاية منها . ومن المعقول التنبؤ بأن المعتدى فى المستقبل سوف يهاجم المراكز الصناعية فى الدولة التى يخشاها دون اعلان حرب ودون النفاق الذى درجت عليه اليابان قبل بيرل هاربور . ولو ظهر هتلر جديد سنة ١٩٧٥ مثلا فقد يجعل نيويورك أنقاضا بينما تناقش السلطة الدولية دعواه وقد يفعل ذلك لا بسبب خلاف مباشر مع الولايات المتحدة ولكن بعقلية المقامر فيحاول شل قوتها مما يزيد فرصة احرازه النصر . فإذا أرادت الولايات المتحدة أن تلعب دورا فى نظام حى للسلامة الجماعية وجب أن يتذرع مجلس الشيوخ بانكار الذات فى مجال العقوبات ، ولكى يطمئن إلى تطبيقها حين يضم أمثال ثاى وشاندلر فمن الحكمة النص على ذلك دستوريا .

أما بالنسبة إلى النواحى التى يتسع فيها المجال لمناقشة كاملة فى السياسة المقترحة فعلى الرئيس أن يستند إلى موافقة المجلس على مايرغب فى توقيعه من اتفاقات دولية ، إذ يجب ألا تتوقف السياسة الطويلة الأجل على رأى رجل واحد مهما علا مركزه . إذا قبلنا هذا الرأى وجب إبدال أغلبية الثلثين بالأغلبية العادية وإلا حال صوت واحد دون تطبيق القاعدة الأولى . وربما أذهب أبعد من هذا . فما دام فى الإمكان ، وإن ندر ، أن يكون الرئيس من حزب خلاف أغلبية المجلس فقد يرفض الأخير اتفاقا دوليا لا بسبب اعتبارات تتعلق بجوهره وإنما يفعل ذلك كجزء من صراع الأحزاب . وقد يتعلق الرفض بمسائل يستحسن الاتفاق الدولى بشأنها مثل قواعد الأمان فى الطيران المدنى ، وتقرير حد أدنى موحد للبحارة ، أو وضع شروط لحيازة البيض الأراضى فى افريقيا وبولينيزيا . هذه مسائل من الخطر التضحية بها على مذبح الحزبية ، وسوف

يكون الحال كذلك ما دام توقع الرفض قد يعطل مشروعا هاما قبل أن يولد أو يشجع دولا أخرى على رفض التصديق خشية أن يكون رفض الشيوخ يجعله فى غير صالحها.

وإذا رفض مجلس الشيوخ فرأيي أنه يجب الرجوع إلى الشعب على أن يستخدم هذا الإجراء الحاسم بحذر وإلا صار التهديد بالحل أسلوبا لعقاب المعارضة. وينبغى عدم ممارسة هذا الحق خلال السنين الأولى والأخيرة من فترة عضوية الشيخ (ويجب أن تكون سبع سنوات) حين يكون قريبا من هيئة الناخبين التى يستمد منها قوته. لاريب أن حق الحل على هذا الأساس يجعل للرئيس سلطة أوسع مما كان فى الماضى. وهذا الأمر لا تقف أهميته عند حد وضع الزعامة فى الإطار الذى تتطلبه الدولة الحديثة، وإنما يشجع الولايات المتحدة على تقبل مسئوليتها الكاملة فى النظام الدولى. إن من الصعب المبالغة فى أهمية هذه المسؤلية. وتاريخ العالم بين الحربين دليل كاف على ثمن انتفائها.

يتوقف مستقبل النظم الإتحادية بالولايات المتحدة إلى حد غير يسير على تطور ومستوى أفكار أحزابها السياسية . فإذا كانت هناك أربعة أحزاب مهمة وهى الديموقراطيون والجمهوريون والاشتراكيون والشيوعيون فإن الحاجز النظرى يقع بين كل من الحزبين الأولين والحزبين الأخيرين . وليس من السهل التفرقة بين الجمهوريين والديموقراطيين ، فمن جهة نلقاها جغرافية بحيث لا نتوقع مثلا من مين أو فرمونت أن تكونا ديموقراطيتين أو من جورجيا أو المسيسبى أن تكونا جمهوريتين . وفى الحزب الديموقراطى اتجاه طفيف إلى أن يكون زراعياً أكثر منه صناعيا وإن كان له نفوذ عظيم فى المدن الكبرى ، وأن يكون أكثر ميلا إلى التعريفة الجمركية المنخفضة وأشد اهتماماً — لأسباب تاريخية — بمشكلات المدينين . إلا أنه إذا كان أمثال مورجان من كبار المصرفيين جمهوريين فى الغالب ، فكبار رجال الصناعة مثل بيرون تايلر وأصحاب اللايين الموروثة كفنسنت آستور أيدوا روزفلت . ولقد اعترف كبار رجال الصناعة بأنهم كانو يسهمون فى حملات المرشحين الانتخابية كى يضمنوا نفوذهم فى حالة من ينتخب للرآسة . مامن أحد يمكن أن يفترض بصفة جدية أن للجمهوريين أو الديموقراطيين فلسفة سياسية واضحة ومترابطة . إن ما يسبغ على الأحزاب الكبرى طابعها صفات المرشح للرآسة لأن أقواله هى التى تحدد موقف الناخب غير الحزبى . والواقع أن المشكلة التى تواجه الناخب الأمريكى انعدام الخط الفاصل الواضح بين الحزبين سواء من ناحية الأشخاص أو المبادئ .

ونقول بعبارة موجزة إن أيديولوجية الحزبين الكبيرين لا تتعلق بالأغراض التى يسعيان إليها بقدر ما تتعلق بالشخص الذى يتصارعان من أجله ، ومنذ الحرب الأهلية على أية حال لم يكن مرشح حزب ليجد صعوبة فكرية فى أن يرشحه الحزب المعارض . وثمت ملايين من الناخبين تحركهم اعتبارات من الصلة التاريخية ، بمعنى أننا نتوقع

من حفيد أحد أبطال لنكولن أن يجد من الأسباب ما يجعله يصوت لصالح الجمهوريين. ولهذا فمن الصعب القول بأن انتخاب الرآسة بكل ما يصحبه من الإثارة يختلف كثيراً عن اختيار الناخبين بين جناحين من حزب محافظ واحد . هناك اختلافات بغير شك حسب الشخص المختار فالحزب الديموقراطى بقيادة كليفلاند يختلف عنه تحت قيادة فرنكلين روزفلت ، ولكن الحقيقة الرئيسية أن الحزبين الكبيرين لا يختلفان بشكل جدى فى النظرة والفلسفة، والتمييز بينهما على أساس قادتهما أسهل منه على ضوء المذاهب التى يعتنقانها .

ويجب ألا نغفل المغزى الذى يدل عليه ضعف تأثير أحزاب اليسار على عقول الناخبين . فالحزب الاشتراكى يضم بضعة آلاف لا يستمع اليهم الجمهور أو على الأقل لا يأخذهم مأخذ الجد . والحزب الشيوعى بالرغم من حماسه ونشاط الرائعين ومن تلونه بصورة تبعث على السخرية ومن استخدامه على أيدى الساسة لتخويف الأمريكى العادى حتى يتقبل العادات التقليدية ، لا يمكن أن يكون بديلا عن الحزبين الكبيرين . وعدم تقدمه إلى انتخابات الرآسة عام ١٩٤٤ دليل واضح على أنه مازال معتبراً فى الحقيقة فرعاً من وزارة الخارجية السوفيتية .

ولقد ظهرت من وقت لآخر أحزاب يسارية أخرى مثل أداة لا فوليت الفريدة فى وسكونسن ، وحزب « الفلاح والعمل » الذى سيطر فترة قصيرة على مينسوتا وداكوتا الشمالية ، وحركة «ضعوا حداً للفقر فى كاليفورنيا» بزعامة آبتون سنكلير ، والاتحاد الجمهورى بولاية وشنطن والذى أظهر عجز الأحزاب التاريخية عن إرضاء الناخبين من ذوى الآراء التقدمية . إلا أنه يصح القول أنه منذ الحرب الأهلية لم يستطع حزب ثالث أن يكون له نفوذ دائم فى سياسة أمريكا .

والمراقب الأوربى ، والبريطانى بوجه خاص . يجد من الصعب فهم الاتجاه السياسى للطبقات العاملة . فتحت رآسة جومبرز وولیم جرین إمتنع اتحاد العمل الأمريكى عن إعتناق فلسفة سياسية متماسكة وكان كما يقال يتاجر بأصوات أفراده سعيا وراء تشريعات تعنيه . حقيقة عمل مؤتمر التنظيمات الصناعية منذ انشائه وخاصة

فى عامى ١٩٤٠، ١٩٤٤ على إعادة انتخاب روزفلت ولكن يسترعى النظر أن المستر جون لويس عمل بعد استقالته منه ضد روزفلت . وكان هناك قدر من الاشتراكية فى صفوف عمال الملابس بنيويورك خاصة، ولكن يجب التفرقة بين اشتراكيتهم وبين تأييدهم فى السنوات الأخيرة لروزفلت بدلا من المرشح الاشتراكى .

وبينما كان الاتجاه فى أوربا أن تؤدى النقابات بصفة قاطعة وإن لم تكن مباشرة دائما إلى قيام حزب اشتراكى فالأمر فى أمريكا مختلف بالكلية . حقيقة ظهرت فى أماكن متفرقة وفترات مختلفة أحزاب عمالية ، فكانت لوليم هـ . سلفيس رئيس Molders' International Union صلات بالدولية الأولى ، وأصر إتحاد العمل القومى فى مؤتمره الأول عام ١٨٦٦ على وجوب قيام حزب عمال قومى ولكن القرار لم تكن له قيمة ومات الاتحاد سنة ١٨٧٢ . وحدثت صراعات مريرة مع رجال الأعمال وبخاصة بعد الذعر عام ١٨٧٧ دون أن يؤدى أى منها إلى قيام حركة عمالية مستقلة . وحصل حزب Greenback على تأييد من الطبقة العاملة ولكن مرشحه للرآسة عام ١٨٨٠ لم ينل سوى ثلاثمائة ألف صوت ، وحتى لافوليث الأكبر بوصفه مرشح حزب الفلاح والعمل لم يحرز سوى خمسة ملايين صوت سنة ١٩٢٤ . ولم يستطيع مرشحو الشيوعيين حتى انتخاب سنة ١٩٤٤ الفوز بأكثر من مائة ألف صوت من بين ستين مليونا .

إلا أن عدم وجود أحزاب يسارية ليس معناه إنتفاء السياسات اليسارية . فمن المؤكد أن چيفرسون وإلى درجة محدودة چاكسون كانا يناصران السياسة اليسارية قبل الحرب الأهلية ، وكان فى اتجاه تيودور روزفلت وولسن المحافظ طابع حر ، وشهدت رآسة فرنكلين روزفلت الأولى سياسات تنطبق عليها إلى حد ما صفة الراديكالية . ولكن ما يزال من التعميم الدقيق القول إنه من الوجهة التاريخية ظلت القوة فى الولايات المتحدة بيد حزب محافظ مهما كان الإسم الذى اتخذه ، ولم يستطع فى المستوى الاتحادى أن ينازعه فيها حزب راديكالى . فكيف نفسر هذه الظاهرة الغريبة ؟

يجب أن نتذكر أولا أنها أقل غرابة مما تبدو للنظرة الأولى . فإلى حين انتخابات عام ١٩٠٦ لم يحلم الأحرار والتورى فى بريطانيا بأية تشريعات راديكالية إلا لمجرد أغراض الدعاية ، وحتى سنة ١٩٢٢ لم يصبح حزب العمال المعارضة الرسمية فى مجلس العموم . وكان بألمانيا بعد بسمرك حزب اشتراكى فلما أنهارت الإمبراطورية سنة ١٩١٨ لم يملك السلطة لتولى الحكم . وقامت بفرنسا حكومات اشتراكية راديكالية وإن لم تزد سياستها عن كونها حرة فى إعتدال، وأصدرت حكومة ليون بلوم فى عامى ١٩٣٦ ، ١٩٣٧ تشريعات تشبه التشريع الأكثر جرأة الذى أصدره روزفلت خلال رآسته الأولى . ولكن الشىء الذى يظهر حقيقة من موازنة الموقف الحزبى فى كل من أمريكا وأوربا ، باستثناء روسيا منذ ثورة أكتوبر ، أن المحافظين فى الولايات المتحدة ساروا على سياسة أختلفت من حيث الدرجة أكثر منها من حيث النوع عن سياسة حكومة راديكالية أو حتى اشتراكية فى أية دولة أوربية منذ سنة ١٩٤٥ .

إن الاختلاف بين الأحزاب الأمريكية والأوربيــة لا نلقاه فى السياسات ، كما لا يسهل إرجاعه إلى تكوينها الطبقى إذ حين ندرس الأصول التاريخية للمشرعين الأمريكيين بما فيهم رؤساء الجمهورية بعد انتصار أندرو جاكسون سنة ١٨٢٨ نجد أن الكثيرين منهم رجال يتوقع أى حزب عمالى فى أوربا جذبهم إلى صفوفه . ولو صح الاستفتاء الذى أجراه معهد جالوب فهناك مظهران مهمان يختلف فيهما الحزب الديموقراطى عن الجمهورى . فأنصار الأول بوجه عام أصغر سنا مما يستتبع أن يكون الناحب الأشد رخاء جمهوريا بينما يكون ذو الدخل التواضع من أنصــار الحزب الديموقراطى . ومما له مغزى أن أعداء روزفلت الأساسيين كانوا فى صفوف الطبقات الغنية ، ويؤيد ذلك أن أنصار « التهدئة » فى وقت الحرب الأهلية كانوا من أغنياء رجال الصناعة والتجارة فى نيويورك وبوسطن وفيلادلفيا . ولو ربطنا بين نتائج الإحصاءات والانتخابات وجدنا اتجاه الطبقات الفقيرة بالمدن نحو الديموقراطيين بخلاف الغنية . إلا أنه مقابل هذا يجب أن نذكر أن كبار أصحاب القطن والطباق

فى الغالب ديموقراطيون بينما الفلاحون فى نيو انجلند والشمال الغربى جمهوريون أساسا . من هذا يتبين أن كل حزب من الوجهة التاريخية ائتلاف يبدو فيه عداء كل جزء للآخر بمجرد فحص اتجاه مصالحه الإقتصادية .

كل هذا يغرينا على الظن بأن الوقت يقترب سريعا كى تعيد الأحزاب الأمريكية تنظيم صفوفها . إن مما له مغزى إتفاق أغنياء الحزبين بعد الشهور القلائل الأولى من رآسة روزفلت الأولى على الحد من سلطته فى إقرار التشريعات الراديكالية ؛ وأهم من هذا اتجاه مؤتمر التنظيمات الصناعية الى الاشتغال بالسياسة وهو اتجاه يزداد بسبب ازدياد تدخل الحكومة الاتحادية فى الشئون الاقتصادية وأن التدخل سيستمر بشكل تأكيد . واقبال عهد الأمن الاجتماعى ونتائج قانون علاقات العمل ، واشراف الحكومة الاتحادية على ساعات العمل والأجور ؛ كلها تنطوى على الحاجة إلى وضع معايير يعظم اهتمام العمال بتشكيلها ، وهى حاجة سوف تشتد بسبب قانون تافت ــ هارتلى . وتجربة أوربا تريناد رجة التطور المنتظر . فحيث تصل فترة التوسع الى اقصاها يظهر دائما تفاوت الفرص مما يؤدى عاجلا أو آجلا الى عداء بين المصالح ، وحيث يبدأ ذلك الصراع يتخذ صورة واعية فالنتيجة أن يتكون حزب لحماية المصالح فى الجانبين والتى ترى أنها مهددة بالخطر .

ما من أحد يدرس الأحزاب السياسية الرئيسية فى الولايات المتحدة منذ عهد جيفرسون حتى اليوم ولا يرى بوضوح تاما أنها فى جوهرها ائتلاف بين مصالح تتراوح بين اليسار إلى اليمين وإن كان كل منها ــ إن استطاع ــ يستبعد أقصى اليسار . ولهذا ، فباستثناء فترات الأزمات الخطيرة ، نجد سياسة كل حزب موضع التقبيل من منافسه . كان من السهل الإبقاء على هذا الاتفاق بشأن القواعد الأساسية فضلا عن استمرار الأساليب وذلك إلى أن وقع الكساد العظيم سنة ١٩٢٩ . حقيقة حدث من وقت لآخر تصدع فى أدوات الأحزاب ؛ إلا أنه فى سنة ١٩٢٩ كان قيام حزب ثالث يصلح لتصحيح أى تحول كبير عن آمال الجمهور ؛ وحتى سنة ١٩٢٩ كان هناك دائما محل فى الفرص الاقتصادية بما يجعل الحزب الثالث لا يعدو أن يكون حافزا على

التعديل والتصحيح . فحتى العقد التاسع كانت هناك مناطق الحدود ، وبعدها استنفاد إمكانيات الأرض كان هناك التوسع الهائل فى المجال الصناعى ، بينما أثناء ذلك النمو وبعده حدث اطراد الزيادة فى القـوة الشرائية للرجل الصغير بفضل نظام الاعانات للمحاربين القدماء فى الحروب التى اشتركت فيها الولايات المتحدة ، ويمـكن اعتبار هذا النظام منذ الحرب الأهلية صورة أخرى من التوسع الذى مثلته مناطق الحدود لزمن طويل .

غير أنه منذ سنة ١٩٢٩ بدأت المشكلة تتخذ شكلا مختلفا تماماً . ففى ظل تمسك الحزبين الـكبيرين بالسياسة الاجتماعية القائمة على الفلسفة الفردية يصبح من المشكوك فيه تحقيق العمالة الـكاملة فى ظل الفردية . إن النظرية الاقتصادية الحديثة ترفض أفكار المشروع الحر ؛ والحق ليس من المبالغة القول بأن العمالة الـكاملة لم تتحقق فى الجيل الماضى الافى فترات الحرب نتيجة الطلبات التى تتقدم بها الحـكومة إلى الصناعة. ويتوقف الطلبات مع مواصلة سياسة المشروع الخاص تنشأ بطالة واسعة النطاق أو يحدث خفض خطير فى مستوى المعيشة . وللتخلص من هذه الورطة المزدوجة يصبح من الضرورى أن يقبل الحزبان توزيعا للقوة الشرائية يختلف عما عرفته أمريكا من قبل . وتقبل هذا الاختلاف معناه الاعتراف بأن عصر المشروع الخاص قد إنتهى ، وذلك الاعتراف بدوره معناه توسع هائل فى نطاق الملـكية الاتحادية والرقابة على الصناعة والزراعة وبالتالى تغيير أساسى فى نوع الامتيازات الاقتصادية التى يتمتع بها قادة الصناعة الأمريكية . وهنا إما أن تختلف الأحزاب مع القيادة الصناعية أو ترفض الأخيرة مبادىء التنظيم الجديدة وهى المبادىء التى ترى الأحزاب نفسها مضطرة إلى السير وفقالها حتى تضمن النجاح فى الانتخابات . وفى هذه الحالة يصطدم العمال بالحاجة إلى التصرف وفق فروض يرفضها رجال الأعمال تماما ولست أرى كيف يتسنى لهم التصرف فى إطار التـكوين الحزبى الحالى ؛ وبعبارة موجزة سوف يضطر العمال الأمريكيون إلى العمل السياسى المستقل كما حـدث للنقابات البريطانية . من الممكن أن يقاوم بعض قادة العمال الاتجاه نحو الاستقلال كما سبق أن فعل المستر رمزى مكدونلد حينما كان يأمل الحصول على مقعد فى مجلس العموم تحت لواء حزب

الاحرار، ولكنهم سوف يرون باطراد أنه كلما اشتدت مطالب العمل صلابة زاد توحيد نشاط الحزبين الجمهورى والديموقراطى مما ينجم عنه اتساع الهوة التى تفصل رأس المال عن العمل .

وعلى أساس هذا الفرض من المحتمل على الأقل أن تمر النقابية الأمريكية فى المستوى السياسى بمرحلتين . فبمجرد تصارع مرشح محافظ من الحزب الديموقراطى مع مثيل له جمهورى من أجل الرآسة ،وقد يحدث هذا فى سنة ١٩٤٨ (١)، فسوف يحذو العمال الأمريكيون حذو زملائهم البريطانيين سنة ١٩٢٦ ويتحولون بسرعة إلى العمل السياسى المستقل .فى المرحلة الأولى من هذا الاستقلال سيكونون بغير شك حزبا صغيرا نسبيا على المسرح الإتحادى مع الإصرار على أنهم ورثة تقاليد چيفرسون ولنكولن. ولكنهم سيجعلون من الواضح أيضا أن الجمهوريين والديموقراطيين سوف يتحدثون باسم دولة أمريكية فيها مصلحة العامل مستبعدة فى جميع المسائل الأساسية . وهنا نجدهم يتجهون نحو اليسار مما يجعلهم فى الحقيقة حزبا اشتراكيا ، كما يجدون أيضا أن خصومهم سوف يكتشفون أن مابينهم من خلاف جوهرى ضئيل . وحين يظهر هذا فمن غير المحتمل أن يختلف النظام الحزبى الأمريكى من حيث القواعد الأساسية عنه فى أوربا . بل ومن الممكن فضلا عن هذا أن قيام هذا الموقف قد يعجل به تأثير الإتحاد السوفيتى على العادات الصناعية والسياسية للحضارة الغربية وحتى الأسيوية (٢) .

ولا أظن أن هذا الرأى تنقضه العادات التقليدية « للجنوب المتماسك » إذ من المهم أن نتذكر أن الجنوب يتجه إلى التصنيع بسرعة كبيرة ، وأن أعداداً كبيرة من الزنوج يهاجرون إلى الشمال والغرب وأن شدة رغبة الجنوب فى اجتذاب الصناعة بأسرع ما يمكن سوف يغير من مركزه « كمستعمرة » للشمال ويجعل مشكلاته الصناعية مسائل تتطلب تصرف الحكومة الإتحادية أكثر مما تتطلب قرارات تتخذها كل ولاية بالجنوب على حدة .

---

(١) لم يحدث ما توقع الكاتب، بل ولم يبد الدليل على أن تحقيق هذا قريب (المترجم.)

(٢) ولكن ليس معنى هذا الأخذ بالنظام السوفيتى لأنه يتعارض مع تقاليد الكثير من هذه البلدان (المترجم)

الفصل الرابع

النظم السياسية الأمريكية

نظم الولايات والنظم المحلية

— ١ —

حين إجتمع الخمسة وخمسون رجلا بفيلادلفيا فى ربيع عام ١٧٨٧ لوضع الدستور الإتحادى كانوا فى الواقع يخلقون جمهورية واحدة وأن خفيت تلك الحقيقة عن معظم المواطنين بفعل الوهم الذى يولده التاريخ . كما أن أولئك المؤتمرين — ربما باستثناء هاملتن — لم يحلموا بأن ينكروا صفة السيادة على الولايات الثلاث عشرة المجتمعة لانشاء إتحاد أوفى . والحق ، تطلب الأمر أربع سنوات من الحرب الأهلية الدموية حتى تتأكد الولايات أنها أقاليم فى جمهورية كبيرة لا تستطيع الانفصال عنها قانونا وأن تلاءم عاداتها السياسية مع الصفة السياسية لتلك الجمهورية . لاريب أن لكل ولاية مهما صغر حجمها كديلاوير أو قل عدد سكانها مثل نيفادا سلطة إنشاء القوانين مما لايتوافر لمقاطعة إنجليزية أو فرنسية ، ولها مظاهرها الخاصة ، ولبعضها تاريخها الذى تفخر به ؛ ولكنها لاتملك السيادة بالمعنى الفعال بل الأحرى أنها أقاليم متفاوتة الأهمية لا تحتاج إلى تلقى التعليمات من وشنطن فى تقرير بعض نواحى سلوكها . إن الولاية الأمريكية جزء فى جمهورية أكبر وإن لم يصعب أن نميز فيها بعض مخلفات السيادة، إذ لكل منها حاكمها وهيئتها التشريعية المكونة من مجلسين (عدا نبراسكا) ونظامها القضائى ومحكمتها العليا وربما لجنتها الخاصة بالموظفين التى تنمى باطراد قانونها الادارى . ومن المؤكد نوعا أن يكون لها نظامها التعليمى وجامعتها، وأسلوبها الخاص فى منح أو سلب مناطقها المدنية أو الريفية الحكم الذاتى ، وقوات الرديف والأمن . وفى معظم الولايات قد نلقى فى نظام سحب الثقة محاولة لإخفاء الحقيقة على فكرة

السيادة الشعبية . وليس هذا بكل شيء . فلكثير من الولايات تقاليدها الوثيقة الصلة بالمجرى الرئيسى للتاريخ السياسى ؛ فلا نستطيع مثلا أن نطالع سجل فتح مناطق الحدود دون الإحساس بأن الحركة الديناميكية إنسابت فى مجار من الاستقرار الدستورى وخلقت أفكاراً ومثلا كان لها أثرها العميق على بقية العالم . والمواطن الفرچينى يشعر بالفخر لأن أسرته بالولاية أنجبت لرآسة الجمهورية وشنطن وچيفرسون وماديسون . إن الأمريكى يعتبر انتماءه الى هذا البلد تحديا للعالم القديم ، ولكن كونه وريث ماحققته الولايات الثلاث عشرة الأصلية يكسب مغامرة الحياة لونا خاصاً .

حقيقة لم تكن السيادة بالولايات حقيقية بعد عام ١٧٨٩ ولكنها بالرغم من هذا القيد تنمى فى مواطنيها شعور المشاركة فى تقاليد عظيمة ، يضاف إليه سمو الشخصية مما ولده إلى حد كبير أولئك المهاجرون الذين أبدلوا ما عرفوه فى أوربا من فاقة واستبداد بجو توافر فيه الأمل والبهجة حتى مطلع القرن العشرين . هناك نقط سوداء فى حياة الولايات ، وديموقراطيتها تدعو إلى الإشفاق بل وإنها لناقصة بالنسبة إلى بعض الأجناس. وكانت هناك خشونة فى معاملة الأقليات ، إلى جانب شك فى الوافدين الجدد وعداء لمن ينحرفون عن التقاليد والأساليب المتوارثة مما جعل من عدم التسامح ظاهرة حقيقية وواسعة الإنتشار كالتسامح نفسه ؛ ولقد ذاق الزنوج والشرقيون والكاثوليك مرارة ذلك كله . إن القلائل ممن يتمعنون حوادث الشغب فى هايماركت أو محاكمة ساكو وڤانزيتى يرون أنه لا توجد صيغة بسيطة تفسر طريقة سير الديموقراطية فى الولايات الأمريكية ، وبمجرد أن تصبح صيغة الديموقراطية غير بسيطة فأنها تثير مشكلات خطيرة مما يقتضى إجراء التعديل فيها على الدوام حتى تتلاءم مع جو فكرى جديد إذا أريد لها أن تبقى حقيقة مستمرة .

ذلك أن الديموقراطية فى الولايات لا تقف عند حد إنتخاب الحكام لأن الناس ينتخبون الهيئات التشريعية ويختارون عددا من الموظفين العموميين من المدعى العام إلى مراقب التعليم ومدير الخدمات الطبية . والتعيين فى العادة تحدده الأداة السياسية التى يحتمل أن تكون تحت سيطرة صاحب النفوذ فى الولاية . وحين يستقر الرأى

على الشخص فلابد من أن تؤخذ صفة الناخبين فى الحسبان ، فيندر مثلا أن يرشح الحزب الديموقراطى الكاثوليك فى الجنوب بسبب عظم الإرتياب فيهم ، كما يكون من المهم فى حى هارلم السص إلى نيل تأييد الزنوج .

ومن غير المحتمل أن يتجاوز الذين يرشحون نطاقهم كثيراً وحتى إذا نجحوا فى مناصبهم . قد يصل الحاكم الناجح إلى مجلس الشيوخ ، وإذا اكتسب سمعة عالية فى ولاية مهمة مثل نيويورك قد تسنح له فرصة الترشيح للرآسة فقد كان كليفلاند حاكما لنيويورك . وإذا كان من المبالغة أن نعد وظيفة حاكم الولاية أعلى طريق لحياة سياسية فى النطاق القومى فأنها على الأقل تخلق إحتمال تلك المغامرة . ولكن هناك ذلك القيد الهام وهو أن منصبا رسميا فى ولاية لا تثير الأصوات فيها أية مشكلات لا يحتمل أن يدفع بصاحبه من الولاية إلى المسرح القومى .

ولقد تغيرت سياسة الولايات كثيراً فى الثلاثين أو الأربعين سنة الأخيرة بسبب نمو الإهتمام بالمسائل الإتحادية فضلا عن إزدياد اعتماد الولايات على المساعدة من قبل الحكومة الإتحادية . وإذا صح القول بأنه من وقت لآخر قد تجعل وظيفة الحكم بالولاية فى الإمكان حياة سياسية على النطاق الإتحادى فأصح من ذلك أن الأغلبية الساحقة من السياسيين الذين تجتذبهم لهم نفوذ قليل خارج المنطقة التى يعملون فيها . والواقع أن مجال الوظائف بالولاية والفرص التى تهيئها مما لا يجعل للسياسة بالولاية مثل أهمية وشنطن . وفضلا عن هذا فعدد غير قليل من الولايات لا وجود فيه لشىء يمكن أن يدعى حياة سياسية عميقة بسبب تحكم المصالح الإقتصادية التى تتسامى على المصالح الحزبية ، ومن ذلك أن مونتانا فى أيدى شركات النحاس الكبرى . وإذا لم يكن ثمت وجود لهذه المصالح فهناك أشكال أخرى من الضغط يجب أن تأخذها الأحزاب فى الحسبان كالمشكلة العنصرية فى مينسوتا ، أو تأثير الكاردينالات فى بوسطن وشيكاغو ، أو السلطان الإقتصادى لاسرة ما ، أو تصميم الغرب على حماية سيادة الرجل الأبيض من تحدى العناصر الوافدة من بلاد الشرق . هذه كلها قيود لابد للأحزاب من أن تجد الوسائل للتلاءم معها ؛ وهى تحقق هذه الغاية بوسائل متعددة كعدم اثارة مسألة مزعجة مثل معاملة الزنوج أو إثارة مشكلة ما على نحو تفرضه على الاحزاب مؤثرات تظل فى العادة بعيدة عن الصراع السياسى المعتاد .

وتتخذ سياسة الأحزاب من وقت لآخر لونا خاصا حسب صفة الحزب الحاكم أو مصادر التأييد التى يعتمدعليها ، فالفترة التقدمية فى تاريخ وسكونسن ندر أن كان لها مثيل منذ الحرب الأهلية ، بينما كان لجورجيا فى عهدحاكمها تلمادج طابعها الخاص. وثمت فترات يرفض فيها الحاكم أن يجعل فى يده المبادأة من أى نوع كان ، كما أن هناك فترات يستطيع فيها أن يثير بأعماله اهتمام الذين يعنون بالشئون السياسية كما كان الحال مع آل سميث Al Smith حاكم نيويورك . وأحيانا ينتخب الحاكم لأسباب ليس من السهل أن نجد لها أية أهمية سياسية كأن ينجح بسبب مهارته فى العزف على الجيتار .

قـــد لا يصح القول بأن الناخبين يستقبلون نتيجة الانتخابات بالولاية بعدم الاكتراث لأن الحاكم القوى قد يحدث اختلافا كبيراً فى الجهة التى يسيطر عليها كما قد يكون لصلاته بوشنطن تأثير حقيقى على أهلها . إلا أنه يصح القول كذلك بأن أهمية الحاكم ترجع إلى أهدافه بالنسبة إلى الحياة الاتحادية منها بالنسبة إلى ولايته . أضف إلى هذا أن قصر الدورة التشريعية لا يفسح أمام الأعضاء الوقت الكافى ليضعوا برنامجا يثير الاهتمام العميق فى صفوف الناخبين . إن الحقيقة المرة فى حالة ثلثى الولايات على الأقل أن الصفة الفعالة للسياسة التى تسير عليها تحددها جماعات الضغط والمناورات خارج صفوف الأشخاص المنتخبين أكثر مما يحددها الذين اختارهم الناخبون . هناك استثناءات بغير شك إلا أنه ليس من المبالغة الإصرار على القول بأن القوة الحقيقية فى ولاية كونيكتيكت مثلا كانت فى يد ا . هـ . رورابك . إن الحزب فى كل ولاية مرتبط بمجموعة من المصالح الثابتة لا يجرأ على تجاهلها وإلا عرض مركزه للخطر . وحيث تكون المصلحة قوية حقا كمصلحة ميلون فى بنسلفانيا فان المركز الفعال للاهمية السياسية لا يكون فى قصر الحاكم والهيئة التشريعية إلا من الوجهة الرسمية فقط .

ومما لا يرقى إليه الريب أن الأزمة تجعل لقوة الحاكم أو الهيئة التشريعية أهمية خاصة وتدفع بالمصالح الثابتة إلى الوراء . غير أن المصير التعس الذى لاقاه آلتجلد Altgeld حاكم إلينوى فى أوائل العقد التاسع يوضح أنه حيث تكون الأزمة من الضخامة بحيث

تستدعى تدخل رئيس الجمهورية فان القرارات الهامة تتخذ فى البيت الأبيض والحاكم الذى يحاول السير فى اتجاه مخالف قد يضع حداً لحياته السياسية . وهذا مجرد توضيح للفكرة القائلة بأن الولايات أساسا مقاطعات فى الجمهورية الأمريكية الكبرى وأغراضها تشغل المكان الثانى بالنسبة إلى أهداف الحكومة الإتحادية .

إن للولاية الأمريكية جذوراً عميقة فى حب أهلها ؛ ونطاق وظائفها واسع بالرغم من التقدم الهائل فى المركزية خلال السنوات الثلاثين الأخيرة . أماضعفها كتنظيم سياسى فمزدوج ، فهناك الضعف الناشىء من تداخل القوة السياسية والاقتصادية إذ تكون الكلمة النهائية لمن يملكون القوة الاقتصادية ؛ وهذا يتفق مع عبارة إليهو روت الحاسمة من أن بكل ولاية حكومة غير منظورة تضع مقاييس العمل للحكومة المنتخبة رسميا مما يجعل سياسة الحاكم والهيئة التشريعية نتيجة لا سببا . والضعف الثانى نلقاه فى ذلك العدد الكبير من الوظائف التى يختار شاغلوها بالانتخاب وكذلك فى عدم استمرار العمل التشريعى الأمر الذى يحول كثيرا دون نقد الادارة بما يجعلها أكثر فاعلية . إن اختيار القضاة بالانتخاب غريب وإن كان مفهوما على ضوء ظروف أمريكا التاريخية ، ومن المحقق أنه من الصعب القول بأن القضاة الذين يعينهم الحاكم بموافقة مجلسه أفضل ممن ينتخبهم الشعب؛ فإذا كان التعيين أعطى ماساشوستس أمثال شو وهولمز فإن نظام الانتخاب جاء لنيويورك بكاردوزو ومن قبله بقرن بصمويل نلسون .

ولكن مجال الاختيار الشعبى أوسع مما يتخيل الأوربيون . فهناك وظائف عدة مثل النائب العام ومراجع المصروفات العامة ومراقبو التعليم والزراعة والادارة العامة ووزير المالية ويضاف إليهم عدد كبير من موظفى المدن والأرياف كالعمدة وقاضى التحقيق ووكيل النيابة والمأمور ومعاون البلدية وأعضاء المجالس الذى يختارون مثل الحاكم ونائبه على أساس حزبى كامل . وفضلا عن ذلك فهناك إمكانية سحب الثقة أى تجعل نسبة معينة من الناخبين تبدى رأيها فى موظف تعتبر سلوكه غير مرضى ، وكذلك النص فى أغلبية الولايات على ألا تزيد مدة الدور التشريعى العادى عن ٤٥ أو ٥٠ أو ٩٠ يوما وهو نص يجب أن نربطه بمبدأ الاستفتاء الذى استورده من سويسرا

المواطنون المتحمسون ممن آمنوا أن الديموقراطية المباشرة علاج لجميع علل المجتمع السياسى :

وعلى ذلك ففى معظم الولايات وفى مستوى العمل الذى تضطلع به يختار المواطنون عدداً كبيراً من الموظفين لا يعرفون عنهم أكثر من أنهم ديموقراطيون أو جمهوريون ، كما يصوتون على تشريعات ليس لديهم من الاستعداد للحكم عليها سوى الدعاية التى تعرضها عليهم . وفى بعض الولايات يطلب منهم ابداء عدم الثقة فى موظف قد يكون حاكما أو قاضيا بصدد مسائل تتطلب عمق النظرة ومهارة فى فحص الأدلة . ووراء هـــذا يكمن الإيمان الذى لا يتزعزع فى حكم الشعب ورأيه ، على الأقل الشعب الذى لا ينتمى إلى أصل إفريقى [١] . وربما يتصل بهذا اعتقاد منتشر نوعا فى الشمال الغربى أنه كلما زادت درجة اشتراك الشعب فى الحكم كلما كانت النتائج التى تحققت أقرب صلة بالرخاء الشعبى :

---

(١) يقصد الكاتب بذلك الزنوج حيث ما يزال وضعهم بعيداً عن المساواة مع البيض (المترجم)

أما النتائج فنادرا ما تبرر الإيمان البسيط الذى ترتكز إليه ، بل قد يصح القول إن كثرة وتكرر الحالات التى يطلب فيها إلى المواطنين الإختيار ، فيما عدا الحالات النادرة ، مما يزيد من قوة أداة الحزب ؛ ذلك أنه حيث لايثير الموضوع اهتمام الناخبين بوجه خاص فالمواطنون الذين يقومون بالفحص اللازم الذى يجعل حكمهم عليه ذا صلاحية مستقلة عددهم صغير إذ الغالب أن يطمئن الناخب لمن يثق فيه من أشخاص وتنظيمات أو يؤيد مرشحا أو مشكلة بدافع الحب أو الميل ، كأن يفضل رجل الأعمال مثلا رئيس نادى الروتارى . وبالرغم من حصول الأمريكيين على قدر من التعليم أكبر من أى شعب آخر باستثناء دول اسكنديناوه فانهم لم يبلغوا المستوى الذى يجعلهم يرون النشاط العام أكثر أهمية من المصالح الخاصة . ولذلك فحين يطالبون بمثل هذا العمل الكثير فإنهم يميلون فى غير فترات الأزمات إلى أن يتقبلوا بصورة آلية الرأى الذى يبث فيهم الإحساس بالثقة .

بغير هذا يصعب تفسير استمرار بعض نواحى التقاليد فى الولاية ، ومن ذلك أن تعلق مين وفرمونت بالجمهوريين تقليد متوارث لاصلة له البتة بالظروف التاريخية فى الولايات المتحدة . أضف إلى ذلك أن هناك اعتبارات اقتصادية نادرا ماتتسامى على التقليد ، فالناخب فى نيفادا أو نبراسكا يجد من الصعب بوجه عام تأييد مرشح كان معارضا فى سك العملة الفضية . وفى جهات من كاليفورنيا ليس من الضرورى حتى القول بأن النقابات تتضمن تهديداً للرخاء فى أمريكا .

ولقد بذلت محاولات لتصحيح قوة أداة الحزب غير أن نجاحها كان متواضعا لا بسبب الإجراءات ذاتها وإنما نتيجة تلك الحقيقة البسيطة التى عبر عنها إدمند بيرك منذ قرن مضى تقريبا حين قال إن الناس أكثر أهمية من الاجراءات . فبمجرد أن تظهر شخصية على مقدرة بارزة وذات أطماع بعيدة الغور فإنها تكاد أن تجعل من وشنطن هدفها النهائى ، والنتيجة أن الحياة السياسية بالولاية لا تعدو مرحلة للارتقاء

أو سبيلا لإرضاء أطماع ساسة من الطبقة الثانية ، فقد كان آل سميت حاكما رائعا لولاية نيويورك ولكنه اعتبر منصبه خطوة نحو البيت الأبيض ، فلما أخفق عام ١٩٢٨ لم يدر فى ذهنه أن يعود إلى النشاط السياسى بالولاية . وإذا ما اعتبر الساسة مسرح السياسة المحلى غايتهم القصوى فان مستقبلهم يتوقف إلى حد كبير جداً على علاقتهم بأداة الحزب أو ربما على موقف رئيسها منهم وبخاصة إذا كان إطار حياتهم السياسية تحدده المناطق الريفية أكثر من المدن .

وأداة الحزب فى الولاية — مع استثناء عدد صغير من المدن الكبرى — تزود الحزب بكل الصفات التى يتشكل منها طابعه وهدفها الوحيد الفوز فى الانتخابات واهتمامها بالسياسات راجع الى مدى ماتسهم به هذه فى احراز النصر الذى معناه الوظائف للأتباع والعقود المجزية وتجنيب الأنصار الحاجة الى كسب العيش بالطريق العادى . وقد تعين الأداة الناجحة المحامين من أنصارها فى مناصب القضاء ، أو تحصل على تأييد المصالح الكبيرة أو تمنعها من مساعدة الجانب المنافس إن أداة الحزب سمسار أفكار ، وترسم القواعد التى تكفل الفوز بالأغلبية . وعليها البحث عن الصالحين للوظائف المناسبة ومنع إنتخاب الذين لاتتوافر لهم الصلاحية . ومن واجبها إشعار الناخبين بأن رخاءهم يتصل اتصالا مباشرا بنجاح الحزب ، وأنها ذات إحساس صادق بالمؤثرات ذات الأهمية الكبيرة بالولاية . إنها ليست تنظيما للبحث عن الأفكار من أجل الأخيرة فقط ولكنها تنظيم من رجال يأتون أولا لكسب الأفكار فى الوقت المناسب ؛ ومن هنا فمهمتها جس نبض الرأى العام والوزن الدقيق لمختلف عناصره . ليس يكفى قادتها المقدرة على نيل تأييد الشركات الكبرى بل يجب عليهم أن يعرفوا كيف يقنعون مجموعة من المهاجرين بأهمية صداقتهم . ويجب أن يكونوا قادرين على أن يقيسوا مبلغ الجزاء الذى يقدمونه لقاء التأييد دون أن يفقدوا حسن الظن من جانب غير الحزبيين ممن تحدد أصواتهم نتائج معظم الإنتخابات . وإذا وسعهم أن يجمعوا بين المقدرة وذلك الذى لا يختلف كثيرا عن جوهر الرشوة كما فعل الحزب الديموقراطى مع هيو لانج فى لويزيانا فإنهم يحققون المثل الأعلى الذى يهدفون إليه . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى يجب أن يتجنبوا الزعماء الذين تهدد ميولهم

وكراهيتهم قوة الأداة على العمل حين تحل المعركة ، أو الذين يثيرون الغضب أو الإحتقار بسرعة بسبب رشوة ظاهرة كما فعل لويد أو غباء سافر مثل هيلان عمدة نيويورك .

ويجب ألا تتظاهر الأداة بأن لها أفكارا للعمل ، بل يجب أن تكون لديها تلك الأفكار ، وأن تضم إلى صفوفها ، مهما كان حجم الولاية ، القادة الذين يكسبونها بفضل قوتهم أهمية على مسرح السياسة القومية . فهاهو ذا وليم جننجز بريان مثلا جعل الحزب الديموقراطى فى نبراسكا موضع اهتمام جميع الأمريكيين لمدة أربعين عاما .

وبوجه عام يتعين على الأداة السياسية فى أية ولاية أن تتجنب إغضاب العناصر المهمة . لاريب فى وجود ولايات تبلغ بعض المصالح الثابتة فيها قدراً من القوة الذى يجعل تأثيرها حاسما مثل دى بون فى ديلاوير ، غير أن السيطرة التى من هذا القبيل أمر استثنائى فنيويورك مثلا أبعد من أن تقع تحت رحمة بيت مورجان . ولقد ظل روراباك صاحب الكلمة العليا فى كونيكتيكت بوصفه خادم شركات النور والكهرباء إلى أن ارتكب الخطأ الجسيم حين ظن أن من غير الضرورى إثارة اهتمام الناخبين . ونجح فى هذا منافسه على منصب الحاكم ، ويلبور كروس أحد أساتذة جامعة ييل المتازين ، والذى جمع فى فترة أزمة بين القدرة والأمانة مما جعل منه «شخصية» وكانت النتيجة هزيمة ساحقة نزلت بالجمهوريين . وهذا مثل تلقاه فى غير هذه الولاية وثمت عدد غير قليل من الولايات تتعرض فيها الأداة داخل الحزب الواحد للخطر؛ فقد انتخب السناتور بيرد حاكما لفرچينيا لأنه خلق مشكلة سياسية مكنته من انتزاع زعامة حزبه هناك من السناتورسوانسون . ويصح القول أنه منذ أن تمت عملية إعادة تنظيم الأداة الإدارية بنجاح فى فرچينيا سنة ١٩٢٦ ظل يكافح بقوة داخل حزبه من أجل الإحتفاظ بتلك الزعامة .

أضف إلى هذا أن ولايات قليلة تتجنب التعقيدات السياسية الناجمة من أن لأحزابها « رئيسا » يتعين على الأشخاص المنتخبين من الحاكم فما دونه أن يدينوا له بالطاعة . فقد حدثنا لنكولن ستيفن فى عبارة مشهورة أن « حاكم رود أيلند

الدائم » كان الجنرال شارل برايتين الأعمى وكان يتخذ فى مكتب المأمور القرارات التى يتقبلها الحاكم والهيئات التشريعية على السواء[١] . وأوضح من ذلك الخطاب الشهير الذى ألقاه السناتور روت أمام مؤتمر نيويورك الدستورى عام ١٩١٥ حيث رسم صورته المعروفة « للحكومة غير المنظورة » فى ولاية نيويورك فقال « منذ أيام فنتون وكوكلنج وآرثر وكورنل وبلات ، ومنذ داڤيد ب . هل حتى الآن ، كان هناك مظهران مختلفان من الحكومة ، أحدهما الوظفون الذين ينص عليهم الدستور والقوانين ، والآخر يمثله قادة الحزب ومن يدعون السيادة عليه. لست أذكر كم من السنوات الطوال ظل المستر كوكلنج الحاكم الأعلى فى الولاية . . لم تكن للحاكم أهمية ولا للهيئة التشريعية وزن . . كانت القيمة لما يقول كوكلنج ، وفى سورة من الغضب الشعبى أنزل عن عرشه . ثم حكم الولاية المستر بلات عشرين عاما تقريبا . لم يكن الأمر فى يد الحاكم أو الهيئة التشريعية أو أحد من المنتخبين . . لقد كان الأمر كله بيد المستر بلات !![٢]

وتستمد الحكومة غير المنظورة قوتها من مصادر أبعد ما تكون عن البساطة ، تتمثل فى قصر الفترة التى يقضيها أعضاء الهيئتين التنفيذية والتشريعية فى مناصبهم ، أو عدم إعادة إنتخاب الشخص بحكم العرف أو القانون ، أو توزيع السلطات بين الموظفين التنفيذيين كما قال روت ، أو صعوبة إعادة التعيين أو استحالته إذا عجز الشخص عن إرضاء « الحكومة غير المنظورة » . وقد حدثنا لافوليت الأكبر فقال إن « السادة لم يعتبروا اختيار المرشح لمنصب الحاكم مسألة لناخبى وسكونسن الحق فى أن يكون لهم صوت بشأنها » . فخلال عطلة المؤتمر استدعى الحاكم Upham أمام لجنة تنفيذية من سادة وسكونسن حيث أبلغوه أنهم لن يؤيدوا إعادة تعيينه ، واختير

---

(١) Lincolu Stephen · Autobiography (New York, Harcourt, Brace, 1931), p. 465.

(٢) New York Constitutional Convention of 1915 (Albany : New York State Library, 1915, Vol. III, pp. 3387—88

إدوارد سكوفيلد خلفا له »[1] . ولعل أهم تعقيب على القصة أنه لما انفصل لافوليت عن الحزب الجمهورى أنشأ أداة خاصة به لحماية سلطته فى ماديسون ووشنطن.

إن مايثير القليل من الغرابة الصراحة التي يعترف بها الأمريكيون بهذه العادات . إن رئيس الوزراء فى بريطانيا لا يستطيع البقاء طويلا فى منصبه بغير سلطة الرعاية ومنها الإنعام بالألقاب . وعادات الأحزاب فى الممتلكات المستقلة وسط بين السياسة الصريحة للاحزاب الأمريكية وبين أسلوب الإخفاء اللبق الذى يعتبر مناسبا فى لندن. واختلف النظام فى فرنسا فى عهد الجمهورية الثالثة وفى إيطاليا لحين استيلاء موسولينى على السلطة عن طابع النظام الأمريكى من حيث التعبير والطريقة أكثر منه من حيث المبدأ . لاريب أن الناخبين كثيراً مايثورون ضد « سيد » تجاوز حدوده كما حدث لروسكو كونكلنج فى نيويورك ، كما استخدمت وسائل مختلفة لنقل مركز القوة السياسية الفعال من « السيد » وأداته السياسية الى الناخبين ولكنى لا أظن أنها أحرزت نجاحا ظاهراً .

والسبب فى هذا مزدوج . فالسياسى الذى يشترك فى الأداة محترف يخصص لها كل وقته بينما الناخب وغالبية المصالح من الهواة الذين يبدون الاهتمام بفترة قصيرة أو يعنون بتغيير معين . أما إذا أراد الناخب أن يؤكد قوته بصورة مستمرة فعليه أن يتحول إلى محترف . إن السيد وأداته موردو سلعة هى القوة ويطلبون المشترى الذى يدفع أغلى سعر . وإذا وجدوا المشترين لا ينظرون إلى نوع واحد من السلعة فانهم يقدمون غيرها . فاذا ثار الفلاحون فى كاليفورنيا ضد الأجور العالية للنقل بالسكة الحديدية فأن أداة الحزب الجمهورى تقدم لهم هيرام جونسون ، وشعاره المعروف « أطردوا الشركات من السياسة » يبث فى الفلاحين الغاضبين الوهم المؤقت بأنهم أثبتوا قوتهم كالشعب ذى السيادة وأنهم أحرزوا انتصاراً عظيما . ولكن الوهم مؤقت ويتضاءل سحره ببساطة لأنه مجرد حادثة عارضة وليس عملية متصلة .

---

(١) R.M. La Folette : Autobiography (Madisen : The Robert M. La Folette Co., 1913) p. 189.

والسبب الآخر صلة أداة الحزب بنظام الملكية الخاصة فى الصناعة والزراعة . فأصحاب السكك الحديدية والمزارع والمصانع يريدون ادارتها بأقل قدر من التدخل وأكبر قدر من الربح وهم يحققون الغرضين اذا ضموا أداة الحزب إلى صفهم . هناك كل الفارق بين يوم عمل من ثمانى ساعات ينفذ بدقة وفق نظام سليم من التفتيش وبين قانون يقرر مثل هذا اليوم دون أن يخلق أداة لتطبيقه . ويتوقف مركز شركة كبرى مثل جنرال موتورز أو دى بون على طريقة استخدامها لقوات الأمن الداخلى. واذا قررت ولاية أن تتولى مرفق الماء والكهرباء أو السماح لمدينة بادارة وسائط النقل الرئيسية داخل حدودهما فمعنى هذا استبعاد المواطن من هذا المجال الهام . وقوانين التعدين ، وأساليب الضرائب ، والقوانين المتعلقة بالحقوق الخاصة بشواطىء الأنهار أو المتعلقة بالبناء والمجارى والصحة العامة — كلها تحدث فارقا ضخما للفلاحين وأصحاب المصانع ورجال المصارف والمضاربين . ولهذا يحرص المالك بطبيعة الحال على أن تنظر أداة الحزب قضيته بما يتفق مع مصلحته بقدر الإمكان ، وهو على استعداد لأداء الثمن أو الإمتناع عن النقد — بالرغم من عدم موافقته — اذا كان الأمر لا يعنيه شخصيا . وبذلك ينمو الشعور بأن أداة الحزب تحمى الملاك من عدوان الدولة . والحل البديل أن يضطر رجال الأعمال إلى الدخول مباشرة وباستمرار فى عمليــة السياسة وبذلك يضحون بالنشاط أو الجهد الذى يجب أن يكرسوه لاجتناء الربح .

من مثل هذا الموقف تتعهد الأداة عموما بانقاذ أغلبية رجال الأعمال . لاشك أنها تقع تحت تأثير عدد كبير من صنوف الضغط الأخرى من دينية ونقابية وتعليمية ؛ وعلى قادتها حين تواجههم مشكلة أن يحكموا إلى أى مدى يسيرون بدون أن يهددوا قبضتهم أو آمالهم فى السيطرة على الولاية . ولكن مع التسليم بامكان تحمل المخاطرة بسهولة فإن الأداة هى السمسار للعميل الذى يؤدى ثمنها ؛ وتنحصر المخاطرة فى سوء تقدير الرأى العام الذى يتعين عليها ارضاءه والذى يمكن أن يفلت من يدها لأسباب يعجز أكثر الرؤساء خبرة عن التنبؤ بها . وحسب الأسلوب المعتاد تعمل أداة الحزب فى جهة تسكون الآمال فيها واضحة لها كما يمكن

تحديد نطاق الإرضاء ، إلا أنه من المشكوك فيه أن هناك الآن معنى لفكرة الأسلوب المعتاد فى الحياة السياسية بالولايات . فقد كان آل سميث الذى خلقه تامانى ، الحاكم الذى أعطى نيويورك إدارة خلاقة ونظيفة لم تشهدها منذ سنوات . ولم تحظ رود أيلاند منذ الحرب الأهلية بحاكم يعادل الذى كان ينتمى إلى أسرة فاندربلت . ولم يكسب الدكتور ويلبور ولاية كونكتيكت للحزب الديموقراطى فحسب بل وأبدى كل الدهاء الذى يتصف به الساسة المحترفون إلى جانب روح إنسانية لا نعرفها فى المرشح الحزبى . وأسفر الكساد الاقتصادى عام ١٩٢٩ عن انتخاب رئيس ذى نزعة تجريبية واستعان بطائفة من المستشارين الأكاديميين ممن يعدهم المحترفون غير عمليين . ونشوب الحرب العالمية الثانية لم يضع فقط حدا للتقليد الذى يمنع انتخابه للمرة الثالثة بل جعل الفترة الرابعة تبدو الحماية الطبيعية للمصالح الأمريكية . ولما بدأ روزفلت الفترة الرابعة كان من المسموح الشك فيما إذا كانت أداة الحزب فى أية ولاية واثقة تماما من المستقبل .

ولإمكانية إثارة مثل هذا الشك أهمية فائقة . فمنذ رآسة تيودور روزفلت أخذ توازن القوى ينتقل بصورة واضحة من الولايات إلى الحكومة الاتحادية ، الأمر الذى زاد حدة فى عهـــد وودرو ولسون . وبالرغم من أن الأخير أعقبته سلبية كوليدج والمحاولة المؤسية من جانب هوفر للسير معصوب العينين صوب العاصفة الآخذة فى التجمع ، فإن انتخاب فرنكلين روزفلت غـــير تأثير العلاقات بين وشنطن والولايات . وكان التغيير من الاتساع بحيث أثار أسئلة أخرى لم يكن عند الساسة المحترفين جواب واضح عليها ، ذلك لأنه جعل وشنطن العنصر الرئيسى فى الشئون المالية الخاصة بالولايات الغنية بل راح البعض يتساءلون عما إذا كان الحاكم الصالح ذلك الذى عرف فن الحصول من وشنطن على أقصى حد من المعونة لتنفيذ التجارب التى يجريها فى الولايات . أما مستوى الأحزاب فقد اتضح أن أدواتها بالولايات أقل مقدرة على تنظيم الناخبين فى فترات التجربة والأزمة . ربما بدا أن أربعة أو خمسة ملايين من أصوات العمال بعيدة عن نفوذها . وكان الزنوج أقل استجابة لها وأشد نقداً لعاداتها من أى وقت سابق . وبعض جماعات الضغط وبخاصة

الضغط من جانب قوات الدفاع بدأت تضع معايير للعمل لم تكن فى نطاق خبرة الأحزاب . وعلاوة على ذلك راحت الحكومة الاتحادية تدس أنفهــا فى صميم سياسات الولايات بتدابير شتى مثل قانون علاقات العمل القومية وتشريع الأمن الاجتماعى والمعونة التى تقدمها لمشروعات الصحة والإسكان والتعليم ، وكلها تدابير أجبرت الأحزاب على التفكير فى إطار المفهوم الاتحادى لا مرة كل أربع سنوات بل فى كل يوم من أيام السنة ، ولم يكن ثمت من بديل إلا أن تصبح الأحزاب من توابع المليكين الاقتصاديين وهى موقنة فى مثل هذه الحالة من فقدان سلطانها على الجميع باستثناء جماعات المحترفين .

لم يكن هذا كل شىء . فالمعانى التى انطوت عليها المشروعات الكهربائيــة الكبرى التى تولتها الحكومة الاتحادية أثارت مشكلة هامة جدا ألا وهى ما إذا كانت الولايات البديل فى هذا المجال عن حكومة الولايات المتحدة . كان واضحاً أن هيئة وادى التنيسى مرحلة عظمى أولى فى حركة يوحى فيها سدا بولدر وكولى بإمكانيات جديدة وحيوية ، إذ قد تنشأ فى الجيل القادم هيئة لوادى ميسورى . فما الذى تدل عليه هذه القدمة ؟ أليس من المحتمل على الأقل أن يشهد ذلك الجيل تنظيما آخر للوحدات التى يتألف فيها الاتحاد ؟ من المؤكد أن المشكلات التى تواجه الولايات المتحدة لا يمكن أن تتفق بسهولة أو بدقة مع هذين النوعين الأساسيين وهما الحكومة الاتحادية وحكومات الولايات ، لا يقف الأمر عند حد تزايد الضرورة للتعاون بين هذين النوعين المتنافسين من القوة ، بل هناك مجالات عمل تتطلب إشرافاً يقل عن سلطة الحكومة الاتحادية ويقل عن سلطة الولاية الواحدة . إن المشكلة لا تنحصر فى تقديم الحكومة الاتحادية للمنح والمساعدات وإن كان مستقبل هـــذا النظام عظيما إذ أريد أن يكون فى جميع الولايات المتحدة حد أدنى فى أشياء من قبيل الإسكان والصحة والتعليم والأمن الاجتماعى .

ووراء حدود الولايات تكمن حقيقة الإقليم ويتضح باطراد أن المساحة الجغرافية يجب أن تتناسب مع الوظيفة وهو القياس الذى تقصر عنه الولايات بوصفها وحدات

إدارية . إن التعارض التاريخى بين حقوق الولاية وتفوق الحكومة الاتحادية يفقد واقعيته كلية لا بسبب التغير التكنولوجى وحده فحسب ، بل وعلى ضوء الحاجة إلى إشباع الحاجات والفرص المشتركة بجهود مشترك . وبمجرد النظر إلى المشكلات على هذا النحو فإن حلها بصورة مرضية يقف إما عند الحدود التاريخية للولايات وإما أن يتوافر للساسة الحكمة بحيث يجعلون فى الإمكان الحل المشترك للمشكلات المشتركة ومن المهم أن نميز بين فكرة الإقليمية على أساس هذه الخطوط وبين النظرية الشهيرة عن التعصب الإقليمى والتى ترتبط باسم ف.ج. تيرنر . هذا التعصب بطبيعته يقوم على عوامل انقسام تميل دائما إلى الصدام ، والإقليمية بطبيعتها هى الأخرى تسعى إلى توحيد مصالح فى مساحة عجزت عن تحقيق الحاجات الشرعية المشتركة . ويعبر التعصب عن نفسه كما أبان الأستاذ تيرنر فى السياسة والتشريع حين لا يبدى أعضاء الكونجرس مثلا إهتماما بأحزابهم بل يؤكدون مصلحة هذه النزعة . فى الصراع الناشىء من التعصب الإقليمى سواء بشأن التعريفة الجمركية أو العملة يرى المرء بوضوح كبير تلك المتناقضات فى الفدرالية الأمريكية مما يحول دون استخدامها الكامل لمواردها الطبيعية وا كمال وطنيتها . فالانقسام عن طريق الولايات حيث تكون حدود الأخيرة تقليدية فقط أو اصطناعية فى طابعها يجعل من أمريكا قارة شاسعة ماتزال تسعى وراء الوسائل التى تحقق اللامركزية الفعالة .

إن المشكلة التى أمام المتخصصين فى الجغرافيا البشرية أن يقرروا الشكل الأنسب من الإقليمية للحاجات الأمريكية . إن الاعتراف بأن الإقليمية ضرورة إجتماعية معناه أن التقسيم الحالى للبلاد وعلى أساس الولايات تترتب عليه على الأقل نتيجتان سيئتان إحداهما اقتصادية والأخرى سياسية بالرغم من تدخلهما . وتتمثل الأولى فى العجز عن تحقيق حياة إقتصادية متوازنة بسبب الاخفاق فى الاستغلال الكامل للموارد ، الأمر الذى نشهده فى الاسراف فى استهلاك الخشب والبترول وفى العداء بين المدينة والريف . وتبدو النتيجة الثانية فى رفض معاملة الحاجات المتساوية والمتجانسة بطريقة متساوية ومتجانسة ويعزى هذا إلى حد كبير جدا إلى انتفاء العلاقة بين صفة الحاجات وطريقة الاستجابة إليها . والنتيجة المحتومة أن تكون للنظم السياسية بالولاية مصلحة منفصلة

تماما عن مصلحة المواطنين . هذا الأمر يظهر فى كل مجالات الحياة ، فى الموازنة بين معدل وفيات الأطفال فى كل من سان أنطونيو (تكساس) وبوسطن ، وفى القانون الخاص بالعلاقة بين المدين والدائن .ففى ولاية تنتج القمح تحدد أجور النقل بالسكك الحديدية بحيث لا تثبط همة الفلاح ، وكلما عظمت قوة السكك الحديدية فى سياسة الولاية زاد الاحتمال بأن يكون الفلاح تحت رحمة إتجاهها نحو الاعتدال أو المغالاة . والحق يسود الشعور بأن كل مصلحة كبيرة سوف ترغم الولاية على السير فى الطريق الذى يتفق مع مطالبها وعاداتها .ولما كانت شركة آنا كوندا للنحاس تلعب دوراً كبيراً فى حياة مونتانا يتعين على أساتذة الاقتصاد فى الجامعة أن يعالجوا مسائل الضرائب على صناعة التعدين بمنتهى اللباقة . وقد أظهر المستر هنرى س . ولاس منذ جيل مضى تقريبا أن مدير إحدى شركات السكك الحديدية لم يشجع تقدم الصناعة غربى المسيسبى لأنه « من مصلحة الشركة أن تظل المزرعة بعيدة عن المصنع بقدر الامكان حتى تتمكن من نقل منتجاتها أطول مسافة ممكنة » (١) .

ليست هناك علاقة طبيعية بين مساحة الولاية الأمريكية وأدائها السليم لوظائفها ولهذا فالأحزاب مضطرة إلى تقدير المصالح التى تؤثر فى حياة الولاية وإلى تعديل سياساتها حسب أهمية تلك المصالح . وكل مصلحة مضطرة بدورها إذا استطاعت إلى بسط نفوذها على سياسات الأحزاب خشية استخدام قوة الدولة بما يسىء إليها ؛ وإن موقف الحزب الديموقراطى بالجنوب من مشكلات اللون وتشغيل الأطفال يوضح ببساطة العلاقة بين المصلحة والقوة السياسية كما يوضح هذا الأمر تفاعل نفوذ كل من الولاية والحكومة الاتحادية فى ولايات شمالى غرب الباسفيك بصدد مسائل كتوفير القوة الكهربائية ، فالذى يملك الأخيرة يتحكم إلى حد كبير فى مستقبل هذه المنطقة الاقتصادى . فاذا كانت الملكية اجتماعية واستطاعت توفير الكهرباء بسعر

---

(١) Henry C. Wallace, "The Farmer and the Railroads,". Proceedings of the American Academy of Political and Social Science (1922), Vol. X, p. 65.

رخيص فمن المؤكد أن يكون رد الفعل عميقا فى مناطق أخرى من الولايات المتحدة. ووضح ذلك فى الصراع بين هيئة وادى التنيسى وشركة الكومنولث والجنوب حين كان يديرها المستر وندل ويلكى . وكان المعنى الحقيقى لذلك الصراع إدراك الطرفين أن الملكية الاجتماعية للقوة الكهربائية خطت خطوة واسعة فى الطريق إلى الدولة الإيجابية. وباتخاذ تلك الخطوة كانت الهيئة فى الحقيقة تضع أسس تنظيم جديد يتوسط الولاية ووشنطن وعلى نجاحها يتوقف قدر بالغ من مستقبل الصناعات الحيوية للرفاهية العامة لأن نجاح مثل هذه التنظيمات يؤدى إلى الشك فى الأساس الذى يقوم عليه التنظيم الحزبى فى أمريكا ، ومعناه الشك فى مبدأ الفردية ، والاحتمال بأن تصبح هيئة وادى التنيسى حلقة أولى فى سلسلة من هيئات مماثلة . ومغزى هذا التطور فى مجال القوة الكهربائية أنه يوحى بالأمل فى تطورات مشابهة فى ميادين أخرى لها أهمية متساوية، مثل النقل على الأقل .

فى ظل هذه الظروف ليس من السهل اعتبار الولاية الوحدة الإدارية المناسبة فيما يلى الحكومة الاتحادية . لاشك أن الدستور (The Compact Clause) ، كما أثبت فرانكفورتر ولانديس يتيح الإمكانيات اللازمة لتخطى حدود الولاية، ولكن النتائج تدل على أن الأمر يتطلب وقتا طويلا للغاية مما لا يتوافر للولايات المتحدة بالرغم من كل مواردها ، بل يتوافر الدليل أن عليها التوفيق بين المساحة والوظيفة إذا شاءت تجنب المركزية الشديدة ومعالجة مشكلاتها الاجتماعية والاقتصادية بصورة فعالة . فمهما كانت عظمة تقاليد ولايات مثل فرجينيا وبنسلفانيا فمن المشكوك فيه أن تتمكن من مواجهة المشكلات وهى واثقة من حلها ، ولو أنها حاولت الاعتماد على سلطتها فمن المحتمل أن تضطر إلى طلب المساعدة من الحكومة الاتحادية والمساعدة معناها — عاجلا أو آجلا — رقابة الأخيرة إذ تود وشنطن ويحق أن تعرف أن المنح تنفق بحكمة وكفاية . وتلك هى الحقيقة التى جعلت القانونى الانجليزى البارع دايسى يصر منذ قرن مضى على أن النظام الاتحادى ليس سوى مرحلة فى الطريق إلى الوحدة . ولكن المراقبين الذين يعتبرون « ولايات متحدة » تسودها المركزية ويمكن أن تتوافر لها الكفاية والخبرة عددهم قليل . إن النطاق أوسع من أن يجعل

الوحدة الإدارية فى حيز الإمكان نظراً لتفاوت الأجواء والعادات والموارد . فبمجرد أن وصل الأمريكيون إلى مناطق الحدود أصبح الأساس التاريخى للفدرالية من الوجهة الإدارية عتيقا الأمر الذى تؤيده خبرة كندا واستراليا . إن الأمريكى الذى وصل إلى الحدود يدخل عالما جديدا ويحتاج الى أن يجعل عملية ادارتها ملائمة لمطالب لم تكن موضع التفكير فى ربيع وصيف عام ١٧٨٧ ، بفيلا دلفيا . سوف يكون بغير شك من الصعب تحقيق المواءمة الضرورية إلا أنه كلما تأجلت صار تأثيرها أشد عنفا حين يحل الوقت للاعتراف بها .

ويلى الولاية الريف والمدينة ويصح القول بأنهما من أبرز مظاهر الإخفاق فى السياسة الأمريكية ، كما أن العداء بينهما من المصادر الأساسية للفشل فى التغلب على النزعة المحلية التى تميز حتى المدن الكبرى بل والعاصمة وشنطن ذاتها . ولا ريب أن هذا راجع إلى أن التقليد الأمريكى ما يزال يعتبر الفلاح وحاجاته أساسياً لتحقيق المثل الأعلى الأمريكى ، وإلى استمرار الشك الذى ساور چيفرسون من ناحية إنتشار المدن، ذلك الشك الذى ردده تقرير لجنة التجارة بين الولايات سنة ١٨٨٨ ولذلك كان من الطبيعى أن تفترض تلك الهيئة أن المدن الكبرى تولد شروراً إجتماعية وسياسية كبيرة . وبعد ذلك بربع قرن لم تكن «الحرية الجديدة» التى نادى بها ولسن سوى دفاعا عن حقوق « الرجل الصغير » ضد الشركات العملاقة التى أصبحت مظهر الحياة الإقتصادية الأكبر . وحتى فى عشية الحرب العالمية الثانية نجد فقيها كالقاضى برانديز يتزعم مدرسة فكرية تبشر « باللعنة التى تصحب كبر الحجم » وذلك دون النظرة العميقة التاريخية فى المصادر التى نبعت منها تلك الفلسفة .

ذلك أن الحياة الريفية ، أكثر من أى عامل آخر ، هى التى حددت طابع النظم المحلية . فبمجرد الافتراض بأن الفلاح يتصف بالبساطة وخشية الله والفضيلة يسهل إفتراض الشر الناجم من قيام المدن وهذا تترتب عليه نتيجة مزدوجة وهى أولا التسليم بما دعاه لنكولن ستيفن « عار المدن » ، وثانيا أن تمثيل الريف بالجمعية التشريعية للولاية يفوق نسبته الحقيقية . لا شك أن فى إمكان الفلاح الأمريكى الادعاء بأنه كان موضع الاستغلال المخجل من جانب نظم كالتعريفة الجمركية ومصالح كالبنوك والسكك الحديدية وموردى القوة الكهربائية . ولا شك كذلك أن تقاليد أمريكا وأفكارها قبل الثورة ظلت فى معظم جوانب الحياة الريفية زمنا أطول منها بالمدن التى استوطنها بطبيعة الحال المهاجرون الجدد . ويميل الريف إلى البروتستانتية بل والمذهب الأساسى، وينفر من البدع ، ولا يهتم بمعظم التجارب الاجتماعية ، ويرى ساكن المدينة الكبيرة

قريباً من الإثم . ولقد كان المسئول إلى حد كبير عن تجربة « تحريم الخمر » الكبرى وإن تعين ألا نغفل أن معظم صانعى الجعة من أصل ألمانى وان كبار رجال الأعمال يحتمل أن اعتبروا التحريم داعيا إلى إزدياد كفاية العمال . ولا أظن من المبالغة القول إن التعصب القومى يكمن فى الريف وأنه يضفى أهمية أكبر على التقاليد التاريخية كالتقليد الذى يجعل إحترام المرء معادلا لتردده المنتظم على الكنيسة. وإن لمن الصعب أن نقرر إلى أى حد يعتبر إزدياد التمثيل السياسى للريف تعبيراً عن شهوة القوة وأن ذلك ذلك وليد الإعتقاد بأن تصحيح عدم التناسب هذا يكسب المدينة الآثمة حقوقا سياسية فائقة الحد .

المهم فى تقدير الحكم المحلى أن ندرك أن الريف لم تنصهر فيه العناصر البشرية تماما ، وغلبة البروتستانتية لا تجعله معادياً للوافدين من البلدان الكاثوليكية فحسب بل ولليهود كذلك ، وهذا يفسر سرعة سيطرة أشد أشكال المسيحية الإنجيلية فاعلية. ولكن الفلاح خسر قضيته واحصائيات السكان جميعاً فى غير صالحه . والحقيقة أن عظم تمثيل الريف السياسى مما يمكن « سيد » المدينة من الاحتفاظ بسلطانه ، إذ كثيراً ما يفضل الفلاح العاجز عن سداد الدين وفك الرهن أن يتفاهم مع شركة ضخمة أو رئيس أداة سياسية بالمدينة ، فضلا عن شعوره بأن الحماس الذى يؤكد به أهمية الأولوية السياسية موضع إحتقار الجار الذى لا يفوقه إيراداً ولكنه يستطيع التوجه إلى المدينة فى سيارة بويك بدلا من سيارة فورد .

لهذا أرانى مقتنعاً بأن قدرا غير يسير من أسباب انتشار الفساد بالمدن الأمريكية يرتد إلى تكوين الجمعيات التشريعية ، إلا أنه يتعين أن نأخذ فى الاعتبار كذلك المهاجرين الذين يجدون السيد وأداته أكثر عونا ومودة من الشركة التى تستخدمهم أو من جيرانهم ، فالسيد يقيم له حفلا أو يرتب له رحلة ، أو يعاونه فى الضيق أو فى استخراج أوراق الإقامة أو يجد عملا على الآلة الكاتبة لا بنته . ليس فى وسع أحد أن ينسى المستر مارتن « قيصر » الحى الثامن فى بوسطن والذى قال ، أظن أنه يجب أن يكون في كل حي من يأتي إليه شخص — بغض النظر عما فعل — طلبا

للمساعدة . أقول المساعدة لا القانون أو العدالة وإنما المساعدة[١] » . والسيد لا يقدم المساعدة مجانا ولـكنه يتخذها سبيلا لإفساد الناس والنظم ؛ فيسمم بها الهيئة التشريعية والإدارة والمحاكم ، ويحمى كل أنواع الامتيازات الخاصة والمصالح الثابتة، ويجتذب الجميع إلى شباكه سواء أكان الفرد بائعا متجولا فقيراً يطلب رخصة أو شركة نقل ترغب فى رفع الآجور . وليس من المبالغة القول بأن البوليس فى أية مدينة كبرى ليس فوق مستوى الشبهات ، أو أن المؤسسات الـكبرى لم تستفد من حين لآخر بهذه الأداة حتى تحصل عن طريق الغش والعنف على مالا تقدر الوصول إليه بطريق الإقناع المباشر بالحجة .

ونظام الأداة السياسية ليس من نتاج المدينة وحدها وإن كانت أشد وضوحا فيها إذ المقاطعة الريفية أداتها . وإذا كانت الأخيرة أقل وضوحاً لأنها أقل تركزاً والأسلاب التى تحت تصرفها أقل شأناً ، فمن الخطأ الـكبير أن نفترض أن رئيسها يدير أداة دون مثيلتها بالمدن فى حقيقتها وفعاليتها . بل بالعـكس فإن ما يجعله أقوى من زميله بالمدينة أو لا يقـــل عنه سطوة تضاءل قيمة الأنباء بالريف ، وضعف الإقبال على الصحف ، وكون أهله أقل قدرة على التجمع والتحدث فى المشـكلات . وقد يكون هذا السيد مصرفيا بمدينة ريفية صغيرة ، أو وكيل نيابة ؛ أو مالك أرض أو محاميا . وقد تشغل السياسة فى حياته حيزاً أصغر منه فى حالة سيد المدينة ، بل وربما يجمع إلى مهمة الإفساد حماساً صادقا وعميقاً لبناء الطرق ، وقد يكون هناك أسلوب « التصويت الطويل » والذى معناه فى حاله مدينة مثل شيكاغو أن على الناخب المسكين أن يقرر من يريد انتخابهم للوظائف المختلفة والتى قد يبلغ عددها مائة وثمانية وسبعين وظيفة . وبالرغم من نظام « الجدارة » فى التعيين فما زال تحت يد السيد وظائف تجتذب تأييد الأنصار . ففى مدينة نيوريوك مثلا ٣٠٠٠٠ وظيفة من أحسن وظائف الحـكومة تحت تصرف الأداة التى تفوز . ولا يقتصر الأمر على المدن فمقاطعة آدامز بولاية أهيو تعادل أية مدينة أخرى من هذه الناحية .

إن النطاق الذى تؤدى فيه تلك الأدوات وظائفها يسبب حيرة الاجنبى ، وسبب اتساعه الاعتقاد البيورتيانى فى إمكانية إصلاح الناس بطريق التشريع . وبمجرد أن

---

(١) Steffens, opt. cit., p. 618.

يكون هناك قانون يمس موضوعا يرغب الناس فى التهرب منه فمن الواضح أنه على استعداد لأداء الثمن . وبذلك يصبح فى يد الأداة الحزبية التى تتولى الحكم ميزة تتاجر بها . ولقد أوضح المستر ريموند فوسدك (١) أن تحت تصرفه البوليس والأخير لم يمكنه من الصعود إلى قمة السلطان حيث يستطيع البقاء إلى أن تقع فضيحة تثير الناخبين .

وعلاوة على ذلك هناك الفرصة التى يطلق عليها بمهارة « الاستغلال النزيه » ، فتستطيع الأداة شراء الممتلكات أملا فى إرتفاع الثمن ، وأن تعاقب خصومها بالمغالاة فيه أو بالإصرار على أن الناقد الذى يملك مبنى خالف تعليمات قانون البناء . ولقد عرفت بنفس صاحب بيت فى نيويورك شاهد من نافذته جريمة قتل ورفض الإبلاغ عنها اذ سبق أن أدلى بمعلومات من هذا القبيل فطلبت منه مصلحة المبانى احداث تغييرات فى المبنى مما عرضه للإفلاس . ولابد أن هناك أدوات قلائل مهمة فى الولايات المتحدة ، بالمدن أو الريف ، لم تكن لها مصالح ثابتة بين عملائها مثل شركة سكة حديدية أو شركة تأمين أو شركة بترول .

---

(١) Raymond B. Fosdick : American Police Systems (New York : Century, 1920), pp. 115—16.

عند هذا الحد من التاريخ الأمريكي يمكن القول بأن أنواع العلاج لمثل هـذا الشر لم تمس سوى ظاهر النظام . لقد قضى ا ل . جودكن زمنا طويلا يدافع عن نظام التعيين فى الوظائف العامة على أساس امتحانات الجدارة ، ولعله المؤثر الأساسى الذى سعى إلى إقناع اللورد برايس بأن هذا النظام سوف يحقق تلك الغاية . إلا أن خطأهما أنهما افترضا أن المواطن الغنى يحتمل أن يعنيه الحكم الصالح بينما الواقع أن أفراد الطبقة الغنية بذلوا كل جهدهم للإبقاء على نظام الأداة الحزبية كى تحمى امتيازاتهم من عدوان الفقراء . ولو تأمل اللورد برايس عادات الأرستقراطية البريطانية قبل إدخال نظام المسابقة بمقتضى « الأمر فى المجلس » الصادر سنة ١٨٧٠ فى عهد جلادستون لرأى أن معالجته للموضوع غاية فى البساطة ، ذلك أنه لم يفهم أبدا تلك التفرقة الرائعة كما أوضحها وليم آلن سميث بين « الرؤساء » والمصالح الثابتة التى استخدمتهم وان حرصت ألا تتعدى العلاقات بين الطرفين الناحية السياسية . إن المليونير الذى يبغى عدم التدخل فى شئونه على استعداد لأداء الثمن إلى الحزب الذى يفوز فى الانتخابات ذلك أن رجل الأعمال وفقا لمبدأ لنكولن ستيفن الشهير(١) يدفع ثمن الحماية ويدع تنظيمها لأمثال پلات ، لأنه يكرس وقته لأعماله وكسب المال . ومهما كانت السمعة الطيبة التى يحظى بها خطيب ومحام معروف جدا مثل شونسى ديبيوى فانه لا يختلف عن پلات إلا فى قدر الجزاء الذى يحصل عليه من المصالح الثابتة وأغلبها فى حالته شركات تأمين يحميها من أى هجوم فى جمعية نيويورك التشريعية . والشىء الذى تغير فى نظام الأداة منذ عصر الحرب الأهلية ليس النظام الذى يمكن قادتها من استقضاء ثمن الوشاية والتشهير وانما هو المصادر المختلفة التى يحصلون منها على إيرادهم.

بالطبع بذلت جهود متصلة لاصلاح ذلك النظام ، فأسفر تطبيق نظام الحكم

---

(١) Lincoln Steffens, The Shame of the Cities (New York : Mc. Clure, Phillips, 1904).

المباشر عن بعض الخير ، وتحققت منفعة أكبر نتيجة تبسيط الأجهزة العتيقة المعقدة . وكان لمشروع لجنة المدينة أو مشروع تعيين مدير للمدينة نتائج طيبة وان لم تصل إلى المأمول . ذلك أن مثل هذا المدير — وقد يكون غريبا تماما عن المدينة — خبير فى فن الادارة وفيه حماس المحترف ومستقبله رهن إلى حد كبير بكفايته . إلا أنه من الصعب أن نشعر أن هذه الوسائل التى دعا إليها المصلحون مست جوهر الموضوع لأن المشكلة الحقيقية تتعلق باثارة مصلحة المواطن ومعرفته وهما الصفتان اللتان تخشاهما الأداة ، كما تتعلق باقناع المصالح الثابتة سواء تمثلت فى شخص مثل وليم هويتنى أو شركة مثل شركة بيت لحم للصلب بعدم السعى إلى الثراء السريع وهو ما توفره لها الأداة بسعر متفق عليه .

ولا جدوى من الإدعاء بأن من السهل إدراك هذه الغايات إذ ما يزال الكثيرون من أهل أمريكا يعتبرون السياسة أقصر طريق إلى الإثراء وينظرون إلى السياسى على أنه سمسار يتجر فى أسهم هذه البورصة الخاصة . وليس هؤلاء من الفقراء أو ذوى النشأة المتواضعة بل أن فيهم بعض الأسماء البارزة فى حياة الأعمال الأمريكية على ما أظهرت لجنة Pujs سنة ١٩١٢ واللجنة السوداء بعد ذلك بعشرين عاما . حين كنت أولى التدريس فى جامعة هارفارد منذ خمسة وعشرين عاما لم تكن ثمت أسماء تحظى بالاحترام أكثر من هنرى لى هينجنسن راعى أوركسترا بوسطن السيمفونى الشهير والذى كان ذا ولع شديد بالفنون ؛ ولكنه لم يتردد فى أن يصرح « بأن الشعب وتشريعنا يمكن أن يطمئنا فى أمان إلى رجال وول ستريت الحاكمين »[(١)] وإن يكن واضحا أنه لم يجر أبدا بحث فى عادات « رجال وول ستريت الحاكمين » دون أن يخرجوا منه وقد تلطخت سمعتهم . لقد كانوا يشترون القضاء والهيئات التشريعية مثل الصور القديمة والمخطوطات ويتهربون من ضريبة الدخل بنفس طريقتهم فى التهرب — إن استطاعوا — من الرسوم الجمركية لدى عودتهم من أوربا . فاذا كان القوم

---

(١) Bliss Perry, Life and Letters of Henry Lee Higginson (Boston : Atlantic Monthly Press, 1921) p. 441.

الذين يعدون أنفسهم حراس الثقافة الأمريكية يتصرفون على هذا النحو فلماذا ينبغى أن تتوقع مستويات مخالفة من السادة السياسيين فى المناصب العليا .

ولا تقف مشكلة فساد الإدارة المحلية عند هذا الحد، لأنه لو توافر لها رجال لا يخضعون للافساد فهناك الخطر من أن يدفعوا غاليا ثمن نزاهتهم كما حدث للمستر Altgeld ، كما لم يظهر حتى الآن ما يثبت أن مشروعى الإصلاح سالفى الذكر كانا أكثر من مسكن للألم . فلجنة المدينة لا تعدو كونها نسخة جديدة من لجنة التجارة المحلية، كما أن بعض من عينوا للادارة ممن وافق عليهم أغنياء المنطقة .

هنا يكمن مفتاح مشكلة الحكم المحلى فى أمريكا . فإذا كان الأثرياء على استعداد لاستخدام ثرواتهم فى شراء الإعفاءات أو الامتيازات فلا شىء يحول دون خلق الأداة التى تبيعها لهم . وبغض النظر عن حالات استثنائية نادرة فقد كانوا على استعداد لذلك . إن الحكم المحلى فى أمريكا يمكن أن ينتقل من الفساد إلى النزاهة بمجرد أن يبدى الأغنياء استعدادهم للتنازل عن المزايا ، وبعضها ضخم ، التى كسبوها بفضل وجود الفساد ، وحتى الآن ليس من الواضح أنهم بلغوا المرحلة الفكرية التى تلاءم وجود هذا الاستعداد ، بل على العكس نلقاهم أميل إلى النظر إلى قيام أن حكومة نزيهة ذات كفاية ولا تفرق بين المواطنين يفتح الباب أمام المبادىء الراديكالية .

والحق ، لقد مهد عهد فرنكلين روزفلت الطريق لتغييرات فى الأنظمة المحلية حين أدخل فى نطاق التنظيم الاتحادى مسائل كانت من قبل من صميم اختصاص الإدارة المحلية ، قد يظل « السيد » الكريم فى شيكاغو وجرسى سيتى ولكنه دخل السجن فى كنساس سيتى ، كما عجز تامانى لمدة اثنى عشر عاما عن تحطيم قبضة لاجوارديا عمدة نيويورك ، وباغتيال هيوى لونج زالت شخصية كان فى وسعها أن تنافس هتلر. من الممكن وإن تعذر التأكيد ، ان تصبح معظمها مؤسسات مثل هيئة وادى التنيسى وإجراءات مثل قانون الأمن الاجتماعى بداية عهد جديد فى السياسة المحلية بأمريكا، إذ لا يقل الاحتمال أن الحرب العالمية الثانية بالقياس إلى الأولى سوف توجد حالة من التعب الشديد الواسع الانتشار . إن الرؤساء الذين تأتى بهم الأزمات يخلفهم ، كما تعلم الأمريكيون مما كلفهم الكثير ، رجال فى وشنطن وغيرها ممن يحملون برنامجهم.

أساسه « السير على الأساليب العادية » وفى هذا الابتعاد عن الألم الناجم من التفكير يكمن السبب الحقيقى للفساد . إن مما له مغزى أن معظم الصحف كانت معادية للتجربة العظمى فى النطاقين الاتحادى والمحلى فى تعليم البالغين وهو الأمر الذى قد يعد أعظم ما قدم المستر روزفلت إلى الولايات المتحدة .

إن أمل الجيل القادم فى هذا الميدان يكمن فى إمكانية أن يصبح « التحرر من العوز » جزءا حيا من النظام الأمريكى . ويضاف إلى ذلك الإمكانية فى أن يتقدم النشاط النقابى السياسى إلى الانتخابات المحلية بنفس القوة التى سار بها فى انتخابات رآسة الجمهورية فى عام ١٩٤٤ ، فإذا أرادت النقابات أن تقوم بمثل هـــذا الدور فيجب أن تكون على يقين من أن المرشحين فى الولاية والمدينة والريف ذوو أهمية بالنسبة إليها فى مهام الحكم المحلى كما سبق لها أن أدركت أهميـــة المستر روزفلت سنة ١٩٤٤ ، ولكن النقابات لن تكون متأكدة من هذا إلا إذا لعبت دورها كاملا فى اختيار المرشحين الذين سوف تؤيدهم ، ولن يتحقق لها ذلك إلا إذا اشتركت فى اختيار المرشحين فعلا . ان الطريقة الوحيدة لمنع العودة الشاملة إلى حكم « السيد » والأداة تكون بجعل مسائل السياسة المحلية حقيقة وذات أهمية كما فعل المستر روزفلت بالنسبة إلى مسائل السياسة القومية (وربما أفادته فى ذلك المانيا واليابان) . إن ما تحتاجه أمريكا فى النطاق المحلى هو القدرة على الاختيار بين السياسات المحافظة والسياسات الراديكالية ، وهو الأمر الذى ندر أن وجد فيها ، ولكن الطائفية المستهترة هى الجو الذى من المؤكد أن تزدهر فيه الأداة ، وبمجرد ازدهارها فلا مفر من أن تجد السلع التى تريد بيعها إلى أولئك الذين فى وسعهم أداء ثمنها . ولم يكن لذلك فى العصر الذى كان فيه الأمريكيون منهمكين فى غزو القارة الواسعة الأرجاء سوى اهمية أقل منها اليوم حيث تحدد أمريكا سير الحياة الدولية ، ولهذا السبب حل العصر الذى أصبحت فيه الأنظمة الإيجابية ذات ضرورة ماسة فى المسائل ذات الأهمية المحلية والاتحادية . إن الأنظمة السلبية فى النصف الثانى من القرن العشرين سوف تحطم قوة الولايات المتحدة على أن تلعب فى السياسة العالمية ذلك الدور الذى تتطلبه قوتها وكرامتها ،

الفصل الخامس

مشروعات العمل الأمريكية

— ١ —

ليس من المبالغة القول بأن ما ينعم به رجل الأعمال فى الولايات المتحدةمن قوة ومركز لامثيل له فى أية حضارة سابقة . إن أسماء مثل آستور وڤاندربلت وجولد وفورد ، وكبار رجال التجارة مثل ستيوارت ورجال المصارف مثل مورجان الأول والثانى ، والشخصيات الرئيسية فى عالم الطرق الحديدية والمالية مثل هل وهاريمان ، وعمالقة صناعة الصلب مثل كار نيجى وفريك وشواب ، وملوك البترول مثل آل روكفلر وآل سنكلير،وأصحاب الملايين من المشتغلين بصناعة الخشب مثل ويرهاوزر — هؤلاء وغيرهم نعموا بسلطان يصعب ألا نصفه بأنه دكتاتورى فى طبيعته . ومن المؤكد أنه لم ينافسهم فى القوة فى العصور الحديثة سوى الطغاة السياسيون أمثال نابليون وهتلر أو كبار أعضاء الأرستقراطية الذين يمسكون بزمام الوظائف الرئيسية فى الدولة .

وأصول هذا الجمع بين القوة والمركز نلقاها فى أعماق ظروف التاريخ الأمريكى الكلية . فالواضح أن القوة وليدة للموارد الهائلة تحت تصرف الأمريكيين ؛ وسواء كانت من الفحم أو الصلب أو الخشب أو للماشية فقدتوافرت فيها فرص لاعهدلأوربا وآسيا بها . لم تكن المشكلة الهامة حقيقة القوة طالما هناك الموارد للاستغلال ولكنها عبارة عن العوامل التى أدت إلى المركز غير العادى الذى يشغله رجل الأعمال الأمريكى والدرجة المتزايدة التى يحدد بها كل أوجه الحياة الأمريكية .

لاريب أن أساس هذا المركز يرجع من جهة إلى الإنجيل البيورتيانى عن العمل والذى سوّى بين النجاح والرضاء الإلهى، كما يرتد من جهة أخرى الى مجردالضرورة القاضية بإتمام غزو القارة وكانت الأسلاب من نصيب الغزاة بوفرة . وفضلا عن ذلك

حطمت حرب الاستقلال إلى حد كبير الفكرة الإقطاعية وجعلت مادعاه ڤبلن «فكرة الاتساع الظاهر» أمراً مختلفا من حيث النوع عن أى شىء عرفته بريطانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو روسيا القيصرية. كذلك يجب ألا ننسى أن الوفود الكبيرة من المهاجرين قبل عام ١٩١٤ غادرت أوربا أملا فى تحسين حظوظها وتحدوها الرغبة الشديدة فى العمل بحيوية مدهشة لتحقيق تلك الغاية . كان المهاجرون من أروع العناصر الأوربية التى أحست أن العالم القديم ينكر عليها ما اعتبرته حقا لها. وكان ما تسلحوا به من النشاط والعزم والإيمان رأس المال الذى شقوا بهم طريقهم ، وهى صفات أنماها وزاد من حدتها الجهد الذى بذلوه فى خلق حضارة من المناطق البرية التى اتجهوا إليها .

ومعظم المشكلات التى واجهتها الولايات المتحدة تطلبت مقدرة عملية ، مثل مقاومة الهنود وتطهير الغابات ومد الطرق وبناء البيوت وحصد المحاصيل. وإذا كانت أمريكا فى أوائل حياتها قد أضفت مركزاً ساميا على رجل الدين والفقية بل وربما إلى عهد أندروجاكسون على رجل السياسة فمن السهل أن نلاحظ أن رجل الأعمال بدأ يتفوق على هؤلاء منذ البداية تقريبا، وزاد ذلك التفوق بعد عام ١٧٧٦ ، ثم صار أشد وضوحا بعد سنة ١٨٩٥ . وبعد سنة ١٧٧٦ أصبحت للحرف والمهن أهمية مكتسبة مما عرف باسم الحق الإلهى لرجل الأعمال. لقد كان رجل الدين الناجح من استطاع أن يجتذب المليونير إلى الكنيسة ، وقيس نجاح رئيس الجامعة بقدرته على اقناع الأثرياء بمنح الهبات إلى الجامعة ، كما كان تقدير كبار الباحثين مثل المؤرخ فرنسيس باركمان دون ما حظى به عظماء المخترعين من طراز إديسون . وحتى الفلاسفة العظام مثل شارل بيرس أو وليم چيمس كانوا يبحثون ، ولو بطريقة لاشعورية ، عن فلسفة لما وراء الطبيعة تبرر دعاوى رجل الأعمال ؛ وساد الظن بأن الثقافة التى تتكون منها حضارة عظيمة تنبعث بصورة خفية كأنها إحـــدى المنتجات الثانوية للنجاح المادى . إن من المشكوك فيه وجود شعب آخر وجه مثل هذا النشاط المستمر الحماسى إلى الإيمان بأن الحقيقة والسعادة يولدهما تحقيق الرخاء المادى وأن الغنى رجل الله المختار .

وأكثر من هذا قد نشك فى وجود مجتمع سابق يمثل هذا التأكيد عن التزامات المواطن فى شق طريقه إلى النجاح، فإذا استثنينا بعض حالات بطبيعة الحال فإن رجل

الأعمال يؤمن بأن الفشل وليد أخطاء الفرد . وليس من ديموقراطية أخرى كانت أقل اهتماما بالفشل الذى يحيق بها ، أو حسب المعنى الاقتصادى كافأت الناجحين بمثل هذا السخاء أو آمنت أن النجاح فى متناول يد المرء . وبلغ من عمق الاعتقاد أنه لم يثبت بعد أن فى الإمكان خلق حزب دائم يمثل الطبقة العاملة لأن الأمريكى العادى لا يشك حقيقة فى إنتمائه إلى الطبقة الوسطى أوأن أطفاله على الأقل سوف يكونون كذلك . وإدراكه إذا كان من البيض أن مستوى معيشته لا مثيل له فى غير نيوزيلند يغريه على الاستنتاج بأن نجاحه راجع إلى الملكية الخاصة وتحكم الفرد فيما يملك وأن الغرض من الدولة الدفاع عن الطريقة الأمريكية فى الحياة ضد العدوان الداخلى أو الخارجى . قد تستخدم قوة الدولة لتعليم أطفال الشعب ، وتقرير مستويات العمل فى مثل مجالات الغذاء أو العقار أو السكك الحديدية أو تنظيف الشوارع ، ولكن يحس معظم الأمريكيين بشدة الضيق إذا طولبوا بتأييد الدولة الإيجابية ، لأنهم يميلون إلى اعتبارها وسيلة لإضعاف مسئوليات الفرد وإلى أن ما تعمله أية مؤسسة حكومية لابد وأن يكون أقل جودة مما لو قام به الأفراد بأنفسهم أو على صورة شركات خاصة. إن المفتاح الأساسى لفهم مشروع العمل الأمريكى نلقاه فى الحاجة إلى الإدراك أن أمريكا ماتزال تعد الدولة عدوا حالما تتجاوز ميدان الدفاع الخارجى أو الأمن الداخلى. أما الوظائف التى تضطلع بها بخلاف هذين الأمرين فإما أنهما من نوع « الملجأ الأخير» أو أنها كالمساحة الجيولوجية أو مكتب المستويات شىء لا يكسب منه المواطنون كما يكسبون من المشروع الخاص .

ومن المهم أن نفهم أن المشروع الخاص الأمريكى أصبح طابعه صناعيا أكثر منه زراعياً ، كما أن الشركة أخذت تحل محل الفرد كوحدة الإنتاج . وفضلا عن ذلك نمت مظاهر أخرى فى الحياة الاقتصادية وبخاصة منذ الحرب الأهلية ، وكلها مما حذر منها الشعب كل من چيفرسون وچون تايلر . فسيطرت الرأسمالية على رأس المال الصناعى ، وأخذ المستأجر يحل محل الفلاح المالك وبخاصة فى الجنوب والجنوب الغربى ، ونمت المحسوبية فى دوائر مشروعات الأعمال ، وعظم الاتجاه إلى زيادة نفقات التوزيع وبخاصة فى ناحية الإعلان . وبالرغم من ضخامة الطاقة الإنتاجية فإن المشروعات لم

تقرب من الاستغلال الكامل لمواردها كما لا يبذل الجهد الجدى لاستغلال الطاقة البشرية الكلية بالبلاد . وبغض النظر عن ظروف الحرب يصح القول بضعف العلاقة أو انعدامها بين الطلب الفعال فى الولايات المتحدة وبين حاجات الشعب ، كما يشهد عهد السلم حوالى أربعة أو خمسة ملايين يعوزهم الاطمئنان إلى العمل المنتظم وإنما يعتمدون إلى حد كبير جداً على الصدفة الناشئة من الطلب العارض .

وتكمن وراء هذا كله فلسفة اقتصادية عتيقة ترى أن حرية التعاقد لا تتفق مع المساواة فى قوة المساومة ولهذا تشك كثيراً فى كل أشكال النشاط النقابى . ولما كان معظم القضاة من المحامين الناجحين فالمحاكم تشارك رجل الأعمال نظرته من حيث أن الغرض من القانون حماية هذه الفكرة عن التعاقد ؛ بل إن هذه الأخيرة هى وجهة النظر العادية لأساتذة على الاقتصاد والاجتماع ولرجال مثل وليم جراهام سمنر وجون كلارك وتوماس كارفر . لقد افترضوا أن الحكومة هى العدو الذى يخشاه الناس ، وأن مشكلات الفقر الكبرى قد حلت ، وأن « الفردية الخشنة » حسب تعبير الرئيس هوفر سر النجاح الأمريكى . إن رجال الأعمال هناك نادراً ما يتدخلون فى السياسة ولكنهم ــ مثل هاريمان ــ يحرصون على إقامة علاقات طيبة مع الحزبين السياسيين الكبيرين واستغلال أجهزتهما إلى الحد الأقصى. وهم يبغضون الراديكاليين ويقصد بهم من تختلف آراءهم فى أى مسألة هامة عما تراه غرفة الولايات المتحدة التجارية والاتحاد القومى لرجال الصناعة . والمبادىء الاشتراكية فى نظرهم ليست رد الفعل ضد عادات المجتمع الرأسمالى ولكنها بضاعة مستوردة من الخارج وعلى المواطن الصالح رفضها . وظلوا يصرون بعد سنة ١٩١٧ على أن ثورة روسيا لم تخفق فحسب بل وفيها تهديد للفكرة الرئيسية عن الحياة المتحضرة .

يحتمل أن تكون هذه النظرة تعرضت لقدر يسير من الشك بعد الكساد العظيم عام ١٩٢٩ ولكن لا أظن أنه استمر بعد أن حاول روزفلت فى أوائل عهد « السياسة الجديدة » منح العمال الحقوق التى حرمت عليهم زمنا طويلا . إن « سادة الخليقة » حسب تعبير ف . ل . آلن الرائع لم يساورهم الشك فى أن رخاء الولايات المتحدة مرتبط برخائهم ، ولم يستطع أمثال فورد وروكفلر التمشى مع القوانين الصادرة فى عهد السياسة الجديدة إلا لأن ذلك الموقف كان الشرط اللازم لمنحهم

العقود الحكومية . كان أغلبهم يعتبر أيام هاردنج وكوليدج « العصر الذهبي » . كانوا يقرأون ولكن ما تختاره لهم نوادي الكتب التي وفرت عليهم مشقة البحث عما له أهمية . وإذا اقتنوا الكتب أو الصور فكل معرفتهم بها أن السلعة الغالية تستأهل الاقتناء . وإذا عاونوا البحوث بالمال كما فعل روكفلر فليس نتيجة إدراك لما تنطوي عليه من معان ولكنهم فعلوا ذلك بناء على نصيحة مدير علاقاتهم العامة كالمستر أيفي لي بأن منح الهبات للأبحاث يستر ماضيا يعنيهم إخفاءه .

لا ريب في وجود استثناءات من وقت لآخر . فالمصرفي الشهير چيمس فورد رودس خصص وقته لكتابة بحث تاريخي من الدرجة الثانية عن عصره(١) ، ولكن قليلا من الناس عرفوا تلك الطبقة أكثر من شارل فرنسيس آدامز(٢) ابن أحد السفراء الأمريكيين الممتازين في لندن ، وكان رأيه النهائي عدم الرغبة في الالتقاء ثانية بأحد من شركائه في العمل . وإذا خطب أولئك القوم امتلأت خطبهم بالعبارات التافهة ، وإذا ألفوا الكتب كما فعل المستر كارنيجي(٣) فقد كان واضحا أنه ليست لديهم أدنى فكرة عن القوة الآخذة في تغيير طبيعة عصرهم . وبوجه عام كانوا يتصرفون كالطغاة الشرقيين القدامى ممن كانوا يعدون أية مبادىء منظمة للسلوك غير ذات معنى طالما كان في وسعهم بلوغ غاياتهم . لاريب أنهم يحبون أن يتحدث الناس عنهم باحترام ولهذا يصرون على أنهم حراس تلك الثروات الطائلة التي جمعوها ، ولكنهم ينظرون إلى الجماهير بمزيج من الاحتقار والغضب . ورفضهم احترام كرامة الأفراد العاديين يبدو في كل مناسبة كما حدث في إضرابات هومستيد أو لورنس سنة ١٩١٢ أو الإضراب البحري سنة ١٩٣٤ على ساحل الباسفيك . إن أساليب شركة بنكرتون ، واستخدام المدافع الرشاشة ثم الغاز المسيل للدموع بعد ذلك ، واستخدام الحراس المسلحين في مصانعها — كل ذلك كان دليلا كافيا على نظرة القوم إلى الطبيعة البشرية بمجرد أن تهدد المصالح الثابتة التي اعتقدوا أن من واجبهم حمايتها .

---

(١) J. F. Rhodes : History of the United States from the Compromise of 1850 (New York, Macmillan, 1892-1910).

(٢) Charles Francis Adams : An Autobiography (Boston : Houghton Mifflin, 1916), p. 190.

(٣) Andrew Carnegie : Triumphant Democracy (New York : Scribner's, 1888)

ورجل الأعمال الأمريكى على صفات بالغة الروعة تتمثل فى حيويته الفائقة ، وإخلاصه الكامل لعمله ، وإستعداده للتحول من حرفة إلى أخرى تتيح فرصا أوسع ، ومقدرته على النظرة البعيدة إلى الأمور . وحسن تقديره لأهمية الخبرة والبحث مما لايدانيه فيه غير الألمان وكذلك الروس بعد عام ١٩١٧ . والنجاح عنده يحمل فى طياته حقاً فى النفوذ والإحترام . والحق ، إن السعي وراء الثروة يعد بالنسبة إلى معظم الأمريكيين شكلا من العبادة الدينية ؛ ومن هنا نجد أحد البرزين فى عالم الإعلان يتحدث عن المسيح فى العقد الثانى بأنه رجل أعمال ناجح دون أن يشعر الناس بما فى هـــذه النظرية من قصور . وفضلا عن هذا فرجل الأعمال الأمريكى يحترم عملاءه بصورة لا مثيل لها ، وليس من بلد آخر يبذل فيه مثل هذا الجهد لإشباع حاجاتهم والكشف عنها .

غير أن فى هذا الجو الفكرى ضعفاً جسيما لا بد من تأكيده . لقد أصبحت الأهمية فى الولايات المتحدة للنجاح من الوجهة التجارية ومن هنا ندر إهتمام رجال الأعمال بواجباتهم المدنية لأنها تدخل لا مبرر له فى عملهم الحقيقى ، وقد ترتب على ذلك انفصالهم عن الطبقة التى تمارس السياسة ، ذلك أن الذى يعنيهم أن يدعهم الساسة وشأنهم بشرط توفير الأمن للممتلكات والمحافظة على النظام . أما إذا إضطر الساسة إلى التصرف خارج النطاق الذى تحدده هذه الأغراض فإن رجل الأعمال يميل إلى الشك فى الحكومة التى تتجاوز مجالها السليم ولهذا يعتبر الحرية الاقتصادية المبدأ الصحيح للسلوك الاجتماعى وأن الانحراف عنه يناقض الحكمة السياسية . وإذن يتربى لديه شعور من القلق بمجرد إقتراح أى تشريع ذى صفة إيجابية . وإن عبارة « كلما قلت القوانين كان ذلك أفضل » من البدهيات التى تؤمن بها وول ستريت ومين ستريت. هذا الإصرار على النشاط الخاص معناه أولا إبتعاد رجال الأعمال عن السياسة ، وثانياً تفضيل الحكومة ذات الطابع السلبى . ولما كان الناجحون من رجال الأعمال

قلائل فنتيجة هذا الاتجاه تخالف بين الأداة السياسية وميدان الأعمال وهو التخالف الذى يفسر الصفة الشكلية للحياة الأمريكية . ذلك أنه بمجرد أن يفترض رجل الأعمال أن السياسة ليست من شأنه فسوف تنهض جماعة من الناس تتخذها حرفة لها . ولما كانت لديها سلعة للبيع تصبح فى مركز يمكنها من إرغامه على شرائها . ليس من السهل أن نفسر طابع السياسة الأمريكية إلا على أساس هذه النظرة الخاصة التى يعتنقها رجال الأعمال ، كما ينبغى أن نضيف إلى ذلك أنه لم يكن من السهل إقناع الأمريكيين بأن كبر الحجم ليس مثل العظمة ، فالشخص الذى يدير عملا كبيراً يعد بداهة أكثر أهمية من ذلك الذى يدير مشروعاً صغيراً .

ويشعر رجل الأعمال الأمريكى بعداء شديد نحو الحركة النقابية التى يراها غير أمريكية المنشأ . وإذا وقع إضطراب فإنه مقتنع بأن من واجبه أن يؤيد أسطورة غامضة اسمها « القانون والنظام » وهو يقصد بذلك أن أية مطالبة بزيادة الأجور أو خفض ساعات العمل عدوان على الجوهر الأساسى الذى يدعوه « الأمريكية » . وهو لا يتردد فى إستخدام العنف بسبب إصراره على أن المضرب يتجسد فيه العنف وبالتالى فإنه يهدد الحكومة . ومعرفته ضئيلة بتاريخ الحركة العمالية الأمريكية ، كما أنه أقل إدراكاً لما يحدث لها فى البلدان الأخرى . وفيه كراهية لرجال السياسة ونادرا ما يدرك أن هـــذا الموقف إزاء السياسة هو السبب الرئيسى فى إخفاقه فى الحصول على أشخاص تتوفر فيهم نزاهة حقيقية . إنه يرفض أن يدرس أو أن يفهم أن المسائل التى يتعين عليه أن يقررها هى أصل القوة التى تستطيع بها الأداة السياسية أن تعمل . إنه ملم بأسرار مهنته ، أما المشكلات الأكبر فى الحياة الأمريكية فأمر ندر أن عنى بفحصه وأندر من ذلك أن يفهمها .

ومن أنبل تقاليد الحياة الأمريكية أنه — على خلاف أوربا — لا تعد أية مهنة منافية للشرف ، والطبقة ذات الفراغ والتى تشبه مثيلتها فى أوربا من حيث التمتع بامتيازات دون الالتزام بالعمل ، لم تبدأ فى الظهور على نطاق واسع إلا فى العصر الحديث . والحق ، أنه منذ الوقت الذى وضع فيه توكفيل مؤلفه العظيم لوحظ أن الأمريكى الغنى كان يقيم فى أوربا إذا أراد أن يتجنب واجب كسب العيش ،

والمجتمع ينظر إلى من لا يعمل بعين الارتياب . قد يرث ثروة كبيرة ولـكن هذا لا يستبعد أن يؤدى واجبه بأن يسهم فى زيادة ثراء الجمهورية . إن لرجل الأعمال الامريكى منزلة أرستقراطية يمكن مقارنتها بمنزلة مالك الأرض أو الجندى أو رجل الدين فى أوربا قبل العصر الرأسمالى . وفى هذا المعنى تخلق الديموقراطية الأمريكية أرستقراطية خاصة بها ، معيار الصلاحية فيها العودة إلى العمل لا الخمول .

والنتيجة التى تترتب على هذا معقدة . فأولا باستبعاد عدد قليل جداً من المراكز السياسية يتركز طموح الأمريكى فى عالم الأعمال وفى الميادين التابعة له كالقانون . والمال ليس عنصرا حيويا فى القوة السياسية فحسب بل وفى المركز الإجتماعى كذلك . فآراء الغنى هامة لمجرد كونه غنيا ، وله مركز فى المجتمع الذى ينتمى إليه ، ويتصرف كأنه الرائد فى جميع نواحى النشاط الخيرى والدينى ، وتبنى الصحافة المحلية نظرتها حول الآراء التى يعتنقها . وأكثر من هذا . فطالما الثروة مقياس الفضل وتحدد الجو الفكرى بدرجة غالبة ، فان هـــذا الأمر تترتب عليه نتيجتان لهما تأثير عميق على ما هية الديموقراطية الأمريكية . فأولا تنقسم إلى عدد صغير جداً من العائلات البالغة الثراء وجمهور ضخم لا أمل له فى إدراك الثراء مهما كانت آماله . ولما كان هذا الجمهور يبدو مبعث تهديد وخطر فى نظر الأغنياء فأن التنظيمات التى أقامتها الجماهير فى أوربا لحماية مصالحها كنقابات العمال أو الجمعيات التعاونية أو الأحزاب الإشتراكية ينظر إليها بالأستياء بل وغالبا بالعداء ، الأمر الذى نلحظه فى موقف المحاكم والهيئات التشريعية من النقابات العمالية ، وفى عجز المستهلك عن حماية مصالحه . ويجب أن يضاف إلى كل هذا انعدام حسن النية فى العلاقات بين أرباب الأعمال والعمال ومن هذا الموقف تنشأ رغبة لدى الجانبين فى استخدام العنف بوصفه الأسلوب المؤدى إلى النجاح . وليس فى وسع من يدرس تاريخ إضراب كبير فى أمريكا إلا أن يحس أن أصحاب الأعمال يفترضون أن الرأى العام وقوة الدولة سيكونان فى صفهم .

ولم يعد يصدق كما أثبت توكفيل وجود انقسام فى المصلحة بين أصحاب الأعمال ، بل على العكس فأنهم يشكلون هيئة متماسكة عظمت قوتها كثيراً خــلال المائة عام

الأخيرة . واستغلوا كل انقسام فى صفوف العمال من إقليمى أو جنسى أو دينى أو قومى ، من أجل الإحتفاظ بقوتهم . ويساعدهم فى تأييد قضيتهم سيطرتهم على الصحافة والإذاعة والسينما ، ومن ذلك أن إتجاه الأخيرة يميل إلى سيكولوچية الهرب أو إلى إفتراض أن الزعيم العمالى بطبيعته من رجال العصابات ممن يجب ألا يكون لأى شخص مسئول علاقة به . ولما كان إستمرار أداء الخدمات العامة فى المجتمع الحديث أساسيا لرفاهية الدولة فأن حق العمال فى الأضراب يكاد يصطدم بما للجماعة من سلطة السيادة وبذلك يتعرضون للهزيمة أو تقبل حل وسط كان فى وسعهم الحصول عليه بغير الأضراب . لقد كان العمال موفقين فى ناحيتين ، أولاهما أن « السياسة الجديدة » جاءت فى أعقاب الكساد المظم ، وثانيتهما أن الحكومة سارت صوب فترة الحرب العالمية الثانية التى جعلت العامل عنصراً جوهريا فى تنظيم النصر . ولكن تظل المشكلة الرئيسية أمام القوة الاقتصادية فى زمن السلم ، ولم يظهر حتى الآن ما يوضح أن سلطان أصحاب الاعمال قد تعرض لنقص نهائى .

يجب أن نفحص رجل الأعمال الأمريكي العادى بوصفه مواطنا فى جمهورية قوية إذ لعله يبدو من هذه الناحية فى أدنى مزاياه. فنادرا ما يعنى بالسياسة على الأقل بمعنى السعى إلى التأثير المباشر فى طابع الحياة الحزبية ، كما يقل إهتمامه الجدى بالآداب والفنون. لاشك أنه يشترك فى « نادى كتاب الشهر » ، وإن يكن من غير المحتمل أن يقرأ ما يختاره النادى. ويرعى الفرقة السيمفونية المحلية ولكن همه منصرف إلى شئونه التجارية . وكذلك يريد السكنى فى أحسن أحياء المدينة، وأن يقود السيارة التى تدل على رصيده بالبنك ، ويشترك فى أكبر عدد من النوادى حيث العضوية دليل المركز الإجتماعى والاقتصادى، وفى وقت فراغه يبدى إهتماما بالجولف أو البريدج أو البوكر يفوق إهتمامه بالشئون السياسية من داخلية أو دولية. ويخصص جهداً ضخما فى تعليم أطفاله ، ولا يشك فى عظمة مستقبل أمريكا وهذا التفاؤل من القوة بحيث يصعب أن تجعله يفهم أن تاريخ العالم لم يبدأ فى ١٤٩٢ أو ١٧٧٦ . وارتيابه فى النقابات شديد ، كما يحرص على ألا يعرف عنه أنه راديكالى .

ليس معنى هذا أنه لا يملك بعض الصفات الإنسانية العظيمة . فكرمه رائع ، وهو على درجة عالية من سمو النفس فيؤيد القضايا العادلة من الصين إلى بيرو الأمر الذى يعبر عن عطف واضح على أى شعب يكافح من أجل حريته . وباستثناء نظرته إلى الزنوج ففى وسعه إبداء التسامح الذى يفترض أن النجاح يحمل معه كل الحقوق التى تشترك فى تكوين المثل الأعلى الأمريكى . وعقله يتقبل بصورة شبه غريزية التغيير الذى تمليه الظروف. وليس فيه ذرة من الكبرياء الذى يجعل الانجليزى يحاول ما أستطاع تجنب وصمة الاشتغال بالتجارة ، كما لا وجود عنده لحماس الفرنسى من أجل إعتزال العمل فى سن مبكرة بدخل متواضع . وفيه إيمان عميق بقيمة الخبير ، كما أنه شديد الإعتقاد بسلامة النظم الجمهورية الأمريكية وإن لم يستبعد هذا إحترامه للنظم الملكية فى البلدان الأجنبية . ويرى من واجبه إحترام الأشكال الأساسية للدين المسيحى وإن كان مغزى طقوسها فى نظره أنها تقاليد لأنه نادراً ما يعرف تاريخها أو طبيعتها .

ومبدأ العيش عندى يتلخص فى حكمة العرف ومسايرة الحياة السائدة فلا يجب أن يشار إليه على أنه « غريب » أو « مختلف » عن غيره ، كما يميل إلى الشعور بالحيرة إزاء ضخامة التغييرات الإجتماعية التى شهدتها أمريكا فى الجيل الأخير ؛ ولكنه واثق دائماً من أن أمريكا سوف تحل مشكلاتها ومهما كانت المشاكل الراهنة قبيحة كما أظهرت سنوات الكساد العظيم فإن الرخاء قريب بفعل القوة الإلهية . وهو لا يشك فى أن جذور هذا الرخاء تكمن فى ضرورة المجهود الفردى والرغبة فى مواجهة الشدائد بشجاعة والإدراك الواسع بأن أمريكا ليست «مختلفة» عن غيرها فحسب ، بل إنها — بطريقة سحرية — أعظم أملا فى مستقبلها من أى بلد آخر .

وتفاؤل رجل الأعمال الأمريكى له مايبرره إلى حد ما، إذ مامن شعب آخر أمامه مستقبل كهذا يتيح أوسع الفرص أمام الفرد . غير أن هذا التفاؤل مصدر خطر حقيقى جداً إذ ظهر خلال رآسة روزفلت أن من الصعب إقناع رجل الأعمال بتقبل المسئولية المدنية الكاملة ؛ وهو يميل إلى القاء اللوم على عاتق رجل السياسة أو النقابات أو التعريفة الجمركية أو « المهيجين » الأجانب . إنه يرسم لنفسه صورة سهلة لعالم يسير فيه كل شىء على ما يرام لأن الهيئة التشريعية عديمة النشاط لحسن الحظ ولأن إتحاد العمال لا يطالب بزيادة الأجور أو خفض ساعات العمل . إن إبعاد رجل الأعمال الصغير من الميدان ، وشدة إنحدار الطريق نحو الأمان ، وازدياد الخوف من الأفكار الجديدة ، والاستياء العنيف من أية محاولة لتنظيم العمال ، واستخدام كل وسائل الدعاية كالكنائس والإذاعة والصحافة والسينما لمنع العمال من الإستماع إلى ممثليهم — كل هذه تؤدى إلى فلسفة ماتزال تحاول أن تثبت أن كل رجل يستطيع أن يعمل أفضل شىء لنفسه . وليس من المبالغة القول إن المبادىء الفكرية التى يكاد يعتنقها الجميع لا تعبر عن الصناعة الضخمة التى تعتبر الرأسمالية الإحتكارية أبرز مظاهرها بقدر ماتدل على ثقافة قرية كبرت فجأة وتكاد أن تخشى تمعن التغيرات التى تشعر بحدوثها . وهذه النظرة عبر عنها أحد رجال الأعمال لمساعد آل ليند بقوله « لن تحدث متاعب هنا . لقد كان عمدتنا منذ سنوات راديكاليا خلال فترة منصبه الأولى ولكنه الآن أكثر

تعاونا »[١] والعبارة الأخيرة يراد بها أنه أكثر إستعداداً لتقبل وجهة النظرالفردية والتى تعتبر دليلا على الأمن .

والأمن فى نظر أغلب رجال الأعمال يتماثل مع الحرية التى يفترضون أنها حالة إجتماعية توفر الأمن للملكية الأمر الذى يتحقق على أحسن وجه بالإقلال من التشريعات . إن المبدأ الأساسى فى فلسفة رجل الأعمال أن المواطن عبارة عما يملك وأن قوة الدولة موجودة لحماية ملكيته. هذه الفلسفة تنتمى فى جوهرها إلى القرن الثامن عشر ، ولا تعبأ بالتغييرات الضخمة التى طرأت على الإقتصاد الأمريكى عموماً منذ الحرب الأهلية وبصفة خاصة منذ الحرب العالمية الأولى. إنها تطبق مبادىء المجتمع الزراعى البسيط فى عهد وشنطن وجيفرسون على أمريكا المعاصرة . الحق ، أن موقف رجال الاعمال الامريكيين من مشكلات المجتمع الحديث يجمع بين أساليب توماس هوبز ولهجة دعاة الاحياء الدينى مثل مودى وسانكى ، ذلك أن تاريخ القوم الذين كانوا العوامل الاساسية فى التطور الإقتصادى الهائل الذى تم خلال الثمانين عاما الاخيرة ليس سوى سجل الطغاة الذين يبررون سياساتهم بالإصرار على أن قانون الطبيعة يقضى بانزواء الضعيف ، وأن ما حققوه من أعمال ضخمة تعبير عن المبادىء المسيحية . ولذلك نجد لورنس أسقف ما ساشوستس والذى ظل سنين طويلة عضوا بمجلس إدارة شركة هارفارد يقول دون أدنى شعور من خداع الذات « إن الثراء فى الأجل الطويل من نصيب الشخص المتمسك بمبادىء الاخلاق. إننا نؤمن بانسجام الكون الذى خلقه الله . ونعرف أننا نستطيع أن نعمل بكفاية إذا سرنا وفق القوانين الطبيعية والروحية ... إن التقوى حليفة الغنى ... والرخاء المادى يساعد على جعل الخلق القومى ألطف وأكثر بهجة وأكثر بعداً عن الانانية وأشد شبها بالمسيح »[٢]. ولكن الاسقف لورنس لم يحدثنا عن مدى ذلك الأجل الطويل ، كما يجوز لنا الشك فيما إذا كان المسيح يرى فى حياة سادة الحياة الاقتصادية الامريكية مايتفق مع الإنجيل .

---

(١) Herbert S. and Helen M. Lynd : Middletown in Transition (New York : Harcourt, Brace 1937) p. 37.

(٢) William Lawrence : Fifty Years (Boston, Houghton Milfflin, 1923), pp. 13—14.

الواقع أنه فى ختام الحرب العالمية الأولى كانت القوة الاقتصادية بالولايات المتحدة متركزة بصورة لا مثيل لها فى يد بضع مئات من رجال لم يشعروا أنهم مسئولون عن استخدامها إلا أمام أنفسهم . لقد تعرضت هذه القوة الضخمة للنقد وبذلت محاولات للحد من سيطرة رجال الأعمال مثل قانون شيرمان ولجنة التجارة بين الولايات وقانون الاحتياطى الاتحادى العام الصادر سنة ١٩١٣ وقانون كلايتون الذى سعى إلى حماية مركز العامل إذ أعلن أن العمل ليس بسلعة . وتحدث بجفاء أمثال تيودور روزفلت «عن صانعى الثروة الأشرار» وإن حرصوا على عدم اتخاذ أى إجراء ضدهم. ولم تقدم « الليبرالية الجديدة » التى بشر بها أمثال وودرو ولسن للمواطنين الأمل فى أن يكون أبناؤهم « رؤساء مشروع قد يكون صغيراً ولكنه مزدهر » وذلك فى الفترة التى بدا فيها أن مصير الولايات المتحدة الاقتصادى لن يختلف فى جوهره عما أصاب أوربا . والرواج الكبير فى عهد كوليدج أعقبه الكساد المعظم الذى بدا أنه يعرض قوة رجال الأعمال الطاغية للشك . وخلال الشهور الأولى من رآسة فرنكلين روزفلت الأولى بدأ كأنما ستقدم أمريكا على « سياسة جديدة » بالفعل والقول ، ولو حدث ذلك لتعرضت الولايات المتحدة لثورة أخرى لا تقل عمقاً عن الحرب الأهلية .

غير أن الذى حدث لم يكن ثورة بأى معنى . إن الكساد العظيم حول أمريكا إلى دولة خدمات اجتماعية مثل انجلترا فى عهد حكومة الأحرار (١٩٠٦–١٩١٤) ففرضت معدلات جديدة للضرائب على كبار الأغنياء ،وأدخل نظام الأمن الاجتماعى بما فى ذلك معاش كبر السن ، وقدمت الحكومة الإتحادية الإعانات لبرامج الإسكان، وساعدت العاطلين بتوفير العمل ووسائل أخرى ، وشددت من رقابتها على الاستثمار بانشاء لجنة الأوراق المالية والبورصة ، وعمل قانون واجنر على رفع مركز النقابية إلى مستوى تجاوز ما كان قادتها يحلمون به ، كما أن السياسة الجديدة جعلت عملية

الحكم ذات أهمية لم يسبق لها مثيل . وبالرغم من هذا كله ظلت الملكية والرقابة فى الأيدى نفسها كما كان الحال قبل الرئيس روزفلت .

معنى ذلك أنه بالرغم من عظم انتشار الإنتاج الكبير قام مشروع العمل الأمريكى على نظرية التقييد لا الوفرة . إن على أمريكا فى عهد السلام أن تختار بين إمكانيات ثلاث من أجل المحافظة على ما حققته الحرب الثانية من مستويات العمالة الكاملة ، وذلك بتغيير توزيع الثروة بحيث تتساوى طاقتها الإنتاجية مع قدرتها على الاستهلاك، أو بتنفيذ برنامج كبير متصل من الأعمال العامة، أو بطريق الاستثمار الخارجى وهذا الحل الأخير على ضربين . فقد تحاول أمريكا الاستثمار الطويل الأجل والذى يخلق عن تقديم المعدات الرأسمالية للمناطق المتأخرة كالصين وأمريكا الجنوبيــة والبلقان طلباً خلال مدة على السلع الاستهلاكية يتناسب مع طاقتها الإنتاجية . وهناك أيضاً النوع العنيف من الاستثمار أى الاستعمار الإقتصادى الذى يسعى إلى الحصول على عائد سريع عن الاستثمارات الحالية عن طريق استخدام قوة الولايات المتحدة الاستراتيجية والمالية .

والاختيار لون من مضاربة معقدة ، إذ لا يحتمل أن يتنازل رجال الأعمال ولو بطريقة جزئية عن سلطانهم فمن عادتهم الكفاح عن مركزهم ولا يستسلمون إلا كما حدث فى الحرب الأهلية حين سحقت قوات الشمال ملاك العبيد. كذلك ليس من السهل الاعتقاد بأن رأسمالية الدولة سوف تتجاوز المرحلة التى بلغتها « السياسة الجديدة » فى وقت بيرل هاربور إذ ليس من عادة الملكية أن ترهق نفسها على نطاق جدى إلا إذا تعرضت لأزمة . حين يتعرض كل شىء للخطر كما يحدث أثناء حرب كبرى قد يكون الملاك على استعداد لبذل تضحيات كبيرة ولكن من يدرس بالتفصيل الفترة السابقة على الحرب الأهلية أو قبل بيرل هاربور سوف يدرك كيف يبدى معظم الناس بفرح استعدادهم للتنازل عن حرية الجماهير بشرط الإبقاء على ملكيتهم . إن أزمة مفاجئة وعميقة مثل الكساد العظيم قد تؤدى إلى تقبل مؤقت للتجارب الجديدة، ولكن السياسة الجديدة أظهرت أن مثل هذا الرضاء مؤقت حتى ولو تطلب حادث

كالحرب العالمية الثانية تضحيات من جانب العمال تتناسب على الاقل مع تضحيات الأثرياء .

ولذلك لا يسهل على المراقب أن يتقبل حتى نتيجة كالتى وصل إليها مؤرخ اقتصادى ممتاز مثل الأستاذ لويس هاكر حين قال إن رأسمالية الدولة الجديدة فى أمريكا « تنبيء بمقدم عصر الوفرة الذى يحميه التقليد الأمريكى فى عهد التنوير والثورة الأمريكية وفلسفة چيفرسون الراديكالية القديمة والنزعة الشعبية » . لايعنينى أن أنكر أن أيا من هذه أسهم فى تشكيل التقليد الأمريكى ، أما أنها سوف تهيء للأمريكيين كما قال هاكر « الأمن الاقتصادى -- والحرية السياسية » فأمر غير مؤكد فى نظرى [١] . والأستاذ هاكر لا يبحث عمن سوف ينعمون بالأمن والحرية ، ويتناسى أن الأغلبية الساحقة من الزنوج لم تتمتع بها أبداً ، ولا يناقش مغزى سد الأبواب فى وجه هجرة الاوربيين والآسيويين ويعجز عن تحليل تأثير النظام الحالى للملكية والسيطرة على المواطنين الامريكيين ممن يعتبر ضمان الامن والحرية من آمالهم اليومية . وإذا كتب قبل بيرل هاربور فمن الطبيعى أنه غفل عن ثمن التعب الذى تحمله شعب اشتبك فى حرب كبرى ويحاول حكامه منعه من افتراض نسب ثورية . ولكن الاستاذ هاكر نفسه هو الذى يرى أن مغزى الحرب الأهلية من الوجهة السياسية ينحصر فى أنها مكنت الشعب من التغلب على التعب الذى أحدثته [٢] .

وفى ظنى أنه بعد إثنى عشرة عاما من التجارب الجديدة المثيرة ومنها التجارب الضخمة خلال الحرب العالمية الثانية فعلى الأقل من المحتمل أن تمارض الطبقة الحاكمة بعنف أية تجربة جديدة مهما كان نطاقها . صحيح أن قدرا غير يسير من أسباب نجاح روزفلت للمرة الرابعة يرجع إلى تأييد العمال المنظم ، إلا أنه يجب علينا ملاحظة أمرين أولهما أن الأهمية الرئيسية لهذه الفترة الرابعة لا ترجع إلى التجربة الاجتماعية أو الإقتصادية وإنما ترجع إلى إحراز النصر وإقامة سلام دائم عليه ، وهذان بدورهما

---

(١) Louis M. Hacker : The Triumph of American Capitalism (New York : Simon and Schuster, 1940), p. 435.

(٢) Ibid, Chap. 24, passim.

يتوقفان على مقدرة خلفه المستر ترومان فى الحصول على تعاون المصالح التى كان همها غالبا وعلى الأقل منذ سنة ١٩٣٦ هزيمة الرئيس روزفلت ، وهذا يستدعى أن تكون سياسته بحيث تتجنب ذلك اللون من البدع التى ترمز إلى السياسة الجديدة « كما فى حالة قانون واجنر مثلا » . والأمر الثانى أنه بمجرد أن تقرر بتلك الصورة المفجعة أن روزفلت لن يعاد انتخابه للمرة الخامسة كان من الواضح أن الحزبين الكبيرين سوف يسعيان إلى مرشح فى عام ١٩٤٨ يمكن أن تطمئن إليه الطبقة الغنية فى أنه سيمنحها فترة من السلام والهدوء بعد الأحداث المثيرة فى السنوات التالية لعام ١٩٣٣ .

ولهذا لست أؤمن باقتصاد الوفرة الذى يؤكده بقوة الأستاذ هاكر . أنه على ما أظن يخلط الإنتاج الكبير بالوفرة بينما هما شيئان مختلفان . فالمجتمع الذى أساسه الإقتصادى رأسمالى لا يهتم بالوفرة وإنما بالحصول على الربح لمالكى وسائل الإنتاج . والربح يأتى من إشباع الطلب الفعال ولكن توزيع الثروة فى الولايات المتحدة لا يمكن المستهلكين من استخدام مواردها الإنتاجية . فاذا توقفت الطلبات الخاصة بمواصلة الحرب فسوف يقدر عدد العاطلين بالملايين ، حسب المعدل الحالى للانتاج . ولسنا نتوقع استمرار هذه الطلبات بعد الحرب على نطاق يكفل العمالة الكاملة بأجور مناسبة . وسوف يكون أهم ما يشغل بال الأغنياء فى أمريكا خفض الضرائب وهذا يتحقق إما بالملكية الاجتماعية التى تهدد جوهر قوتهم وأما بخفض الطلبات التى تتقدم بها الحكومة الإتحادية إلى الصناعة الخاصة ، ومن المعقول أن يفضلوا الإجراء الثانى مما يجعل فى الإمكان التنبؤ باطمئنان أنه بعد فترة رواج تعوض النقص فى السلع الاستهلاكية فسوف تترنح الراسمالية الاحتكارية بعد الحرب صوب كساد جديد بالرغم من الطاقة على الانتاج الكبير[1] .

فى وسع أمريكا بطبيعة الحال أن تسعى إلى رفع مستوى المعيشة فى البلدان المتأخرة كالصين بطريق الاستثمارات الطويلة الأجل بسعر فائدة منخفض على أساس أنه ، كلما زاد رخاء العالم عظم الطلب على الإنتاج الأمريكى . وصعوبة حدوث هذا

(١) لم يتحقق الأمر على هذا النحو ومازال الإنتاج القومى والدخل الأهلى فى ازدياد (المترجم)

الأمر ترجع إلى عوامل عدة . فأولا لايحتمل أن رجال الأعمال الذين تعرضوا لخسائر فادحة فى سوق الاستثمار الدولى فى فترة مابين الحربين يقدمون على المغامرة مرة ثانية بنفس الشروط . كذلك فأن طبيعة الخطر تجعل من الصعب إقناع المستثمر العادى بقبول فوائد منخفضة عن قروض ليس واثقا من سدادها . أضف إلى ذلك أن مثل هذه القروض لا يحتمل سدادها إلا إذا وجهت لأغراض مرضية وبضمانات مناسبة ولا يمكن تحقيق ذلك إلا إذا تم الإقراض نيابة عن الجماهير وأديرت العملية المالية بأسرها تحت رعاية هيئة دولية مستقلة . إن ثمت اختلاف بين قروض كالتى قدمتها بيوت الاستثمار الأمريكية إلى كوبا أو دول أمريكا اللاتينية مصحوبة برشوة كما فى حالة بيرو حيث أعطى لإبن رئيس جمهوريتها ٤١٥,٠٠٠ دولار مقابل ما أطلق عليه تهذيبا اسم « خدمات » متصلة بترويج القرض . وبين قروض تنظم عن طريق هيئة دولية مثل القسم الإقتصادى التابع للأمم المتحدة . فى الحالة الأولى كما أظهرت التحقيقات التى أجريت بعد الكساد العظيم يجمع عدد قليل ثروات هائلة دون اعتبار للأمانة أو النزاهة ، وفى الحالة الثانية أمانة ونزاهة دون أن يجمع المستثمرون ثروات كبيرة بسرعة . وكلما زاد استخدام الطريقة الثانية زاد اتجاه العالم نحو تخطيط حياته الاقتصادية الأمر الذى يتعارض مباشرة مع فلسفة رجل الأعمال الأمريكى .

فى مثل هذا الضوء يكون الأقرب احتمالا التجاء أمريكا إلى الأسلوب القديم وإن كان بسيطا وشريرا ، أى أسلوب الامبريالية الاقتصادية الذى جربته إلى حد ما فيما بين عامى ١٩١٩ ، ١٩٣٩ . فاذا فعلت ذلك فسوف يؤكد كل عنصر فى الحياة الاقتصادية الأمر الذى كان الكساد العظيم سنة ١٩٢٩ نتيجته المنطقية . سوف تكون هناك فجوة لا يمكن اجتيازها بين الطاقة الإنتاجية والقوة الشرائية ، ويزداد تركز الثروة والدخل . فى رسالة روزفلت الخاصة إلى الكونجرس فى ٢٩ أبريل سنة ١٩٣٨ ورد أنه فى سنة ١٩٣٣ كان عشر الواحد فى المائة من الشركات التى تقدم إقرارات الضرائب السنوية يملك ٥٢ ٪ من الثروة الكلية ، كما كانت ٤ ٪ من هذه الشركات تملك ٨٤ ٪ من دخل الشركات الصناعية الصافى . وفيما بين الحربين انتقلت الزعامة

إلى الرأسمالية المالية فكان بيت مورجان يسيطر على ربع ثروة البلاد الكلية تقريبا ، وقال روزفلت أيضا أن من بين ٣٠٠ شخص يحصل واحد على ٧٨ سنتا من كل دولار من أرباح الشركات بينما يقتسم ٢٩٩ بقية الدولار ، وكان ذلك فى فترة ذكرت فيها هيئة محافظة مثل معهد بروكنجز أن ٦٠٠٠٠ أسرة تدخر ما توفره ٢٥ مليون أسرة دخل الواحدة منها دون ٥٠٠٠ دولار سنويا . معنى هذا أن أمريكا على الأقل من الناحية الاقتصادية ، صارت مجتمعا طبقيا فى مرحلته الاحتكارية وتعتمد تجارتها على استعدادها لتمويل البلدان المستوردة منها ، فلو سلمنا بالموقف الذى حلقته الحرب فى أوربا وآسيا فأية أمبريالية اقتصادية سوف تقوى عاجلا أو آجلا العوامل نفسها التى سببت كساد سنة ١٩٢٩ ، ولم يغير من هذا مشروع مارشال فعند مرحلة معينة سيؤدى الموقف الكلى إلى أزمة لاتتفق مع فلسفة رجل الأعمال التقليدية ، وعند بلوغ نقطة معينة سيضطر الرأسماليون إلى الالتجاء إلى قوة الدولة كى تضمن سير حياة المجتمع الاقتصادية .

من هذه الزاوية فى البحث يصعب القول بأن فلسفة المشروع الأمريكى لها علاقة متماسكة بتطبيقها ، كانت هذه الفلسفة تؤكد مبادىء فرصة الفرد وحياد الدولة وقوة المشروع فى الاعتماد على قوته الكامنة للتوسع الديناميكى ، وكانت تعادى البيروقراطية وطابعها الإقتصادى بعينه اتجاه قوتها السياسية . ولم يكن لأى من هذه المبادىء معنى بعد سنة ١٩١٩ ، فالذى نشأ ببطء قبل سنة ١٩٢٩ وبسرعة بعدها كان سياسة تجارية mercantilism جديدة من الصعب أن نجد فيها المصادر الحقيقية للمسئولية. أن العامل الذى قال للمستر والمسز ليند أنه حاول فهم « السياسة الجديدة » ثم أقلع عن المحاولة بسبب شدة تعقدها كان فى الحقيقة يفرط فى كونه مواطنا ، إذ من الواضح بداهة ألا أمل للديموقراطية فى البقاء إذا كانت مشكلاتها لايستطيع المواطنون فهمها لأن المرحلة التالية التى تحرم فيها الجماهير المتحدة من قوتها السياسية ربما تكون مستعدة للتنازل عنها ، وعند هذه المرحلة يصبح الشعب فى خطر جدى من الإتجاه صوب عصر من الفاشية .

لأن المشكلة الاساسية التى ما يزال على المشروع الامريكى أن يفحصها بأمانة فكرية حقيقية تنحصر فيما إذا كان هذا التركز الهائل فى الثروة منذ الحرب الاهلية يتفق فعلا مع الإحتفاظ بالأنظمة السياسية الديموقراطية ، لقد أثبت توافقه مع السياسة الجديدة ولكن الثمن كان غاليا لأنها بتعقدها جعلت الرجل العادى أقل فهما لها ، ودخلت أمريكا ميدان سياسات الدول العظمى وهى مدركة تماما أن العمالة الكاملة تتوقف على استمرار ميزانية لا يمكن أن تصل إلى الحد الاقصى اللازم إلا عن طريق الانفاق الحكومى وهذا بدوره معناه أن تكون قوة الحكومة على حياة المواطنين هائلة .

لقد أعطت سياسات روزفلت للحياة الاقتصادية إتجاها يصعب جدا على معارضيه النكوص عنه ولهذا لم يختلف برنامج الجمهوريين فى انتخاب الرآسة عام ١٩٤٤ عن برنامج الحزب الديموقراطى إلا من حيث امتلائه بالحقد على أشخاص مختلفين ، كما أن الذين يستفيدون من انتصارهم خلاف الذين يعود عليهم بالنفع انتصار الديموقراطيين .

وبالرغم من إختلاف المنتفعين فالاجراء الذى أدى إلى وصول الرخاء إليهم أقل إختلافا مما يبدو لدى النظرة السطحية . ربما كره الملكيون الاقتصاديون روزفلت أكثر من أى رئيس سابق منذ أندرو جاكسون ، ولكن سواء وافقوا على سياسته أو عارضوها فقد كانت غايتهم الحصول على العقود الحكومية التى تراكم بسببها العجز الذى كانوا ينتقدونه ؛ كما أن روزفلت نفسه وبخاصة بعد بيرل هاربور كان فى حاجة إلى تعاونهم ليتسنى تعبئة طاقة البلاد الاقتصادية كلها ، والنتيجة أنهم كانوا الوسيلة التى مكنت الساسة من إدراك غاياتهم ، وهذه العلاقة أكثر أهمية حين نتذكر أن مغزاها يناقض القيم التى يطلب من الامريكيين تقبلها إذا شاءوا ألا يوصموا بأنهم « راديكاليون » .

لقد آمنوا بالنجاح عن طريق المبادأة الفردية فى ظل نوع من تنازع البقاء الداروينى حيث الاقوى فى مجال المنافسة يكون انتصاره أفضل شىء لامريكا . كانوا يؤمنون بنجاح الفرد إذا عمل بجد ، ويرون فى تدخل السياسة خطرا يهدد الحضارة الامريكية ، ويعدون الاغنياء أبعد نظرا وأعظم مقدرة وأسمى خلقا من الفقراء ، ويصعب عليهم — إن لم يكن من الخطر — أن يفترضوا تعارض المصلحة بين رأس المال والعمل ، وينظرون

إلى منظم الحركة النقابية على أنه شخص مشاغب عاداته غير أمريكية . وأكثر من هذا فهم على اقتناع بأن النظرة السليمة متفائلة بطبيعتها وأن ليس هناك أخطر من أولئك الذين ينتقدون أساليب الحياة الأمريكيةالأساسية ، وأن رفض الأخيرين انتهاج الطريق الوسط هو السبب فى قيام البلشفية فى روسيا والنازية فى ألمانيا ، ولهذا ففى المحافظة على تقاليد أمريكا العظيمة خير وسيلة لحمايتهامن سمومهم ولتحقيق الوعد الذى تنطوى عليه آمالها الكبار .

إن التباين واضح بين الأنموذج التقليدى لهذه القيم وبين العادات الحقيقيةلرجال الأعمال الأمريكيين ، ومن الصعب ألا نشعر أنه بلغ النقطة التى لاحظ توكفيل أنها خطرة دائماً فى تاريخ الديموقراطية ، وهى النقطة التى عندها على حد قوله « تمت الرغبة فى إشباع المطالب المادية بأسرع من تعليمهم وخبرتهم بالنظم الحرة » . هنا يكون مركز الفرد وليد الثروة النقدية أو القوة الاقتصادية بحيث يشعر الناس أن أى تدخل فى عملية اقتنائها يعتبر مصدر مضايقة . إلا أنه فى تلك الحالة قد يسهل على الشعب أن يفقد حريته (كما قد يستطيع الاحتفاظ بها) ، وذلك حين يخلط قوة الملكية بما يمكن أن تحقق الحرية ، كما يجد من الصعب أن يميز بين المصالح الخاصة للقلة والمصالح العامة للكثرة . بل وإن أفراد هذه القلة أنفسهم يعجزون عن هذا التميز وهم الذين يشكلون تهديدا أكبر لأنهم لا يدركون أنهم مبعث خطر على الاطلاق إذ بالعكس يتصرفون عن اعتقاد مؤسف فى إخلاصه بأن الإبقاء على سلطانهم هو الشرط الجوهرى لتحقيق الخير العام .

ويقول توكفيل فى فصل يعتبر أروع ما كتب « وفى رأيى أن الارستقراطية المكونة من رجال الصناعة والآخذة فى النمو تحت بصرنا من أعنف ما شهد العالم ولكنها فى الوقت ذاته أكثر انزواء وأقل خطراً . وبالرغم من هذا فعلى أصدقاء الديموقراطية أن يركزوا أنظارهم على هذا الإتجاه إذ لو حدث أن انتشر فى العالم ثانية تفاوت دائم فى الأحوال والارستقراطية فقد يمكن التنبؤ بأن ذلك سيكون

السبيل الذى يدخلان منه »[1] . والانزواء الذى تحدث عنه اختفى بسرعة مدهشة بعد الحرب الأهلية بحيث عادت الاخطار التى تنبأ بها تلقى ظلالها على الحياة الامريكية، إذ لا يقف الأمر عند حد أن السياسة الامريكية تحددها إرادة ماسماها توكفيل « الارستقراطية الصناعية » ، بل إن إطار هذه السياسة يتحدد بحيث تبقى طبقة دائمة من العمال تزداد تبعا لنمو هذه الاستقراطية ولا نستطيع أن نأمل جديا فى تخطى الحدود التى بدأت منها . وحتى إذا اضطرتهم تجربة أليمة إلى تكوين نقابات بقصد الدفاع عن النفس فأنهم يجدون أن عليهم أن يتلاءموا مع مطالب الملكية الخاصة وأن يحاولوا العيش على ما يستطيعون انتزاعه على صورة إصلاحات اجتماعية من قوة الدولة التى تظل دائما فى أيدى خصومهم . وليس فى وسعهم محاولة الاستقلال الحقيقى عن قوة الدولة وإلا وقعوا فى أيدى عملائها ليستغلونهم ، كما لا يجسرون على الرضاء بموقفها الحيادى إذ تترتب على ذلك فوضى اقتصادية تستدعى تدخل الدولة إذا ماتهدد القانون والنظام . وعلى أى حال ففى عصر « الرأسمالية الاحتكارية » لا يمكن للارستقراطية الصناعية التى تحدث عنها توكفيل أن تقبل سياسة نقابية قد تهدد استمرار الإنتاج .

ذلك أنه فى ظل الأحوال التكنولوجية الحديثة يعتبر استمرار الإنتاج الأساس الضرورى لقيام حياة اجتماعية سليمة ، فإذا انقضى تعرضت للخطر جميع دعائم المجتمع الحديث مثل الكهرباء والنقل والغذاء والخدمات الصحية والإسكان . ولهذا السبب فالإضراب الذى يمتد وقتا طويلا فى المناجم أو السكك الحديدية أو محطات توليد الكهرباء أو أحواض السفن يجعل تدخل الدولة لزاما عليها ، ويصبح من الجوهرى ألا يتخذ قادة النقابات موقفا يورطهم مع الحكومة إذ علمتهم التجربة أن ذلك يؤدى إلى استخدام البوليس والجيش ضدهم . إلا أن على هؤلاء القادة أن

---

(١) Alexis de Tocqueville, Democracy in America, translated by Henry Reeve (New York, Appleton, 1904), Vol. II, p. 649.

يضمنوا إرضاء آمال أتباعهم فى تحسن مستوى الرخاء المادى وبذلك يتعين على النقابات بالولايات المتحدة العمل على إقناع طبقة الأغنياء بضرورة استمرار الإصلاح الاجتماعى . وهذا بدوره يتطلب اقتصاد الوفرة الذى لاسبيل إليه فى ظل الظروف المعاصرة إلا بشروط يجب أن تقررها الدولة . ورفض الشروط بصورة عملية يصبح على الفور إجراء ثوريا ، ولما كانت الدولة لايمكن أن تسمح بالشك فى المبدأ الكامن فى طبيعتها — وهو الأمر الذى تحاوله الثورة — فلا بد للنقابات الأمريكية من قبول تلك الشروط ، حرصا على سلامتها . وفى عصر الرأسمالية الآخذة فى النمو والتوسع فإن هذا يخفى حقيقة وهى أن الرخاء لاسبيل إليه إلا وفق الشروط التى تمليها قوة الدولة . ولكن حين يتوقف ذلك التوسع كما فى حالة الكساد مثلا أو حين يحل عصر التقلص الاقتصادى يصبح الإخفاء غاية يصعب إدراكها .

هذا الإخفاء هو الغرض الذى تحققه فلسفة رجل الأعمال الأمريكى . فبتأكيده لنظام من قيم تمثل إلى حد كبير الآمال والأمانى التى تجيش فى صدور دولة أمريكية لم يعد لها وجود فإنه بذلك يحاول عبور الهوة التى تفصل بين الأحلام والحقائق ، وهذا النظام تدعمه كل وسيلة تقدر عليها الدعاية . أنه أساس التعليم بالمدارس والجامعات ، وعليه تقوم معظم التقاليد التى جرت العادة بامتداحها ونقدها . إن التقليد الذى يرى إمكان الانتقال من الكوخ الخشبى إلى البيت الأبيض ، والإيمان بالولايات المتحدة بوصفها أرض الفرص التى لاحدود لها ، والإصرار على أن الديموقراطية الأمريكية حقيقية ولا طبقية بخلاف مثيلتها فى المجتمعات الاوروبية ، والثقة فى أن لامريكا مصيراً خاصاً بها ، والاعتقاد بتوافر العمل لكل راغب فيه ، وتقبل المبدأ الذى يرى أنه كلما زاد حجم الشىء كان أفضل ، والإيمان بأن من عبقرية أمريكا الخاصة احترام الرجل الصغير وحمايته — كل هذه تشكل وجوها من طراز فى السلوك تتحد الصحافة والإذاعة والسينما بتكرار لانهاية له وبأشكال لا حصر لها

حتى يبدو كالطراز « الطبيعى » الأمريكى . ففى وسع جمهورى متحمس كالاستاذ وليم ستارميرز أن علأ أعمدة صحيفة واسعة الانتشار مثل ساترداى إيفننج بوست بمحاولة حماسية ليثبت أن « الفردية الخشنة » التى عبر عنها الرئيس هوفر كانت قد مهدت السبيل للانتعاش فلما جاءت « السياسة الجديدة » بإصرارها على العمل من جانب الدولة هدمت كل ماحققه الرئيس الطيب هوفر باعتماده على مفعول القانون الطبيعى .

إذا أريد لمثل هذه الفلسفة أن تنجح فيجب أن تكون قادرة على التعبير بصورة فعالة عن الخبرة الضخمة التي تحاول هذه الفلسفة أن تفرض نفسها عليها ، وتنحصر المشكلة أمام الجيل القادم من الأمريكيين فيما إذا كان هذا التعبير تؤيده حقائق الحياة الاقتصادية الأمريكية . من السهل أن نرى كيف أن اسطورة حياه لنكولن أو القصص المثيرة عن حياة أمثال كارنيجي واديسون وفورد يمكن أن تقنع عددا لاحصر له من الأمريكيين بحقيقة حقهم في نجاح مماثل، ولكن يحتمل أن يكتشف الكثيرون من الأمريكيين أن توافق الظروف التاريخية ومقدرة هؤلاء الأفراد الفائقة أمر غير عادى ، وأن أمثال لنكولن إذا وفق الشعب إلى اكتشافهم ليسوا من العاديين الذين نقابلهم . إن خطورة فلسفة رجل الأعمال الأمريكى أنها تفترض تفوق الفرد العادى إذا تطلبت الظروف ذلك ، تماما كما نجد فى مجلس الشيوخ عادة جماعة تتشكل نظرتهم عن طريق مزيج من الدهشة وخيبة الأمل بسبب إخفاقهم فى الوصول إلى رآسة الجمهورية . وهكذا يخلق روتين العمل طبقة من القادة تنشأ مصلحتهم الأساسية من كونهم يجعلون الاستحواذ مماثلا للعدل ، فإذا تعرض الأول للتحدى فمن النادر حقا أن يفهموا أن التحدى لا ينصب على المطالبة بالاعتراف بالعدل . وحتى إذ أدركوا ذلك فإنهم لا يعتبرون العدل حقا اجتماعيا ولكنه منحة مصدرها ما فى نفوسهم من النبل والسمو . ولهـــذا السبب يحسون الخوف من كل تفكير جديد قد يتحدى فلسفتهم ، كما يحاولون مباشرة أو عن طريق العملاء الخاضعين لسلطانهم أن يمنعوا أى وجه هام من الحياه الاجتماعية من تجاوز نطاق قوتهم ، الأمر الذى يبدو بوضوح فى مستوى التعلم والثقافة ، إذ يرون من الطبيعى أن يتسلطوا على المدارس والكليات ويعدون الأدب والفنون الجميلة مهربا من الحقيقة التى يرعونها وليست وسيلة تزداد بها الحياة الأمريكية تحقيقاً وثراء . ويصح القول بأن الفكر الأمريكى النظرى فى فترة كالتى تقع بين أندرو جاكسون ونهاية رآسة جرانت الثانية كان أكثر جرأة

وثقة بالنفس واستعدادا لتوجيه الأسئلة والإصغاء إلى الإجابة عليها منه فى أية فترة تالية . ربما كانت أمريكا فى القرن التاسع عشر واثقة بنفسها فى عجرفة ولكنها لم تشعر بالخوف كما هو شأنها فى القرن العشرين حيث تلقاها غير واثقة مما تستطيع أن تحققه الأفكار الجديدة أو من كونها خطرا على النظام القائم . فلسنا نرى على الشاشة فيلما عن هيئة وادى التنيسى مثلا يصور ما يمكن أن يحققه المشروع الحكومى ، وأثار عميد لمدرسة الحقوق بهارفارد الدهشة بتأييده مشروع روزفلت سنة ١٩٣٧ لإصلاح المحاكم ، وأصبح تعقب الهرطقة الأكاديمية من مهمة الصحافة الصفراء . ومما يوضح هذه الحقيقة كذلك الاتجاه الذى سار فيه ذلك الجانب المجنون من الفكر الأمريكى بعد معاهدة فرساى مثل إحياء جمعية كوكلاكس كلان ، واستعداد الجماهير لتصديق المذاهب التى دعا إليها أمثال تونسند والأب كفلن ، وقيام حكومة المتخصصين فى أشكالها المختلفة ، والقوة الهائلة التى وصل إليها أمثال هيوى لونج من قادة الدهماء ، وازدياد التعصب فى المسائل المتعلقة بالجنس والدين . كل هذه أدلة لا تحتمل الجدل على أن أمريكا أصبحت بعد الحرب العالمية الثانية لا تشعر باطمئنان داخلى يستطيع أن يتغلب على المشكلات التى واجهتها . ومن المهم أن نضيف أنه فى فترة ما بين الحربين كان هناك مراقبون لم يتأثروا بالضعف الذى طرأ على معظم أشكال الأرثوذكسية الدينية ، وعدم استقرار الشباب بصدد مسائل الأخلاق مما كان موضع ثقة الكبار العالية ، والخطر الذى تعرضت له وحدة الأسرة بعظم انتشار وسائل اللهو خارج البيت . ووجدت فلسفة رجل الأعمال مصادر التحدى لها حتى فى وقت كوليدج حين بدا أنها تشعر بالفرحة من النظر بعين التبجيل إلى الأغنياء . والموظف السليب من الخيال لم تكن لديه فكرة حين سمع بتعيين المستر هوفر فى المؤتمر الجمهورى عام ١٩٢٨ أنه حين خرج الأخير من البيت الأبيض انتهت فترة كان صورة رائعة لها.

تلك كانت الفترة التى فيها عجزت الفلسفة النفعية للبيوريتانية المحلية عن الأجابة عن الأسئلة التى راح يوجهها الأمريكيون مضطرين بعد الإنهيار الذى حدث فى بورصة الأوراق المالية فى ٢٩ أكتوبر سنة ١٩٢٩ ، إذ بدا أن قد أطلق عقال قوى تدعو إلى الشك واليأس . لقد « كانت أمريكا وعوداً » على حد عبارة الشاعر أرشيبالد

ماكليش ولكن بعد الكساد العظيم صار من الصعب التأكد من إمكانية تحقيقها. كان الإعتقاد قبل ذلك أن الركود سرعان ما يعقبه إنتعاش فى مستوى جديد من الرخاء ، ولكن ذلك الكساد فى الجيل الماضى صارت له صفة الدوام ؛ والجهود المعقدة المصطنعة منذ سنة ١٩١٩ لإقناع العالم بأن رجال الأعمال قد أكتشفوا سر الرخاء الدائم كانت جهوداً تنم عن الخوف والقلق ، بقصد إخفاء حقيقة هذا الخوف عن أنفسهم . لقد كان من الصعب بعد سنة ١٩٢٩ أن نجد رجل أعمال يستطيع مواجهة المستقبل باطمئنان ، فالسياسة الجديدة كانت مناقضة لمبادئهم ومن هنا كرهوا روزفلت والسياسة الجديدة والمفكرين وبخاصة الأكاديميين منهم إذ كيف يجرأ قوم لم يعرفوا الحياة إلا من الكتب أن يفسروا للرجال العمليين أن وراء تصرفاتهم مجموعة هائلة من فروض مجهولة ولم يعد لها معنى فى عهد الكساد العظيم . وساءتهم التحقيقات التى أجريت فى عهد كوليدج بشأن تصرفاتهم ، وزاد استياءهم من ترحيب الجماهير بنتائج تلك التحقيقات والمطالبة بعرضها على المحاكم. لقد رأوا آلهتهم موضع السخرية والمبادىء التى أعتادوا على إحترامها موضع الإحتقار المشوب بالغضب .

والنتيجة التى أسفرت عنها تلك السنوات من النقاش الغاضب إحياء مـــذهب « القانون الأعلى » الذى قامت عليه فلسفة كالهون ، والذى بمقتضاه يكون للأقلية ما يبرر دعاويها ضد الأغلبية طالما العقل والتجربة فى جانبها . راحت المحكمة العليا تحطم السياسة الجديدة فى عبارات بليغة تذكرنا بالحجج السخيفة التى أدلى بها شويت فى قضية ضريبة الدخل [١] . فى تلك المرحلة بدا الدستور كأنه كتاب جديد أضيف إلى الإنجيل ، وأن القضاة رسل عدالة تكمن أصولها فى العقل . وحين تراجعت المحكمة العليا أمام قوة التنفيذ العام لم يكن رجال الأعمال على ثقة من صلابة الأرض التى يقفون عليها . كانوا يعبدون دستورا يفسرون القانونيون ليتمشى مع فلسفتهم وحين أصبح مذهبا تستطيع أية هيئة تشريعية أن تتحكم فيه راحوا يصرخون أن الرئيس روزفلت إرتكب جريمة إغتصاب متعمد لحقوقهم وأنه حول ديموقراطية دستورية إلى دكتاتورية شخصية .

---

(١) Pollock V. Farmers' Loan Company, 157 U. S. 690 (1895)

وكانت هذه النظرة أكثر أهمية بسبب الإطار الذى وضعت فيه ، فهى من جهة نتيجة مترتبة على عبادة المحامى الذى كان فى عالم متغير الصخرة الصماء التى يرتكز عليها أمنهم ، كما تولدت من جهة أخرى من رفع لنكولن إلى منزلة البطل الأسمى مما هيأ أساسا للإيمان التقليدى بالرجل العادى وأظهر أن الدستور الأمريكى يفتح الباب أمامه لأعلى منصب فى الاتحاد . وكان ذلك التمجيد للرجل الذى مات فى سبيل إنقاذ الإتحاد رفعا فى الوقت ذاته للدستور الذى أوجد ذلك الإتحاد ، ورفع الدستور بدوره أصبح الأسلوب النهائى لحماية حقوق الملكية من « غزو الجماهير » ويمكن أن نرى أنه منذ الوقت الذى حبذ فيه تيودور روزفلت فى عام ١٩١٢ إعادة النظر فى القرارات القضائية كيف أن الربط بين رفع لنكولن هذا وعمل المحكمة العليا حافز على استمرار تفسير كل ما تطلبته الملكية . ولكن هذا العمل أغفل أموراً عدة منها أنه لم يوضح أن معنى الدستور فى النظام الأمريكى ما أرادته المحكمة العليا فى أى وقت وأن معظم أعضاء الأخيرة من المحامين الناجحين وفق مفهوم النجاح عند رجل الأعمال . كذلك لم يشر إلى أن لنكولن كان خارقا للعادة وطموحا ومغامرا وسياسيا حاذقا ، أو أنه خلال سنى الأزمة حين تولى الرآسة استخدم الدستور ليجعل منه خادما لتحقيق الأغراض التى أراد لها أن تنتصر . ومن هذا تبدو حقيقتان أولاهما تؤكد المستويات العليا التى عاش فيها وأن التجربة التى بلغ بها تلك المستويات تجربة فريدة . والحقيقة الثانية أن مصدر ذلك « القانون الأعلى » المتجسد فى الدستور لم يكن فيه شىء غامض أو خالد فى الواقع ولكنه كان فى الأفكار المتعلقة بما كان لازما للابقاء على الاتحاد وفقا للصورة التى تشكلت بها هذه الأفكار فى عقل رجل ما كان يجرؤ شخص على التنبؤ بوجوده فى البيت الأبيض قبل أن يدخله . ومن بين تلك الأفكار من المهم ألا ننسى الغاء الرق بدون تعويض ملاك العبيد مما يعد من أعظم التضحيات التى تحملتها حقوق الملكية من أجل الضرورة العامة والتى حدثت فيما بين الثورتين الفرنسية والروسية .

إن رجال الأعمال فى أمريكا استغلوا الأسطورة على النحو الذى يحقق غاياتهم ولم يكن فى وسعهم أن يتخيلوا أو يوافقوا أن قيمة أية أسطورة بالنسبة إلى عصر معين تكمن فى قدرتها على أن تتكيف مع العادات ذات الأهمية الكبرى فى نظر

الحاكمين . والشيء الذى اعتبروه المستودع التاريخى لقانون صيغ على صورة العقل لم يزد عن كونه « الأدب الشعبي للرأسمالية » على حد قول القاضى ثورمان آرنولد إلا أنه لا يكاد يقل أهمية عن ذلك أن أرنولد نفسه رفض فكرة رجل الأعمال وذلك بتحبيذ قيام « طبقة حاكمة ذات كفاية وعملية وانتهازية » تعمل وفق المبدأ القائل بأن « أية عقيدة فى الحكم يقدمها القادة الحقيقيون يجب أن تتغير حتى تتلاءم مع الحاجات العاطفية لشعبهم » (١) . وواضح أن هذا يفترض وجود طبقة مختارة تعنى بشئون الجماهير كما يعنى الطبيب بمرضاه . والحق إن القاضى أرنولد يقارن فى احتقار مستويات القانون بمستويات الطب، فعنده أن المواطن العادى عاجز عن رعاية أموره ولما كانت هذه هى المهمة التى يؤديها ذوو الخبرة اللازمة للحكم فلذلك ليس لديهم ما يشغل بالهم من ناحية الجماهير سوى الاهتمام بتنظيم اشباع الجوانب العاطفية فيها . ومن هنا يمكن أن يشبه الحاكم فى ظل النظام الأمريكى الحديث على حد تصور أرنولد الأمير الذى يتحدث عنه مكيافللى والذى يملك معرفة الأخصائى فى طب الأمراض العقلية .

من الواضح أن القاضى أرنولد لايعترض على فلسفة رجل الأعمال على أساس أنها تجعل القلة سادة للكثرة ، ولكنه يقول إن على رجل الأعمال أن يعرف حقيقة عمله ولما كانت هذه المعرفة الحقيقية فى المستوى العلمى غير متاحة للافراد العاديين يصبح الحكم حقا للأكفاء ؟ ولكن أرنولد لم يسأل : أكفاء لمن ، ولأى شيء ؟ وهذا السؤال معناه الإيحاء بأن من المرغوب فيه وجود إيمان أو مثل أعلى يتسامى على دعاوى الاهلية ويكشف عن الحاجة إلى مبادىء تصبح ضرورية لأنها تجعل فى الإمكان إشباع الطلب على أوسع نطاق. ذلك الإشباع يتوقف على مقدرتنا فى معرفة الطلب وهذا بدوره يتعلق بمقدرة المواطن لا على التعبير عن مطالبه فحسب بل وعلى التقدير السليم للسياسات التى تنفذ من أجل إشباع هذه المطالب. ولما كان التقدير العاقل

---

(١) Thurman Arnold : The Folklore of Capitalism (New Haven : Yale University Press, 1937), p. 21.

السليم يعتمد على المعرفة ، ولما كان اختلاف طرق العيش يسبب اختلاف تفكير الناس فلا بد إذن من وجود أغراض مشتركة تؤدى إلى الثقة المتبادلة والتعاون فيما بينهم لا كوسيلة لإدراك غاية وإنما بوصفهم أعضاء بعثة كشفية من زملاء مغامرين ؛ كما قال القاضى هولمز فى عبارة مشهورة « فى كل سنة إن لم يكن فى كل يوم يتعين علينا المراهنة بخلاصنا على نبوءة ترتكز على أساس من المعرفة الناقصة » .

(Abrams v. United States)

وحين نبحث المشكلة الرئيسية بهذه الطريقة فلن يبق غير اليسير من فلسفة رجل الأعمال وربما أقل من ذلك من الصورة السفسطائية لها والتى دافع عنها القاضى ثورمان أرنولد . هذه الفلسفة ، فى إطارها التاريخى ، تبدو بصورة بسيطة وطبيعية مثل فلسفة مالك العبيد فى العالم القديم أو السيد الإقطاعى الذى نادرا ما ساوره الشك فى أن مستأجريه يعملون على زيادة رخائهم حين يحافظون على رخائه ويزيدون منه[1] . وهذا الإطار التاريخى راجع إلى عوامل فى البيئة المادية من جهة وإلى سعى الجنس البشرى للتسلط على الطبيعة من جهة أخرى . ففيه عناصر لأن الكشوف الجغرافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر توافقت مع الثورة الناجحة ضد سلطان الكنيسة الكاثوليكية ، وهذا التوافق منشؤه أن المكتشفين رسموا آفاقا جديدة لا يستطيع الناس بلوغها إذا ظلت القيم التى تقبلوها محصورة فى نطاق السلوك الذى كانت روما على استعداد لإقراره . وهذه الثورة انسابت فى كل وجوه علاقة الإنسان بالكون . كانت هناك فلسفة جديدة مع أسلوب جديد فى فحص المسائل الفلسفية . وكان هناك علم جديد شق طريقه فى القرن السابع عشر نحو إثبات مبادئه بطريق التجربة . وكان هناك علم أخلاق سعى ببطء إلى أن يجعل سلوكنا فى الحياة التى نعرفها مقياس الصواب والخطأ . وكان هناك اتجاه جديد فى السياسة والمسائل الاقتصادية كلما وجد الناس طريقة لتحقيق الرخاء أصلح من غيرها . إن كشف هذا الأسلوب الجديد للحياة نادرا ما كان متماسكا أو متوازنا

---

(١) CF. my : Rise of European Liberalism (London : Allen & Union, 1932) Introduction and Chap. I.

من حيث الزمان والمكان ، وغالباً ما كان المجددون أنفسهم على غير وعى بما كانوا يفعلون وأقل إدراكا بمدى التجديد الذى ابتدعوه ، فقد كان من المستحيل على جون كلفن أن يعرف أن اللاهوت الذى طلع به وما تضمنه من أخلاق اجتماعية كان شيئا خلاف العودة إلى الحقائق التى كشفها المسيح وأنكرتها أو فقدتها الأجيال المتتالية قبله . ومن إعادة تشكيل الأسس التى يقوم عليها الفكر الإنسانى ، ومن تحول السعى وراء المعرفة فصار جريا وراء القوة التى يعتبر الثراء دليلا أساسيا عليها بعد أن كان الأمر مقصورا على انتظار إرادة الله كما تعبر عنها الكنيسة — نقول من هذا كله ظهر اتجاه جديد إزاء العمل ، والفقراء ، والملكية بصفتها مقياس الرضاء الربانى ، واعتبار الطبيعة عالما منظما وفق قوانين يمكن الكشف عنها بطريق البحث وبذلك تجعل من الإنسان سيدا للطبيعة وهو الذى ظل منها منذ خروجه من الجنة فى موقف الثائر العاجز .

كل هذه عناصر اشتركت فى تحديد فلسفة رجل الأعمال بالولايات المتحدة ، ومن المحتوم أن كل عصر أضفى أهمية أكبر على عنصر منها دون سواه ، كما كان لكل عصر تفسيراته العقلية التى حاول عن وعى أو بغير وعى أن يفرضها على زمان ومكان معلومين . والقبول الضمنى لفلسفة رجل الأعمال كأنموذج للقيم كان نتيجة ارتباطها باقتصاد فى طريق التوسع ويحقق إشباعا أعظم لنسبة من السكان أكبر مما كان عليه الحال من قبل . ويمكن القول بوجه عام إنه حتى استنفاد مناطق الحدود كلما دنا القرن التاسع عشر من نهايته استطاعت هذه الفلسفة أن تواجه التحدى بنجاح إذ كان فى وسعها أن تدعى أنه تحت رعايتها تحولت أمريكا من صحراء شاسعة قليلة السكان إلى قارة غنية قادرة على أن تنتج فى الزراعة والصناعة ثروات وان تتيح فرصا لادراك الثراء أعظم من أى شعب آخر ، ولكن ضعفها الحاسم أنها افترضت دوام صلاحية القيم التى بشرت بها حتى حين تعرضت الظروف التى أدت إلى تقبل تلك القيم إلى تغيير جذرى . وعلى ذلك أخذت هذه الفلسفة تقف موقف الدفاع وأصبحت طريقة لحماية مصالح الماضى الثابتة أكثر منها لتنظيم ظهور مصالح المستقبل . وحدث ذلك التغير ببطء منذ إغلاق الحدود حتى نهاية الحرب العالمية الأولى ثم

بعد ذلك بسرعة مدهشة . وكلما كمل اندماج أمريكا فى الشئون الدولية بدا عجز هذه الفلسفة عن تحقيق أهدافها بشكل أوضح ، كما هو شأن جميع النظم الكبرى حين تقف عند مفارق الطرق فى تاريخها . والنتيجة المنطقية أن نظام القيم بدا أقل جاذبية لأنه صار حاجزا ضد مسايرة التغير وضد تحقيق الآمال الجديدة .

هذه الفلسفة التى استطاعت حتى عهد الحرب العالمية الأولى أن تتخذ موقف الهجوم ضد جميع منافسيها والتى لم يكن لها من حيث القوة السياسية منافس تشعر بالقلق من ناحيته ، تحولت قبل الحرب العالمية الثانية بعقد من السنوات إلى موقف الدفاع . لا شك أن أنصارها ظلوا يرددون دعاويها التاريخية فهيئات مثل غرفة التجارة والاتحاد القومى لرجال الصناعة كانت تتحدث فى مؤتمراتها السنوية عن تماثل هذه الفلسفة مع «الأمريكية» ، وتصف الخطر الذى يتعرض له نقاء الفكرة الأمريكية من ناحية الآراء «الأجنبية» التى لا تتفق مع ظروف أمريكا وخلقها . وظهرت إلى عالم الوجود تنظيمات جديدة مثل المؤتمر الصناعى الوطنى لتسبغ على التقليد القديم مظهراً شكليا من «الموضوعية» العلمية ولتنكر ازدياد التأكيد بافلاس هذه الفلسفة . وطورد من الكليات الاقتصاديون الذين كانوا يبدون الاهتمام بالمذاهب البديلة ، فتؤجل ترقياتهم ولا تشجع إعادة تعيينهم ، وأخيرا يفصلون من عملهم دون أى إحساس بالخجل . وأصبح مدير الجامعة من جهة الشخص الذى يستطيع الحصول على الأموال اللازمة لها ، ومن جهة أخرى الشخص الذى استطاع إدراك هذه الغاية بمنع المراكز الجامعية وبخاصة فى العلوم الاجتماعية من أن يشغلها ذوو الآراء «الخطرة» . إن مجلة الاتحاد الأمريكى لأساتذة الجامعات تلقى الضوء الكافى على الخوف الذى يثيره فى نفوس رجال الأعمال مدرس متهم بآراء لا تتفق مع العرف ، كما أنها فى الوقت نفسه شاهد على أنهم فى موقف الدفاع عن فلسفتهم وعلى أنهم لم يعودوا على استعداد لتقبل ذلك اللون من التحليل لمبادئها والذى لم يكن منذ قرن مضى يسبب لهم أقل ذرة من المضايقة .

ليس صحيحا بطبيعة الحال القول بأن الطبقة الغنية فى أمريكا أصبحت ذلك النوع المغلق الأبواب والذى كان يميز طبقة ملاك الأراضى فى المجر أو جماعة اليونكر فى بروسيا . ومع ذلك فمن الحقائق أن الوصول إلى مراكز القوة أقل يسرا بالنسبة إلى بعض الأقليات القومية والدينية ، وهناك ميل إلى اعتبارها موفقة إذا نجت من عبء الاشتغال بقطع الأخشاب وجر المياه . كما أنها الجماعات التى يسهل اتخاذها كبش الفداء عن ذنوب هى غير مسئولة عنها . ومن الواضح أن من العلائم ذات الأهمية الكبرى فى فهم مظاهر التوتر فى أمريكا المعاصرة ازدياد شعور الغضب من نجاح الزنجى فى الشمال كما فى الجنوب بعد أن كان مثل هذا النجاح منذ جيل مضى دليلا على متانة التقليد الأمريكى . وفى ظل هذه العلاقة من الصعب أن نقدر مغزى السناتور هيوى لونج الذى أقام نفوذه الهائل عن طريق تنظيم « البيض الفقراء » ضد مصالح الأغنياء بالولاية ، لأن النظرية الأساسية التى قامت عليها حملته كانت المطالبة بأن « الثروة يجب اقتسامها » ، وهى نظرية مؤداها أن توزيع الثروة الحالى فى أمريكا غير عادل ، وان للفقراء مطالب يتعين إشباعها عن طريق مال الولاية وكذلك الأموال الاتحادية . وهذه هى المرحلة الأولى فى ظهور شخص مثل هتلر .

استمرت صلاحية فلسفة رجل الأعمال الأمريكى حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، لأنه باستبعاد مشكلة الرق جعل توسع السوق المستمر فى الإمكان دائما الوصول إلى التفاهم بين مختلف الفئات فى مجلس الشيوخ حول المسائل التى نشأت بينهم . فبعد رآسة كليفلاند الأولى عاد الحزب الديموقراطى إلى منزلته القومية ولم تكن الخلافات بينه وبين الحزب الجمهورى أوسع من تلك التى تفصل بين ديموقراطى له نظرة وليم جننجز بريان وبين ديموقراطى محافظ مثل كارتر جلاس عضو الشيوخ عن فرجينيا الذى كان يجد أن تأييد آراء الجمهورى كابوت لودج أسهل عليه من تأييد المذاهب التى دافع عنها السناتور هوجو بلاك بنشاط وعزم خلال رآسة فرنكلين الأولى . وحتى حلول الكساد العظيم كانت الأغلبية الساحقة من أعضاء الاتحاد الأمريكى للعمل تجد من الطبيعى أن تمنح تأييدها للجمهوريين أو الديموقراطيين ، واستطاع صمويل

جومبارس خلال رآسته الطويلة للاتحاد أن يمنع العمال من التفكير فى العمل السياسى المستقل .

هناك صعوبة يسيرة فى فهم تأثير تلك الفلسفة فى الماضى ولكنه الآن يمثل صعوبة حقيقية تماما . إن على أية فلسفة اجتماعية أن تحقق الآمال التى تبشر بها إذا شاءت البقاء وهذا الأمر موضع الشك بالنسبة إلى فلسفة رجل الأعمال الأمريكى . ففكرة «المشروع الحر» أصبحت عتيقة منذ أمد طويل بالنسبة إلى الحياة الاقتصادية الأمريكية إذ لا يمكن القضاء على المشروعات الموحدة بمجرد التصفيق لقانون شيرمان . قد يبدو أمراً رائعاً أن يطالب المؤتمر السنوى للغرف التجارية الكونجرس ورئيس الجمهورية بإزالة « أعناق الزجاجة فى مشرعات الأعمال » على حسب تعبير القاضى ثورمان أرنولد ، وذلك بمنع المؤسسات الضخمة من الطغيان على حياة من وصفه روزفلت « بالرجل المنسى » . ولكن مثل هذا النداء لا يمكن أن يكون له صدى فعال لأن التكنولوجية الحديثة تتطلب وجود الشركة الكبيرة للابقاء على نظام الإنتاج الكبير . إن من المستحيل أن نتصور أن فى إمكان الرجل الصغير انتظار النتائج التى تتحقق بعد وقت طويل سواء كانت اقتصادية أو سيكولوجية ، أو الإنفاق بالقدر اللازم على الأبحاث ، أو تقديم المال لتجديد آلات المصنع كما فعل المستر فورد حين أراد إنتاج نماذج جديدة من السيارات . والقول بأن الفرص فى متناول الفرد وأنه قادر على الاستفادة منها بفضل القوانين التى تحول دون نمو هذه الإمبراطورية الصناعية الكبرى أسطورة لم يعد لها مغزى .

إلا أنه ليس من السهل القول بأن رجال الأعمال الأمريكية يساورهم شعور كبير بإفلاس فلسفتهم ، فهم مازالون يتحدثون عن القيم التى اعتادوا أن يروا وجوب إيمان العقل بها ، ويعتقدون أن النجاح فى مستطاع كل شخص قادر إذا خصص له كل فكره وأن الفشل يرجع إلى نقائص عقلية أو خلقية . وأظهر حسن استقبالهم لقانون « تافت — هارتلى أنهم ما يزالون يشعرون بالعداء للنقابات ، ذلك العداء اليقظ الذى تجلى بوضوح مثلا فى تكساس حيث طردت الجامعة ثلاثة من مدرسى

علم الاقتصاد لأنهم حاولوا أن يوضحوا للطلاب أن أسبوع الاربع و الاربعين ساعة لا يسمح للعمال المدنيين فى المصانع المخصصة للإنتاج الحربى بتجاوز هذا الحد(١) .

وأكثر من هــذا كله بدا عجز رجل الاعمال الامريكى عن رؤية الحاجة إلى أفــكار جديدة بأكبر قدر من الوضوح فى تفسيره لنفسه المعنى الذى انطوى عليه المجهود الامريكى فى ميدان الإنتاج الحربى ، فلم يدرك أن ضخامته سببها الطلبات التى تقدمت بها الحــكومة الاتحادية إلى رجال الصناعة وأنه بتوقفها فسوف تواجهه وزملاءه مشكلة ضخمة ليسوا على استعداد من الوجهة السيكولوچية لحلها. كذلك لم يدرك أن الأشياء التى تثير استياءه مثل الضرائب العالية والرقابة على الأسعار والمجال الصغير جدا الذى فيه تأثر من نظام البطاقات ـــ كلها كانت مجهوداً عقيما لمواجهة المشكلات التى أثارتها الرأسمالية الاحتكارية بأيديولوچية كانت قد بدأت تبدو عتيقة حتى فى أيام كوليدج . إنه يعتقد أنه شخص بسيط وصريح يؤدى عمله ولا يتدخل فى السياسة وأنه سيد مصير تسنده قوة إنتاجية لا مثيل لها من قبل،ويشعر بالثقة فى أن المستقبل له . وحين يفعل ذلك فإنه يميل مثل المستر إيمرى چونستون أحد رجال الصناعة فى الإقليم الغربى ورئيس الغرفة التجارية فى الولايات المتحدة (١٩٤٣/٤٤) إلى القول ببساطة أن كل من روسيا وأمريكا تسير فى طريق وان كان الاتجاه واحداً . وهو يظن ـــ وإن ساوره بعض الشك ـــ ان الشيوعية صالحة للاتحاد السوفييتى ولــكن الولايات المتحدة بتاريخها المختلف وتقاليدها المختلفة قد استقر رأيها على السير فى طريق المشروع الحر . أما كيف يمــكن التوفيق بين هذا المشروع الحر وبين التدخل المطرد من جانب الحــكومة أو مركز الولايات الجنوبية بوصفها تابعا للشمال والغرب ، فسؤال لا يوجهه إلى نفسه. إنه يستنتج أنه كما كان ماضى الولايات المتحدة معجزة التوسع السريع فسوف يكون مستقبلها كذلك معجزة .

---

(١) Professor C. E. Ayres : "Academic Freedom in Texas" New Republic, December 4, 1944, p. 742.

وثمت ملاحظة أخيرة عن فلسفة رجل الأعمال تستأهل أن نبديها . إن كل من له معرفة بعاداته لابد وأن يعجب بحيويته المدهشة واهتمامه الدائم بعمله وشعور الفخر الذى يساوره حين يلقى الاعتراف بأهميته فى المدينة أو الولاية التى ينتمى اليها أو بين منافسيه فى المهنة التى يزاولها . إلا أنه من الصعب ألا نشك فى أن انصرافه إلى العمل ترتب عليه حرمانه من نضج المزاج ومن القدرة على تكوين النظرة الواسعة وهما من الصفات الحيوية التى تميز العقل المسئول والمتحضر . ويتجلى هذا الافتقار إلى النضوج فى شدة احترامه للاخصائيين من أمثال روجر بابسون وأضرابه ، وعجزه عن اللهو ، والشك الذى يساوره من حيث أن كل ماهو عميق خارج العلوم الطبيعية لابد وأن يكون ثقيلا ومملا ، والإعتقاد بأن الشعر والفلسفة والموسيقى ميادين لا يستطيع أن يخصص لها غير وقت الفراغ أو أنه لايرعاها سوى النساء . ولا يقل عن هذا رغبته فى الإلمام بثقافة يومه دون ذلك الجهد العقلى الشاق الذى اشترك فى تكوين تلك الثقافة ، وهذا يفسر إسرافه فى مطالعة الكتيبات الشعبية التى تعطيه بطريقة سهلة الهضم المادة التى يأمل أن تكون مفتاح المعرفة فى المستقبل .

هذه السجية انتقلت إلى مختلف أوجه الحياة الأمريكية بحيث يمكن أن نلحظها فى البحوث الأكاديمية فى العلوم الاجتماعية والطبيعية وتبدو فى العلوم الاجتماعية بطرق متنوعة مثل إختيار الموضوعات كمنح دكتوراه الفلسفة فى الإقتصاديات المنزلية عن دراسة لغسل الأطباق فى المطاعم الصغيرة ، وكذلك تبدو فى الفحص الكمى الطويل لمشكلات يمكن حلها بطريق التحليل البسيط المستند إلى حسن الادراك . ومن ذلك البحث الضخم الذى جرى بطريقة إحصائية دقيقة لإثبات أن أصحاب الدخول الكبيرة يسكنون فى بيوت أعظم من ذوى الدخول الصغيرة . وتميل هذه السجية أيضا إلى الاهتمام بالنواحى التطبيقية من العلوم الطبيعية . صحيح بالطبع أن الأمريكيين قاموا بدور بارز فى معظم ميادين المعرفة البشرية إلا أنه من الصحيح بالمثل أن فيهم ذلك الحماس للبحث الذى يعود بنتيجة سريعة أو الذى يسفر عن نتائج لا تتناسب فى ضخامتها مع المجهود الذى بذل . وليس من الخيال القول إن جانبا كبيرا من الأبحاث يقوم به مدرسو الجامعات كى يثبتوا أنهم قوم عمليون .

ومثل آخر فيه الـكفاية يتجلى فى ازدياد وتأثير هذه الصفة على عادات الـكنائس الأمريكية سواء أكانت بروتستانتية أم كاثوليـكية . فطراز سلوك رجال الدين ، والاهتمام بتأكيد أن الـكنائس تقوم بأعمال ما ، وشدة الرغبة فى إثبات أن القسيس رجل يفهم أمور الدنيا ، والجهد الذى يبذل ليجعل من الدين سلعة قابلة للبيع وتدر عائداً طيباً على المستثمر كما هو الحال بالنسبة إلى سيارة أو ثلاجة جديدة — هذه كلها مظاهر لا يمـكن أن نخطئها . والقسيس عضو فى نادى الروتارى والمؤسسات المماثلة ، ويهتم بالشئون العملية لحياة أتباع كنيسته وجيرانه فى المنطقة التى يقيم فيها ، ويشعر أن من واجبه أن يتحدث عن المسائل الإجتماعية بطريقة يلمح فيها أتباعه نوع النصيحة العملية التى يقدمها مصرفى موثوق به إلى عميله . ويبذل مجهوداً ضخماً ليجعل من كنيسته منافساً جذاباً يوم الأحد للمغريات التى يوفرها الجولف والسيارة والسينما والنادى الريفى ، فهو بالمدينة أكثر منه بالريف بائع لنوع من الفراغ ويعلم أنه إذا فقد قبضته على فنه فإن زبائنه سوف يتجهون إلى غيره . وقد يغالى البعض مثل بيلى سنداى فيحولون كنائسهم بصراحة إلى صالات موسيقية .

وأخيراً تتلخص مشـكلة رجل الأعمال الأمريكى فى الهوة التى تفصل الفلسفة التى يعتنقها عن طابع البيئة التى يريد أن يطبق هذه الفلسفة عليها . إنه يحاول أن يعيش على عقيدة صارت بالية منذ زمن طويل ، وأنه ليقترب بسرعة من المرحلة التى تحتم عليه الاختيار بين عقيدة غير مناسبة وعالم لا يمـكن قهره إلا عن طريق التجارب الجديدة الحاسمة كتلك التى أدت إلى قيام الولايات المتحـــدة أو التى ولدتها الحرب الأهلية . وسوف يقوم بهذه التجارب الجديدة بطبيعة الحال مادام التلاؤم مع الأحوال الناشئة شرط البقاء ؛ ولـكن يطارده الرعب مما قد يلقاه فى العالم الذى يزمع الدخول فيه ، وفوق كل شىء يطارده الخوف من أنه حين يدخل فى هذا العالم ربما يكون قد فقد القوة على التحـكم فى مصيره .

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الأنجلو المصرية
١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)



مطبعة لجنة البيان العربي
١ شارع مصطفى باشا كامل - الظاهر